فلسفة

آين راند

مكتبة ١٣٣٢

من أجل مفكر جديد

ترجمة: سمية حبتور

صفحة ٧

إهداء لـ ..

صديقي مكتبة

محمد المهدي

أحمد مهدي

قررنا جعلكما إخوة في الكتب

من أجل مفكّر الجديد

مكتبة

t.me/soramnqraa

كتاب

من أجل مفكّر جديد

المؤلف

آين راند

الطبعة الأولى :2021

الترقيم الدولي

978-603-91551-3-3

رقم الإيداع

1442/4269

Copyright ©Ayan Rand,1961

(The moral rights of the author have been asserted)

حقوق الترجمة العربية محفوظة

© صفحة سبعة للنشر والتوزيع

E-mail: info@page-7.com

Website: www.page-7.com

Tel.: (00966)583210696

العنوان : الجبيل ، شارع مشهور

المملكة العربية السعودية

تستطيع شراء هذا الكتاب من متجر صفحة سبعة

www.page-7.com

For The New Intellectual

Ayn Rand

مكتبة
t.me/soramnqraa

من أجل مفكّر الجديد

آين راند

ترجمة

سمية حبتور

صفحة

من هم المفكّرون الجدد؟

«ما من امرأة أو رجل معزول عن رغبة التفكير. فالجميع يعلمُ أنّ حياة الإنسان لا تُهتدى إلا بالعقل، ولهذا يثمّنونها ويأبون تسليمها إلى سلطة اليأس التي يفرضها النظام الغابي الحديث القائم المذهب الكلبي الذي ينصُّ على عجز الإنسان المطلق، تمامًا مثلما يأبون تسليم العالم إلى حكم القوة الغاشمة وإعادته إلى العصور المظلمة».

يقدم هذا الكتاب أساسيات فلسفة آين راند وتستهدفُ «أولئك الذين يرغبون في الحصول على رؤية متكاملة للوجود الإنساني». وتطرح راند في المقال الرئيس الذي يتصدر صفحات الكتاب تحليلًا للثقافة الغربية، تناقش من خلاله أسباب تقدم هذه الثقافة وانحطاطها، وإفلاسها الحالي، وترشد إلى الدرب الواجب نهجه للوصول إلى النهضة الفكرية.

ترفع آين راند في فلسفتها من قيمة «العقلانية والفردانيّة والرأسمالية» في مقابل المذاهب السائدة اليوم المتمثلة في «الباطنية والغيريّة والجماعيّة». وقدمت وجهات نظرها هذه غير التقليدية

والاستثنائية في رواياتها التي ما لبثت وأن أصبحت من نخبة الكلاسيكيات الحديثة.

الفهرس

تمهيد 9

إلى المفكّر الجديد 13

نحن الأحياء 101

ترتيلة 107

المنبع 111

طبيعة من يحيون حياة مُعارة 111

روح الجماعيّ 116

روح الفرداني 127

الأطلس متململًا 145

في معنى المال 146

استشهاد الصناعيين 156

في المعنى الأخلاقي للرأسمالية 160

في معنى الجنس 163

كلٌّ حسب قدرته، وكلٌّ حسب حاجته 168

الطبيب المنسي تحت ظل الطب المؤمم 190

في طبيعة الفنان 191
جون غالت يتحدث 195

تمهيد

مكتبة
t.me/soramnqraa

أوجه هذا الكتاب إلى الذين يرغبون في الاضطلاع بمسؤولية أن يصبحوا مفكّري العصر الحديث. والذي يحتوي بين دفتيه على مقتطفات فلسفية رئيسية من رواياتي الأدبية، ويعرض الخطوط العريضة لنظام فلسفي جديد.

إن النظام الكامل لهذه الفلسفة يرد ضمنيًّا في هذه المقتطفات (لاسيما في خطاب غالت)[1]، لكن لا يسعنا إيضاح أسسه إلا بالأسلوب الفضفاض، والذي يتطلب عرضًا تفصيليًا ومنهجيًا في شكل أطروحة فلسفية. وأعمل حاليًا على مثل هذه الأطروحة، والتي ستتناول في الدرجة الأولى المسألة التي كنت بالكاد قد تطرقت إليها في خطاب غالت: الأبستمولوجيا (نظرية المعرفة). كما ستقدم نظرية جديدة لطبيعة المفاهيم ومصدرها والتحقق من

صحتها. وبلا شك سيتطلب إتمام هذا العمل العديد من السنوات، لكن حتى ذلك الحين، أقدم الكتاب الحالي بوصفهِ مقدّمة أو موجزًا فلسفيًّا موجّهًا إلى أولئك الذين يرغبون في

(1) جون غالت هو الشخصية البطولية في روايتها الأدبية الرابعة «الأطلس متململًا».

الحصول على رؤية متكاملة للوجود الإنساني. وبإمكانهم اعتبارهُ مخطّطًا عامًّا يمنحهم التوجيه الذي يلتمسوه، لكن شريطة أن يفكروا مليًا في المعنى الدقيق لهذه المقتطفات وما تستدعيه من دلالات، وأن يعمدوا إلى فهمها.

كثيرًا ما يُوجه إليّ سؤال عمّا إذا كنت روائية أم فيلسوفة في المقام الأول، والجواب هو الاثنين معًا. بمعنى آخر، كل روائي هو فيلسوف بالضّرورة، ذلكَ أنّهُ من المستحيل على المرء أن يقدم صورة عن الوجود البشري دون وجود إطار فلسفي يركن إليه. والخيار الوحيد المتمثل أمام الرّوائي في هذه الحالة هو ما إذا كان سيجعل هذا الإطار موجودًا في قصّته بصورة صريحة أم بصورة ضمنية، سواء أ كان على دراية به أم لا، وسواء أكان يحمل قناعاته الفلسفية بوعيٍ أو دون وعي. كما أنه يندرج تحت هذا الخيار، خيارٌ آخر أمام الروائي، وهو ما إذا كان سيسقط على عمله الأدبي أفكاره الفردية لفلسفة قائمة بالفعل، أو ما إذا كان سيُنشِئُ إطارًا فلسفيًا خاصًا به. ما قمت به في أعمالي الأدبية هو الخيار الثاني. وهي ليست المهمة المحددة التي يضطلع بها الروائي. لكن كان علي فعلها لأن رؤيتي الأساسية للإنسان والوجود كانت تتعارض مع معظم النظريات الفلسفية القائمة. وقبل أن أحدد وأوضح وأقدم مفهومي للإنسان، كان عليّ أن أبلُغَ لقبَ «الفيلسوفة» بكلِّ ما تحملهُ الكلمة من معنى.

وقد أدرجت مقتطفات من جميع رواياتي الأربع لأولئك الذين

قد يحوزهم الاهتمام بمعرفة التطور الزمني الذي مرّت به تجربتي الفكرية. ولعلهم يلاحظون التدرج في موضوعات هذه الروايات، من موضوع سياسي في رواية «نحن الأحياء»، إلى موضوع ميتافيزيقي في رواية «الأطلس متململًا».

وهذه المقتطفات تعد حتمًا خلاصات موجزة، نظرًا إلى أن الإيضاحات الوافية للموضوعات المعنية في كل رواية تُعرض عن طريق أحداث القصة. فالأحداث تمثل المحسوسات والخصائص، والخطابات هي الخلاصات المجردة.

عندما أقول إنّ هذه المقتطفات مجرد مخطط عام، لا أعني بذلك أن نظامي الفلسفي الكامل ما زال لم يُكتشف أو لم تُحدد معالمه بعد، بل كان لزامًا عليّ أن أحدده قبل أن أبدأ في كتابة روايتي «الأطلس متململًا». ويعدُّ خطاب شخصية «غالت» ملخّصًا وجيزًا لهذه الفلسفة.

ولحين الانتهاء من عرض فلسفتي في صورة مفصلة تمامًا، قد يكون هذا الكتاب الذي بين يديك بمثابة مخطط أو برنامج أو بيان لها. ولأسباب سأوضحها في الصفحات المقبلة، فإن الاسم الذي اخترت أن أطلقه على فلسفتي هو «الموضوعانية- Objectivism».

آين راند

أكتوبر/ 1960

من أجلِ مفكّر جديد

عندما يقترب شخص، أو مؤسسة تجارية، أو مجتمع بأكمله من الإفلاس، هناك مسارين يمكن للمهدّدين اتباعهما: بإمكانهم التهرّب من الأمر الواقع والتّصرف بما يمليه عليهم الموقف وذلكَ بانفعالٍ وعماءٍ يتولّدُ عن اللّحظة تلكَ، بعيدًا عما هو صوابٌ أخلاقيًّا- كما أنّهم يمتنعونَ عن النّظر إلى الأمام، وتختلجُ في صدورهم أمنيةُ ألّا ينطق أحدهم بالحقيقة، ويرتجون بشدة أن يورق شيء مّا فينقذهم- أو بإمكانهم التعرّف على السّياق الذي هم فيهِ، وفحص مسلماتهم، واكتشاف أصولهم القيمية المخفية، والشروع في عمليّة الإصلاح.

تتبع الولايات المتحدة الأميركية في الوقت الحاضر المسار الأوّل. وتوحي الأصوات العامّة التي تتسم بالضبابية والتشاؤمية العقيمة والحذر المبهم والتهرب الآثم أنّ هناكَ قرار باتّخاذ موقف

رجال الحاشية في قصة «ثياب الإمبراطور السحرية»[2] الذين ادعوا إعجابهم بثياب الإمبراطور غير الموجودة، بعد أن قبلوا الادعاء القائل بأن أي شخص يفشل في رؤية هذه الثياب هو شخص فاسد أخلاقيًا في جوهره.

لكن دعوني أكون الطفل الذي في القصة وأصرّح بأن الإمبراطور شخصٌ مجرّدٌ من الثياب، أو أصرح بأنأمريكاعبارة عن مجتمع مفلس ثقافيًا.

في أي فترة زمنية معينة من التاريخ، يُحكم على ثقافّة ما من خلال فلسفتها المهيمنة، ومن خلال الاتجاه السائد في حياتها الفكرية الذي يتجسد في مجالات الأخلاق، والسياسة، والاقتصاد، والفن. والمفكرين المهنيين هم صوت الثقافة في أي مجتمع كان، بالتالي هم قادتها وموحّديها وحماتها. وما يحدث في الولايات المتحدة الأميركية من انهيار، هو انهيار على مستوى قيادتها الفكرية. ولهذا نرى أنّ فضائلها وقيمها وقواها الهائلة قد تناثرت في جوف صامت، وستبقى منعزلة وذاتية (غير موضوعية) وواهنة تاريخيًا إذا تُركت دون تعبير فكري. إنأمريكابلد تفتقر إلى الصوت وإلى من يدافع عنها، كما أنّها

(2) .حكاية شعبية قصيرة من الأدب الدنماركي تحكي عن خياطين محتالين تمكنا من خداع إمبراطور بقدرتهما على تفصيل ملابس من أقمشة «سحرية خفية» لا يراها من كان غير كفء في منصبه أو يعاني من الغباء الشديد. وظنًا منه أنها طريقة مناسبة لكشف غير المؤهلين من حاشيته وتمييز العقلاء من المغفلين. أرتدى الإمبراطور الثياب التي لم يشعر بوجودها وسط رجال حاشينه الذين أخذوا يمدحون جمال الثياب خوفًا من أن يتهموا بالغباء وأن يخسروا مناصبهم. وخرج في موكب مستعرضًا ثيابه الجديدة، ليسمع عبارات الإطراء من الجميع تقريبًا إلى أن صاح طفل بأن الإمبراطور لا يرتدي شيئا لتنطلق موجة من الصرخات والضحكات بين الأهالي. والجدير بالذكر هنا أن القصة تعد تمثيلًا دقيقًا لمفهوم عقلية القطيع والتزام الصمت خشية قول الحقيقة. (المترجم)

بلد تمّ بيعها من قبل حماتها الفكريون بعدما تخلوا عنها.

يُعرّف الإفلاس على أنه الحالة التي تنقضي فيها الثروات والموارد. فما هي القيم أو الثروات الفكرية التي منحها لنا الرعاة الحاليون لثقافتنا؟ في الفلسفة، علمونا أن عقل الإنسان عاجز تنقصه المقدرة، وأن الواقع أمر مجهول لا سبيل إلى معرفته، وأن المعرفة وهم، وأن تحكيم العقل هو ضرب من ضروب الخرافة. أما في علم النفس، فقد قيل لنا إنّ الإنسان بمثابة آلة عاجزة، تسيّره قوى خارجة عن إرادته، ومدفوع بفساد فطري. وفي الأدب، يبرز أمامنا مجموعة من المجرمين والمدمنين على الكحول والمخدرات والمضطربين والمختلين عقليًا بصفتهم ممثلين عن الأنفس البشرية- بل ونُدعى إلى تحديد هويتنا من بينهم- مع توكيدات عدائية بأن الحياة شاقة وقذرة يتكالب فيها الأفراد على المناصب والثروات، ومع عويل المتذمرين بأنه يجب أن نقبل كل شيء باستثناء الفضيلة، وأن نغفر لكل شيء باستثناء العظمة. وفي السياسة، أخبرونا أن أميركا، أعظم دولة على وجه الأرض والأنبل والأكثر حرية، هي أدنى سياسيًا وأخلاقيًا من روسيا السوفييتية، ذات النظام الدكتاتوري الأكثر دمويةً في التاريخ. وأخبرونا أن ثروتنا يجب أن تُمنح للهمجيين في آسيا وأفريقيا، معتذرةً عن حقيقة أننا أنتجناها بينما لم يفعلوا هم ذلك. وإذا ما نظرنا إلى المفكرين المعاصرين، فإننا سنواجه مشهدًا قبيحًا من الارتياب الشديد، والتشاؤمية المتطرفة، واللاأدرية المتزمتة، والازدراء الذاتي الممدوح، والفساد الأخلاقي

المُزكى، في جو يسوده الشعور بالذنب والذعر واليأس والسأم والتهرّب الكامل. إذا لم يكن هذا هو حال المجتمع عندما يفلس من ثرواته، فليس ثمة تفسير آخر نستطيع أن نلجأ إليه.

يبدو أن الجميع يتفقون على أن الحضارة البشرية تواجه أزمة، لكن لا أحد يبالي بتحديد طبيعتها، والوقوف على أسبابها، وتولي مسؤولية إيجاد حلول لها. لكن ما تفعله الثقافة السليمة أخلاقيًا في الأوقات التي يكتنفها الخطر هو حشد قيمها واعتزازها بنفسها وروحها القيادية للقتال من أجل مُثلها الأخلاقية العليا بثقة وإيمان قويمين كاملين. لكن هذا ليس ما نبصره اليوم. فإن سألنا قادتنا المفكّرين ما المثل العليا التي يجب أن نناضل من أجلها، ستكون إجابتهم شبيهة ببركة من الشراب اللزج الفاسد- من العبارات المبتذلة حول الغيرية والإحسان والتعميمات التي تبرر الحب الأخوي وإحراز التقدم والازدهار العالمي على حساب أمريكا- التي لن تموت ذبابة من أجله أو فيه.

أحد الأخطاء المأساوية التي ترتكبها أمريكا هو أن الكثير من ألمع عقولها يظنون- كما فعلوا في الماضي- أن الحل يتمثل في مقاومة الفكّر والاعتماد على نوع من الحكمة الشعبية المتواضعة. لكن العكس تمامًا هو الفعل الصائب. فما يلزمنا بشدة هو الاعتراف بالقوة الهائلة والأهمية البالغة للمهن الفكرية. فأي ثقافة يُستحال أن تعيش من دون تيّار مستمر ومتدفّق من الأفكار والعقول النبيهة والمستقلة التي تنتجها، ويُستحال أيضًا أن تعيش دون نظام فلسفي

للحياة، ودون أولئك الذين يعبرون عنه ويساهمون في صياغته. إن أي بلد يخلو من المفكرين هو بمثابة جسد بلا رأس. وهذا هو بالضبط حال أمريكا اليوم. فما نشهدهُ اليوم من انحلال ثقافيّ لم يتسبّب فيه المفكّرون ولم يساهموا في بقائه بل يعودُ السّبب إلى انعدام هذا المفكّر. إضافة إلى أنّ أغلبيّة من نعتقدُ أنّهم مفكّرين، ليسوا إلا أشخاصًا بليدين فكريًا ويتّسمون بالارتباك، علاوة على اصطناعهم المواقف فيحتفظون بها لأنفسهم ويحيكونها على مقاسهم، وما اعتقادهم بمذاهب من قبيل الوجودية والبوذيّة الزنية إلا نوع من التّخلّي والخروج عن الميدان الفكري.

بعد عقود من إلقاء المواعظ الدينية والأخلاقية التي توصي بأن السمة البارزة للمفكّر هي إعلانه عن عجز العقل، في المقابل ظلّ من هم غير منتسبين إلى المفكرين المعاصرين في حالة من الذعر أمام حقيقة أنهم أتوا أتباعًا للأولين، وأنهم عاجزون عن إشعال ضوء الحضارة الذي أطفأوه، وأنهم عاجزون عن إيقاف الزحف المنتصر للغشم البدائي الذي أطلقوا سراحه، وأنه ليس لديهم أي جواب ليمنحوه لتلك الأصوات من العصور المظلمة التي تنادي بتهكم وتشفٍ بأن العقل والحرية قد حظيا بفرصتهما ولقيا الفشل، وأن المستقبل مثل ليلة طويلة من الماضي، يقع على عاتق «الإيمان» و«القوة الغاشمة».

إذا تصرف جميع مصنعي محركات القاطرات فجأة بصورة غير عقلانية وبدأوا في تصنيع عربات تجرها الأحصنة بدلًا من ذلك،

فلن يقبل أحد الادعاء بأن هذا ابتكار متقدم أو أن القاطرات البخارية قد فشلت في عملها، وسيخطو الكثير من الناس في الحيز الصناعي لبدء تصنيع المحركات البخارية. لكن عندما يجري هذا على أرض الفلسفة- عندما تُعرض علينا البوذية الزنية وما يناظرها من مذاهب على أنها القول الفصل والأحدث في الفكر الإنساني- لم يقرر أحد حتى الآن أن يخطو في الحيز الفكري من أجل إعمال العقل الإنساني.

وهكذا يُتوقع الآن من حضارتنا الصناعية العظيمة أن تدير خطوط السكك الحديدية وخطوط الطيران والصواريخ العابرة للقارات ومخزونات القنابل الهيدروجينية وفق العقائد الفلسفية التي أنشأها الهمجيون غير المتمدنون لأنفسهم، أولئك الذين كانوا يعيشون في أجوافٍ من الطين، ويحفرون في التربة بأيديهم لغرس حفنة من الحبوب، ويأدون شكرهم وحمدهم لتماثيل الحيوانات المشوهة التي يعبدونها بصفتها متفوقة على جنس الإنسان.

تاريخيًا، يُعد المفكر المهني ظاهرة حديثة جدًا؛ فهو لا ينتمي إلا إلى الثورة الصناعية. فلم يكن هناك مفكرون مهنيون في المجتمعات الهمجية البدائية، وكان لا يوجد سوى الدكاترة الحالمون. ولم يكن هناك مفكرون مهنيون في العصور الوسطى، وكان لا يوجد سوى الرهبان في الأديرة. وفي حقبة ما بعد عصر النهضة، قبل ولادة الرأسمالية، كان رجال الفكر- الفلاسفة والمعلمين والكتاب والعلماء الأوائل- أشخاصًا بلا مهنة، أي دون منصب مُعترف به

اجتماعيًا، ودون سوق لتبادل السلع، ودون وسيلة لكسب الرزق. كان يجب أن يتركوا المساعي الفكرية إلى صدفة الحصول على ثروة موروثة أو إلى تأييد بعض الأوصياء الأثرياء ودعمهم المالي. فلم تكن الثروة تحصيلًا من سوق حرّة؛ وإنما من خلال الاستيلاء أو البطش أو السلطة السياسية، أو من خلال الاعتماد على إحسان أولئك الذين يتمتعون بالسلطة السياسية. وكان حال التجار في هذا الاعتماد أكثر تزعزعًا وهشاشة من المفكرين.

ظهر صاحب الأعمال المهنيّة والمفكر المهني إلى الوجود معًا بوصفهما أخوينِ ولدتهما الثورة الصناعية الأم، فكليهما ينحدران من صلب الرأسمالية. وإذا ما هُلك أحدهما فسوف يفنى الآخر. وستكون المفارقة المأساوية هنا هي أن كلًّا منهما هو من دمر الآخر، والنصيب الأكبر من الذنب سيعود إلى المفكر.

ومع توفّر استثناءات قصيرة المدى ونادرة للغاية، إلا أن مجتمعات ما قبل الرأسمالية كانت لا تحتضن القدرة الإبداعية لعقل الإنسان، لا في خلق الأفكار ولا في تكوين الثروات. فقد كان العقل وصورته العملية المتمثلة في التجارة الحرة محرّمان بصفتهما خطيئة وجرمًا، أو كانا يُقبلانِ بالتساهل على الرّغم من أنهما من الأنشطة الوضيعة، تحت سيطرة السلطات التي بوسعها الامتناع عن التساهل معهما تبعًا لهواها. كانت مثل هذه المجتمعات خاضعة لحكم «الإيمان» وصورته العملية التي تتمثل في القوة الغاشمة. لم يكن هناك صناع معرفة ولا صناع ثروة؛ ولم يكن هناك سوى

الدكاترة الحالمون وزعماء القبائل. وكانت هاتين الفئتين تهيمنان على كل فترة تاريخية معادية للعقلانية، سواء أطلقنا عليهما هاذين المسميين السابقين زعماء القبائل والدكاترة الحالمون، أم الحكام المطلقين والزعماء الدينيين، أم الدكتاتوريين والوضعيّين العقلانيين.

واقتباسًا من كلام غالت في رواية «الأطلس متململًا»: «إحدى النكت المأساوية بشأن التاريخ البشري هو أن على أي مذبحة من المذابح التي نصبها البشر، كان الإنسان دائمًا هو من يقدم قربانًا والحيوان هو من يكون في موضع تقديس. ولطالما كانت الخصال الحيوانية وليست الإنسانية هي التي تمجدها البشرية. فهناك ممجدي الغريزة وممجدي العنف، وهم الباطنيون والحكّام. الباطنيون هم الذين كانوا يصبون إلى التمتع بوعي لا تبعة عليه، ويحكمون من خلال الادعاء بأن عواطفهم العميقة تتفوق على العقل، وأن المعرفة جاءت في شكل نوبات عشوائية مجهولة السبب، يجب اتباعها بصورة عمياء دون أن يخالط النفس أي شك. الحكّام، هم الذين حكموا باستخدام المخالب والعضلات، مع إخضاع الآخرين كأسلوب لحكمهم والنهب كهدف لهم، والسلاح أو المضرب كتصديق وحيد على سلطتهم. كان المدافعون عن روح الإنسان معنيين بمشاعره، وكان المدافعون عن جسد الإنسان معنيين بمعدته، لكن كلاهما اتحدا ضد عقله».

هذين النوعين- إنسان الإيمان وإنسان البطش- يمثلان نماذج فلسفية ورموزًا نفسية وواقعًا تاريخي. هما نموذجين فلسفيين لأنهما

يجسدان شكلين مختلفين لرؤية معينة حول الإنسان والوجود. وهما تشكيلٌ من الرّموز النّفسية لأنهما يمثلان الباعث الأساسي لدى الكثيرين جدًا ممن يعيشون في أي عصر أو ثقافة أو مجتمع. وهما واقع تاريخي لأنهما الحكام الفعليون لمعظم المجتمعات البشرية، والذين يرتقون إلى السلطة متى ما تخلّى الأفراد عن العقل.[3]

تظل السمات الأساسية لهاتين الفئتين هي ذاتها في جميع العصور: «أتيلا»[4]، هو الإنسان الذي يحكم بالقوة الغاشمة ويتصرف في نطاق اللحظة الآنية، وهو إنسان لا يهمه سوى الواقع المادي الماثل أمامه مباشرة، ولا يلقي اعتبارًا سوى لقوة بطش المرء، ويرى أن قبضة اليد أو المضرب أو السلاح هي الجواب الوحيد لأي معضلة قد تنشأ. «الدكتور الحالم» من ناحية أخرى، هو الإنسان الذي يخشى الواقع المادي، ويخشى ضرورة الفعل العملي، ويهرب إلى عواطفه وإلى رؤى عالم باطني حيثما تتمتع أمنياته بقوى خارقة غير محدودة بفضل طبيعته المطلقة.

قد يبدو هذين النوعين متناقضين ظاهريًا، لكن لاحظ ما يشتركان فيه: وعي قُيدت طريقة عمله إلى المستوى الإدراكي الحسي، وعقل اختار ألا يمتد إلى ما هو أبعد مما هو تلقائي ولحظي

(3) .أدين بالفضل لناثانيال براندن لمشاركته معي العديد من الملاحظات القيمة حول هذا الموضوع ولتسميته البليغة التي اقترحها للنموذجين الإنسانيين اللذين سأستخدمهما من الآن فصاعدًا: وهما "أتيلا" و"الدكتور الحالم".

(4) .نسبة إلى "أتيلا الهوني"، أخر حكام قبائل الهون التي سيطرت على وسط وجنوب أوروبا خلال منتصف القرن الخامس الميلادي. عُرف بجبروته وطغيانه وصنفت فترة حكمه على أنها الأسوأ في صفحات التاريخ الإنساني لما عاثه في الأرض والأرواح من فساد عظيم.(المترجم)

ومُعطى لا إراديًا، وهو ما يجسد نظرية المعرفة عند الحيوان، أو ما يقترب منها بقدر ما يستطيع الوعي البشري الوصول إليه.

يتشارك وعي الإنسان ووعي الحيوان في المرحلتين الأوليين من تطوّر الوعي: وهما الإحساس بالمثير والإدراك الحسي. لكن الحالة الثالثة، وهي تكوين المفاهيم (الإدراك الذهني)، هي ما تجعله إنسانًا. حيث يدمج الدماغ في كلا الإنسان والحيوان الأحاسيس في المدركات الحسية تلقائيًا. لكن دمج المدركات الحسية في المفاهيم من خلال عملية التجريد، هو عمل فذٌّ. وحده الإنسان قادر على أدائه، ولا تحدث إلا «باختياره». إنّ عمليّتي التجريد وتكوين المفاهيم عمليّتان ينوط بهما العقل والفكر؛ وليستا عمليّتين تلقائيّتين ولا غريزيّتين ولا قسريّتين ولا معصومتينِ عن الخطأ. على الإنسان أن يجريهما، وأن يواظب عليهما، ويتحمل مسؤولية نتائجهما. فمستوى الوعي الذيَ يسبق تكوين المفاهيم ليس اختياريًّا؛ حيث تبدأ حرية الاختيار مع أول استنتاج فكري. والإنسان لديه خيار التفكير أو التهرب، خيار الحفاظ على حالة من الوعي الكامل أو الانجراف من لحظة إلى أخرى، في حالة ارتباك شبه واعية، وتحت رحمة تداعيات أي أهواء تنتجها آلية وعيه المشتتة.

إن الكائنات الحية التي تمتلك ملَكَة الوعي لابد أن تمارسه في سبيل البقاء على قيد الحياة. ففي حال وعي الحيوان، فإنه يعمل بصورة تلقائية، هذا يعني أن الحيوان يدرك حسيًا ما بوسعه إدراكه وبناء عليه يعيش، دونَ أن يبتعدَ عن المستوى الإدراكي الحسي

المسموح بهِ. لكن الإنسان يستعصي عليه أن يبقى على قيد الحياة إن توقف وعيه عند المستوى الإدراكي الحسي؛ فحواسه لا تزوده بتوجيه تلقائي، ولا تمنحه المعرفة التي يحتاجها، وإنما تمنحه فقط مادة المعرفة التي يجب على عقله أن يدمجها. إنَّ الإنسان هو الكائن الحي الوحيد الذي عليه أن يدرك الواقع باختياره، وهو ما يعني وجوب الوعي. مع ذلك، يشارك الإنسان الأنواع الحية الأخرى جزاء عدم ممارسة ملكَة الوعي (الجهل)، وهو الهلاك والفناء. لذلك فإن مسألة البقاء عند الحيوان هي مسألة جسدية في المقام الأول، وعند الإنسان هي مسألة معرفية في المقام الأول.

وعليه، فإن حِسبَة الإنسان الفريدة هي أَنّهُ يتعارضُ مع الحيوانات التي تنجو من خلال تكييف نفسها مع محيطها البيئي، أمّا الإنسان فينجو من خلال تكييف بيئته وفقَ إرادته. فإذا ألمت بالأرض موجة جفاف، يُهلك الحيوان ويبني بنو الإنسان قنوات الرّي. وإذا ألمت بالأرض موجة فيضان، يُهلكُ الحيوان ويبني بنو الإنسان السدود. وإذا هجمت زمرة من آكلات اللحوم، يُهلك الحيوان ويصيغ الإنسان دستور الولايات المتحدة. لكن المرء لا يحصل على الغذاء أو الأمان أو الحرية بالفطرة.

هذه الملكَة، ملكَة العقل، هي ما يتمرد «أتيلا» و«الحالم» ضدها. وما تسكنه أنفسهما هو رغبة التمتع بالوعي التلقائي والسهل واللامبالي الذي تمتلكه البهيمة. كلاهما يخشى ضرورة التمتع بالإدراك العقلاني ومسؤوليته والمخاطر التي تنطوي عليه. كلاهما

يخشى حقيقة أن «الطبيعة حتى نهيمن عليها يجب إخضاعها». كلاهما يسعى إلى العيش عن طريق التكيف مع المُعطى واللحظي والمعلوم، وليس عن طريق إخضاع الطبيعة. وثمة وسيلة واحدة للبقاء لأولئك الذين يعرضون عن إخضاع الطبيعة: وهي إخضاع أولئك الذين يفعلون ذلك.

إن إخضاع الأفراد جسديًا هو وسيلة «أتيلا» للبقاء على قيد الحياة. حيث ينظر إلى الأشخاص مثلما ينظر الآخرون إلى أشجار الفاكهة أو حيوانات المزرعة: أشياء في الطبيعة وُجدت له لاغتنامها والاستيلاء عليها. ولكن في حين أن المزارع المحنك يدرك، على الأقل، أن أشجار الفاكهة والحيوانات تتسم بطبيعة محددة وتتطلب نوعًا معينًا من المعاملة، فإن العقلية الإدراكية «لأتيلا» لا تمتد إلى هذا المستوى من التجريد: فالأفراد بالنسبة إليه ظاهرة طبيعية وعنصر أولي لا يمكّن تحويله، كما نرى أنّ جميع الظواهر الطبيعية هي أوّليات لا يمكن نقلها إلى الحيوان. يرى «أتيلا» أنه ليس هناك ما يستدعي منه الفهم والتّوضيح، ولا حتى التساؤل، كيف أنه بمقدور الأشخاص إنتاج الأشياء التي يبتغيها لنفسه، وبطريقة ما، توجد إجابة شافية تمامًا داخل عقله ترفض النظر في أسئلة من قبيل «كيف؟» و«لماذا؟» أو في مفاهيم مثل الهوية والسببية. بل كل ما يحتاجه، بحسب ما تمليه عليه «رغباته الملحة»، هو قوة جسدية أكبر وأسلحة أكبر وعصابة أكبر من التي يمتلكها الآخرون من أجل إخضاعهم جسديًا والاستيلاء على منتجاتهم، وبعد ذلك ستنصاع

أجسادهم لأوامره، وستُشبع أهوائه بطريقة ما. فهو يتعامل مع البشر كوحوش ضارة، ولا يتطرق إلى وعيه أبدًا عواقب أفعاله أو إمكانية إنهاك ضحاياه، ولا يفضل وعيه أن يتجاوز اللحظة المعطاة. ولا تتضمن رؤيته للكون قوة التصنيع والإنتاج. ويرى أن القوة التدميرية والقوة الغاشمة هما قدرتين ميتافيزيقيتين وخارقتين.

هذا الإنسان من نوع «أتيلا» لا يفكر مطلقًا في خلق الأشياء، إنما في حيازتها والاستيلاء عليها. سواء أكان يغزو قبيلة مجاورة أو يحتل قارة، فإنَّ النهب المادي هو هدفه الوحيد والذي ينتهي بفعل الانتزاع والاستيلاء. فهو ليس لديه غاية أخرى، ولا خطة، ولا نظام لفرضه على المقهورين والخاضعين لسلطته، ولا حتى أية قيم، وملذاته أقرب إلى مستوى الأحاسيس منها إلى المدركات الحسية: وهي الطعام، والشراب، والمسكن المترف، والكساء الفخم، والجنس العشوائي، ومسابقات المهارات الجسدية، والقمار، أي كل تلك الأنشطة التي لا تتطلب أو تنطوي على استخدام المستوى المفاهيمي للوعي. إنه لا يبتدع ملذاته، وإنما يشتهي كل ما يبدو مرغوبًا لدى الآخرين من حوله ويأخذ بملاحقته. لذلك حتى في عالم الرغبات، هو لا يخلق وإنما يستولي فقط.

لكن الإنسان لا يستطيع أن يعيش حياته لحظة بلحظة؛ فالوعي الإنساني يحافظ على استمرارية معينة ويتطلب درجة معينة من التكامل، سواء أكان المرء يرغب في هذا أم لا. فالإنسان يحتاج إلى

إطار مرجعي ورؤية شاملة للوجود، مهما كان هذا الوجود بدائيًا. وبما أن وعيه هو أمر يخضع لإرادته، فهو يحتاج أيضًا إلى إحساس بالصواب وتبرير أخلاقي لأفعاله، والذي يعني بعبارة أخرى «مدونة فلسفية للقيم». ومن سيزود «أتيلا» في هذه الحالة بالقيم؟ «الحالم».

لئن كانت وسيلة «أتيلا» للبقاء على قيد الحياة هي إخضاع أولئك الذين يخضعون الطبيعة لإرادتهم، فإن وسيلة «الحالم» للبقاء أكثر أمانًا من هذا الآخر، بحسب ما يعتقد، وتُجنبه مخاطر الصراع المادي. والتي تتمثل في إخضاع أولئك الذين يخضعون من يخضعون الطبيعة لإرادتهم. وليس القوة الجسدية للبشر هي ما يسعى إلى حكمها، بل أرواحهم.

بالنسبة إلى «أتيلا»، كما هو الحال مع الحيوان، تُعد الظواهر الطبيعية عناصر أولية لا يمكن تحويلها. وبالنسبة إلى «الحالم»، كما هو الحال مع الحيوان، يرى العناصر الأولية ظواهر تلقائية لوعيه.

لا يمتلك الحيوان ملكَة النقد والتمحيص؛ فهو لا يستطيع التحكم في وظيفة دماغه ولا يملك أي قدرة على التشكيك في محتواه. وكلّ ما يصيب وعيه هو مطلق يتوافق مع الواقع، أو هو بالأحرى تمييز غير قادر على القيام به: فالواقع بالنسبة إليه هو كل ما يراه أو يحسه. وهذا هو النموذج المثالي للمعرفة عند «الحالم»، ووسيلة الوعي التي يسعى جاهدًا إلى فرضها على نفسه. في حالة «الحالم»، فإن العواطف هي أدوات الإدراك، والأمنيات لها

الأسبقية على الحقائق. فهو يحاول الهروب من المخاطر التي ينطوي عليها السعي وراء المعرفة من خلال طمس التمييز بين الوعي والواقع، بين المُدرِك والمُدرَك، آملًا أن يكتسب يقينًا تلقائيًا بشأن الكون ومعرفة به معصومة عن الخطأ، من خلال النظر الأعمى والمشتت بعين غير سوية، متدبرًا في الأحاسيس والمشاعر والرغبات الملحة وتداعيات الأفكار المبهمة الملتوية التي تسقطها عليه آلية وعيه التائه وغير الموجهة. فمهما كان ما تنتجه آليته هو حقيقة مطلقة لا تخضع للتشكيك؛ وفي كل مرة يصطدم فيها هذا المطلق مع الواقع، كان الواقع هو ما يتجاهله هذا المرء.

ولأن هذا الاصطدام أمر دائم الوقوع، فإن الحل لدى «الحالم» يتمثل في التصديق بأن كل ما يتوصل إليه وعيه ينتمي إلى واقع آخر «أسمى»، حيثما تكون أمانيه كلّيّة القدرة، وحيثما تكون التناقضات ممكنة، و(أ) ليس (أ)، وحيثما تصبح مزاعمه، التي هي خاطئة على الأرض، صحيحة وتكتسب صفة الحقيقة «الأسمى»، والتي يدركها ويتوصل إليها من خلال ملكة خاصة حُرمت منها الكائنات الأخرى «الأدنى مرتبة». والتصديق الوحيد على صحة إدراكه الذي يستطيع أن يحصل عليه على الأرض هو تصديق الآخرين وطاعتهم له، وذلك عندما يقبلون «الحقيقة» التي توصل إليها على أنها أكثر تفوقًا من إدراكهم للواقع. وبينما يجبر «أتيلا» الآخرين على الإذعان له باستخدام العنف والبطش، يحصل «الحالم» على هذا الإذعان باستخدام سلاح أشد فتكًا، وهو

إجهاض المجال الأخلاقي.

ليس هناك من سبيل لتحويل الأخلاق إلى سلاح للاستعباد إلا من خلال فصلها عن عقل الإنسان وغايات وجوده. ليس هناك من سبيل للحطّ من قيمة حياة الإنسان على الأرض إلا من خلال المقاومة المنيعة لما هو أخلاقي وعملي. الأخلاق هي مدوّنة قيمٍ، الغاية منها توجيه خيارات المرء وأفعاله؛ وعندما توضع ضد حياته وعقله، فإنّ ذلك يجعله ينقلب على نفسه ويتصرّفُ بشكل أعمى كأداة لتدمير نفسه. وليس هناك من سبيل لجعل الإنسان يقبل دور الأضحية إلا بهدم تقديره لذاته. وليس هناك من سبيل لهدم تقديره لذاته إلا بجعله ينكر وعيه. وليس هناك من سبيل لجعله ينكر وعيه إلّا عن طريق إقناعه بعجز هذا الوعي.

إنّ التعاليم التي تنص على لعن هذه الأرض على أنها عالم يخلو من أي شيء سوى الآلام والمصائب والمحن للبشر، وعالم أدنى من واقع آخر «أسمى منزلة»، ولعن كل القيم والتنعّم والإنجاز والنجاح المحقق على الأرض على أنها برهان على الانحلال والفساد، ولعن عقل الإنسان على أنه مصدر للكبرياء، ولعن التفكير على أنه ملكَة «محدودة» ومضللة وواهنة لا يعوّل عليها، وعاجزة عن إدراك الواقع «الحقيقي» والحقيقة «الحقيقية»، وشطر المرء إلى شطرين ووضع وعيه (عقله) ضد جسده، وقيمه الأخلاقية ضد مصلحته، ولعن طبيعة الإنسان وجسده ونفسه على أنها من الشرور، والأمر بالتضحية بالنفس وتسييب الذات

والمكابدة والإذعان والخنوع والإيمان على أنها أفعال خير، ولعن الحياة وتقديس الموت مع حمل فكرة وجود ثواب يتعدى منزلة القبر، جميعُ هذه التعاليم الأساسية تشكّلُ نظرة «الحالم» عن الوجود كما وُجدت في كلّ شكل من أشكال فلسفته طوال تاريخ البشرية.

يكمن سر قوة الإنسان «الحالم» في حقيقة أن المرء يحتاج رؤية متكاملة للحياة، أي نظامًا فلسفيًّا، سواء أكان على دراية بذلك أم لا. ومتى اختار المرء ألا يكون على دراية بذلك، سواء أ كان اختياره هذا ينبع عن جهل أو جبن أو فتور عقلي، فإن إحساسه المزمن بالذنب والارتياب والخوف سيجعله يرى أن فلسفة «الحالم» فلسفة صحيحة.

وإنسان «أتيلا» هو أوّلُ من يرى هذا.

هذا أن النوع من إنسان «أتيلا» الذي يعيش على القوة الغاشمة ووفق أهوائه وتحت رحمة اللحظة الآنية، فكأنما يعيش في جزيرة ضيقة تكتنفها غيوم من الجهل، حيثما يمكن للتهديدات الخفية والنازِلات غير المتوقعة أن تنزل عليه في أي صباح. لذلك هو مستعد لتسليم وعيه للمرء الذي يوفر له الحماية من تلك المسائل المعنوية وغير الملموسة التي لا يرغب في التفكير فيها، بل ويخشاها أيضًا.

إن خوف «أتيلا» من الواقع يضاهي خوف «الحالم» منه في الشدة. فكلاهما يبقي وعيه على مستوى دون المستوى البشري، ووفق طريقة عمل معينة. حيث يشكل دماغ «أتيلا» فوضى من

المحسوسات لم تخضع للدمج بفعل التجريد، ودماغ «الحالم» مستنقع من التجريدات العائمة المنفصلة عن المحسوسات. كلاهما موجه ومحفز في نهاية المطاف، لكن ليس من خلال الأفكار، وإنما من خلال المشاعر والأهواء. وكلاهما يتشبث بأهوائه لكونها يقينه الوحيد. وكلاهما يشعر في قرارة نفسه بأنه قاصر عن مهمة التعامل مع الوجود.

وهكذا أصبح كل منهما بحاجة الآخر. حيث يرى «أتيلا» أن «الحالم» باستطاعته منحه ما يفتقر إليه: والذي هو نظرة بعيدة المدى، والحماية من الانخراط في ظلمات المجهول للغد أو الأسبوع القادم أو العام المقبل، ومدونة للقيم الأخلاقية تقرّ أفعاله وتقضي على الشكوك في نفوس ضحاياه. وفي المقابل، يرى «الحالم» أنه باستطاعة «أتيلا» منحه الوسائل المادية للبقاء، وحمايته من الواقع المادي، وتجنيبه ضرورة الفعل العملي، وفرض فتاويه الباطنية على أي متمرد قد يختار تحدي سلطته. يمثل كلاهما جزأين غير مكتملين من الإنسان، إنسان الجسد وإنسان المشاعر، ويسعى كل منهما إلى إكمال الآخر، ويطمحان إلى العيش دون الانصياع للعقل.

بما أنه يستحيل على أي إنسان أن يفلت تمامًا من المستوى المفاهيمي للوعي، فلا يصح القول إن «أتيلا» و«الحالم» لا يستطيعان أن يفكرا أو أنهما لا يفعلان ذلك؛ فهما لديهما هذه القدرة ويمارسانها. لكن التفكير بالنسبة إليهما ليس وسيلة لإدراك الواقع، بل هو وسيلة لتبرير هروبهما من ضرورة الإدراك العقلاني. فالعقل

بالنسبة إليهما هو وسيلة لقهر ضحاياهما، وهو الخادم الوضيع المكلف بمهمة تسويغ شرعية الميتافيزيقا وسيادة أهوائهما. وتمامًا مثلما سيقضي سارق البنك سنوات من التخطيط والابتكار والجهد لكي يبرهن لنفسه أنه بوسعه أن يعيش دون كدٍّ وتعب، فإن كلاهما «أتيلا» و«الحالم» سيمضيان إلى أبعد مدى في المكر والتدبير والتفكير لكي يبرهنا عجز الفكر ويحافظا على صورة كون سلس ومُنصاع حيثما تكون المعجزات ممكنة والأهواء ناجعة. ولا تحتل قوة الأفكار أي مكان أو قيمة في واقعهما، ولا يبالي أي منهما بمعرفة أن البرهان على وجود هذه القوة يكمن في إحساسه المزمن بالذنب والذعر.

وبالتالي، يشكل «أتيلا» و«الحالم» معًا تحالفًا، ويقسمان مجالات هيمنة كل منهما. يحكم «أتيلا» عالم الوجود المادي للبشر بينما يحكم «الحالم» العالم الإدراكي للبشر. يقسم «أتيلا» البشر إلى جيوش بينما يضع «الحالم» الأهداف لهذه الجيوش. يغزو «أتيلا» الإمبراطوريات بينما يضطلع «الحالم» بسن قوانينها. يمارس «أتيلا» السلب والنهب بينما يحث «الحالم» الضحايا على السمو فوق انشغالهم الأناني بالممتلكات المادية. يسلب «أتيلا» الأرواح بينما يخبر «الحالم» الناجين أن الابتلاءات التي تصيب الإنسان هي جزاء على آثامه. يحكم «أتيلا» ببث مشاعر الخوف، ومن خلال إبقاء الأفراد تحت تهديد دائم بإهلاكهم، في حين يحكم «الحالم» ببث مشاعر الشعور الذنب، ومن خلال إبقاء الأفراد مقتنعين بفسادهم وعجزهم

وهوانهم الفطري. يحوّل «أتيلا» حياة البشر على الأرض إلى جحيم حي لا يطاق، بينما يخبرهم «الحالم» أنه ما كان لحال الأمر أن يكون خلاف ذلك.

لكن التحالف الذي يكّونه هذين الحاكمين يتسم بالزعزعة والهشاشة، بيد أنه يقوم على الخوف المتبادل والازدراء المتبادل. حيث أن «أتيلا» إنسان انبساطي يمقت كل ما يتعلق بالوعي، بينما «الحالم» إنسان انطوائي يمقت كل ما يتعلق بالوجود المادي. يبدي «أتيلا» ازدرائه حيال القيم والمثل العليا والمبادئ والنظريات والتجريدات، بينما يبدي «الحالم» ازدرائه حيال الملكية المادية والثروة وجسد الإنسان وهذه الأرض. يرى «أتيلا» أن «الحالم» غير عملي، ويرى «الحالم» هذا الآخر غير أخلاقي. ولكن كل منهما يؤمن سرًّا أن الآخر يمتلك ملكَة غامضة يفتقر إليها، وأن الآخر هو السيد الحقيقي للّواقع، والممثل الحقيقي لسلطة التعامل مع الوجود. ومن ناحية الجزع المزمن الذي يساور كل منهما، وليس من ناحية التفكير، فإن «الحالم» هو من يؤمن بأن القوة الغاشمة هي التي تحكم العالم، و«أتيلا» هو من يؤمن بالأمور الغيبية، والتي يطلق عليها «القدر» أو «الحظ».

لكن ضد منّ يُشكل هذا التحالف؟ ضد أولئك الأفراد الذين يرفض «أتيلا» و«الحالم» الاعتراف بوجودهم وأخلاقياتهم في نظرتهما للكون: الأفراد الذين ينتجون. في أي عصر أو مجتمع ما، هناك أشخاص يفكرون ويعملون، ويكتشفون كيفية التعامل مع

الوجود، وكيفية إنتاج القيم الفكرية والمادية التي يتطلبها العيش. وهؤلاء هم الأشخاص الذين تمثل جهودهم الوسيلة الوحيدة لبقاء جميع أنواع الطفيليين من أمثال «أتيلا» و«الحالم» و«خاليو الوفاض». ويتألف هذا الصنف الأخير من أولئك الذين يمضون حياتهم في حالة غير سوية من الفتور الذهني، ويكتفون بمجرد تكرار الكلمات والحركات التي تعلموها من الآخرين. لكن هؤلاء الأشخاص الذين يتعلمون منهم الكلمات والحركات، أولئك الذين يكونون الأوائل في اكتشاف أي خيط من المعارف جديدة، هم الأشخاص الذين يتعاملون مع الواقع ومع مهمة إخضاع الطبيعة لمصلحتهم، والذين يضطلعون في حدود ذلك بمسؤولية اكتساب المعرفة: أي مسؤولية ممارسة ملكَة العقل.

المنتج هو أي إنسان يعمل ويعرف ما يفعله. قد يعمل لبعض من الوقت على مستوى مفاهيمي إنساني كامل من الوعي، ويصبح في حدود ذلك «أطلس»[5] الذي يدعم وجود البشرية. وقد يقضي الجزء الآخر من وقته في حالة غير متعقلة من الغفلة، مثل الآخرين، ويقع في حدود ذلك ضحية مكائدهم المنهوكة والمُسخرة والمعذبة والهادمة لذاتها.

إن أبستمولوجيا الإنسان- أو بتعبير أكثر دقة «الأبستمولوجيا

(5) نسبة إلى "أطلس" الإله المعبود العملاق في الميثولوجيا الإغريقية. والذي أشتهر بحمله لقبة السماء على كتفيه. (المترجم).

مكتبة | 1332

النفسية»[6] للإنسان، أي طريقة وعيه بالأشياء- هي أهم المعايير الأساسية التي يمكن من خلالها تصنيفه. وقلة من البشر يبقون متسقين ويحافظون على وتيرة واحدة في هذا الصدد؛ ومعظمهم الآخر يستمر في التبدل من مستوى الوعي، تبعًا للظروف أو المسائل المعنية بهِ، متراوحين بين لحظات من العقلانية الكاملة وما يكاد أن يكون حالة من السبات والفتور الذهني. لكن معركة التاريخ البشري يكون من يخوضها ويحدد نتيجتها هم أولئك الذين يكونون متسقين في الغالب، أولئك الذين يكونون مدفوعين، سواء من أجل تحقيق الخير أو الشر، بطريقة وعيهم المنتقاة وما يلازمها من نظرة للوجود، والتفاني فيها، مع ما قد تظهر من استجابات، داعمة أو معارضة، في نفوس الآخرين المتقلبة والمترددة.

إن الوسيلة التي يتبعها المرء في استخدام وعيه تحدد وسيلة عيشه وبقائه. والمتنافسون الثلاثة هنا هم «أتيلا» و«الحالم» و«المنتج»، أو يمكن أن نطلق عليهم إنسان البطش وإنسان المشاعر وإنسان العقل، أو الغاشم والباطنيّ والمفكّر. وبقية البشر يدّعون أنه من الصالح أن يتقاذفهم تيار الأحداث من أحد هذه الأدوار إلى الآخر، دون أن يختاروا الاعتراف بحقيقة أن هؤلاء الثلاثة هم المصدر الذي يحدد اتجاه التيار.

الأشخاص المنتجون، حتى الآن، هم أشخاص منسيّون في

(6) أو "نظرية المعرفة النفسية" هو مصطلح أول من صاغته آين راند للتعبير عن العمليات المعرفية للإنسان من ناحية التفاعل بين العقل الواعي والوظائف التلقائية للاوعي. وبوجيز العبارة هي الطريقة التي يتعامل فيها عقل المرء عادة مع محتواه. (المترجم)

طيّات التّاريخ. وباستثناء القليل من الفترات التاريخية الوجيزة، لم يحتل المنتجون موضع القادة أو المقرّين في المجتمعات الإنسانية، على الرغم من أن درجة تأثيرهم وحريتهم كانت هي ما تحدد درجة رفاهية المجتمع وتقدمه. ومن حكم معظم هذه المجتمعات هم «أتيلا» و«الحالم». والسبب وراء ذلك ليس نزعة فطرية للشر داخل النفس البشرية، ولكن حقيقة أن العقل هو ملكَة إرادية يتعين على الإنسان أن يختار اكتشافها وتطويعها لنفسه والحفاظ عليها. واللاعقلانية هي حالة من التخلف والتراجع، حالة من التقصير في الارتقاء بمنزلة الإنسان. فعندما يختار المرء ألا يصل إلى المستوى المفاهيمي من الوعي، فليس لوعيه أي خيار سوى الاستعانة بوظائفه التلقائية والشبه الحيوانية والإدراكية الحسية. وإذا كانت هناك حلقة اتصال مفقودة بين الجنس البشري والجنس الحيواني، فإنَّ «أتيلا» و«الحالم» هما تلك الحلقة المفقودة، انتهازيو التخلّف الإنساني.

كانت أول خطوة إنسانية فكرية سُجلت في التاريخ، والظهور الأول للمنتج على الساحة التاريخية، هو نشأة الفلسفة في اليونان القديمة. كانت جميع الثقافات السابقة يحكمها، ليس العقل، ولكن النزعة الباطنية، وكانت مهمة الفلسفة- التي تتمثل في صياغة رؤية متكاملة للإنسان والوجود والكون- حكرًا على مختلف الأديان التي فرضت أراءها من خلال سلطة الادعاء بمعرفة الأمور الغيبية، وأملت القواعد التي تحكم حياة الإنسان. لقد ولدت

الفلسفة في فترة كان فيها «أتيلا» عاجزًا عن مساعدة «الحالم»، وعندما تسببت درجة نسبية من الحرية السياسية في إضعاف سيطرة النزعة الباطنية، حيث كان الإنسان حرًّا للمرة الأولى في مواجهة الكون دون قيود، وحرًّا في الإفصاح بأن عقله كان قادرًا على التعامل مع جميع مشاكل وجوده وأن العقل هو الوسيلة الوحيدة لاكتساب المعرفة.

على الرغم من أن تأثير أفكار «الحالم» كان متغلغلًا في أعمال الفلاسفة الأوائل، لكن العقل وللمرة الأولى كان قد حُدد واعترف به على أنه ملكَة التحكيم لدى المرء، وهو اعتراف لم يُمنح له من قبل. كان نظام أفلاطون الفلسفي رمزًا بارزًا لميتافيزيقيا «الحالم»، بحقيقتيه الاثنتين، حقيقة أن العالم المادي عالم شبه وهمي وناقص وسفلي، يخضع للتجريدات (وهذا يعني في الواقع أنه تابع لوعي الإنسان، على الرغم من أنه لم يعبر عنه أفلاطون)، وحقيقة أن العقل في منزلة خادم أدنى ولكنه ضروري لتمهيد الطريق نحو الوصول إلى الوحي الباطني الذي سيكشف عن حقيقة ما «أعظم». لكن كانت فلسفة أرسطو تقوم على إعلان استقلاليّة العقل. وعليه يجب أن يُمنح أرسطو، الأب لعلم المنطق، لقب أول مفكّر في العالم، بالمعنى الوفي والأنبل لهذه الكلمة. وبغض النظر عن الأفكار الأفلاطونية الموجودة بالفعل في نظام أرسطو الفلسفي، فإن إنجازه المنقطع النظير في الفلسفة يكمن في حقيقة أنه حدد المبادئ الأساسية لولعِ الإنسان ولرؤية عقلانية للوجود: وهو

أن هناك واقع واحد فقط، ذاك الذي يدركه الإنسان، وأنه موجود كمطلق موضوعي (أي منفصلًا عن الوعي أو الرغبات أو المشاعر التابعة لأي شخص يدركه)، وأنّ مهمة وعي الإنسان هو إدراك الواقع وليس خلقه، وأن عملية التجريد هي طريقة الإنسان لدمج مواده الحسية، وأن عقل الإنسان هو أداته الوحيدة للمعرفة، وأن (أ) هو (أ).

إن أخذنا في الاعتبار أنه ما يجعلنا حتى يومنا هذا كائنات متحضرة وأن كل ما نمتلكه من قيم عقلانية – بما في ذلك ولادة العلم والثورة الصناعية ونشوء الولايات المتحدة وحتى بنية لغتنا– ما هي إلا نتيجة لتأثير أرسطو، إلى درجة أن الأشخاص قبلوا مبادئه المعارفية، بصورة صريحة أو ضمنية، فيتحتم علينا إذن القول بأنه لم يسبق للبشرية بأن أدانت بهذا القدر من الفضل لإنسان واحد.

وتمامًا مثلما «الحالم» يصيبه العجز دون «أتيلا»، فإن «أتيلا» يعجز عن البقاء بدون «الحالم»، وليس بوسع أي منهما أن يجعل سلطته تدوم بدون وجود الآخر. من الناحية السياسية، لقد ظلت قرون الحضارة اليونانية الرومانية تحت هيمنة «أتيلا» (من خلال سيادة الطغاة المحليين أو الأرستقراطيين القبليين)، لكنه كان من نوع «أتيلا» المُروض والمرتاب والملجوم، الذي كان عليه أن يتعامل مع تأثير الفلسفة (وليس تأثير الإيمان) في عقول الناس. كما أنه ما تزال أفضل جوانب الحضارة الغربية تدين بجذورها إلى الإنجازات

الفكرية التي تحققت في تلك الحقبة التاريخية.

استعاد «أتيلا» قوته مع ظهور «النّزعة الدولانية» في الإمبراطورية الرومانية. ثم جاء في أعقاب ذلك سقوط روما، ككيانٍ هائلٍ منهوك، مفلس في الروح والجسد، وعاجز عن حشد أي قوة مقاومة لغزو الحشود البربرية. ومن ثم أتت عمليات النهب والتخريب التي لحقت بأوروبا على يدي «أتيلا» الحرفي، وقرون من العنف الغاشم والصراعات القبلية الدموية والفوضى التي لم يدونها التاريخ، المعروفة باسم العصور المظلمة. كان «الحالمون» يعاودون الظهور مع نسخة حديثة من المذهب الباطني، استجابةً لنداءات المساعدة من مختلف «الأتيليين» المحليين، الذين كانوا يذعنون لهم طوعًا، في تحوّل مذهبي سريع، وفي مقابل وضع شكل من المبادئ الأساسية التي من شأنها أن تعينهم على ترسيخ سلطتهم.

كانت العصور الوسطى فترة يحكمها «الحالم»، في تحالف قوي وراسخ، وإن كان يتسم بالتوجس المتبادل، مع «أتيلا». حيث سيطر «الحالمون» على كل جانب من جوانب الفكّر الإنساني والحياة البشرية، في حين كان «الأتيليون» الإقطاعيون ينهبون ممتلكات بعضهم البعض، ويجمعون الإتاوات المادية من الأقنان- الذين عملوا وعاشوا وتضورا جوعًا في ظروف مزرية غير إنسانية- ويحتكرون «الحالمين» لمهمة تشريع الأنظمة والقوانين الروحانية، من خلال امتلاك سلطة حرق المنشقين منهم على الأوتاد.

وُجدت الفلسفة في تلك الحقبة «كعلم تابع لعلم اللاهوت»،

وكان المؤثر المهيمن عليها بحق هو أفلاطون لكن في هيئة أفلوطين وأوغسطين. أما أعمال أرسطو فقد هجرها علماء أوروبا لعدة قرون، وكُتب لها أن تعود في مقدمة عصر النهضة على يدي الراهب والفيلسوف توما الأكويني.

نسف عصر النهضة- الذي انبعث فيه عقل الإنسان من جديد- سيادة «الحالم» إلى حد كبير، محررًا الأرض من سلطته. وكان التحرير ليس كاملاً، ولا فوريًا؛ بل استمرت الاضطرابات والتقلبات لقرون، ولكن التأثير الثقافي للنزعة الباطنية- الباطنية المعلنة- كان قد اكتنفه التلاشي. فلم يعد يُطلب من الناس أن يرفضوا عقولهم بصفتها أداة عقيمة، وذلك عندما تجلت قوة تأثيرها تجليًا واضحًا بحيث أن العقلية ذات المستوى الإدراكي الأدنى لم تكن قادرة على التملص منه بالكامل، وهو ما كان الناس يشهدونه من الإنجازات العلمية.

لم يخلع عصر النهضة «أتيلا» عن عرشه في الحال، فقد أخذ يتمسك هذا الآخر بسلطته المضمحلة لفترة أطول، ويبني ملكياته المطلقة على بقايا دولته الإقطاعية المتداعية. ولكن مرة أخرى، كما جرى الحال في العصر اليوناني الروماني، كان «أتيلا» في حالة واهنة عندما تُرك بمفرده. فقد كان خائفًا وعاجزًا ذهنيًا وغير قادر على التعامل مع موجة التحرير التي تجتاح العالم. وأخذ يجري بصورة عمياء وجنونية نحو ممارسة مهارته وغايته الوحيدتين، وهو الاغتصاب المادي، دافعًا بالأمم إلى الفقر المدقع بسبب حروبه

وضرائبه المقطوعة المستمرة، ليستحوذ على آخر ممتلكات رعاياه. ولكن عندما يتعلق الأمر بالمسائل الفكرية، ظل «أتيلا» يطيّب خواطر المدافعين عن الحرية باتخاذ دور تلميذهم ونصيرهم و«راعي الفنون»، لينزلق أحيانًا نحو نوبات محمومة من الرقابة والاضطهاد، ثم يعود إلى تقلّد دور «العاهل المستنير». ومثل أي متنمر ومثل العديد من البهائم، يشعر «أتيلا» بالثقة عندما يشم الخوف في نفوس خصومه، لكن ليس الخوف هو ما يظهره المفكّرون وهم يقاتلون في سبيل حرية العقل. فلم يكن «الحق الإلهي للملكية» سلاحًا ضد الأفراد الذين كانوا يكتشفون حقوق الإنسان.

ثم أتت الثورة الصناعية لتكمل مهمة عصر النهضة في إزاحة «أتيلا» عن عرشه. وللمرة الأولى في التاريخ، كان البشر قد تمكّنوا من السيطرة على الطبيعة المادية وتخلصوا من سيطرة الإنسان على الإنسان. بمعنى آخر اكتشفوا العلوم والحرية السياسية.

إن أول مجتمع في التاريخ لم يقع تحت حكم «الأتيليين» ولا «الحالمين»، المجتمع الذي أنشأه المنتجون وقادوه وهيمنوا عليه، هو مجتمع الولايات المتحدة الأميركية. وكانت مدوّنتها الأخلاقية التي تسند إليها مبادئها السياسية ليست بالمدونة الأخلاقية «للحالم» التي تقوم على التضحية بالنفس. وكانت المبادئ السياسية التي تجسدت في دستورها لا تتضمن حرية «أتيلا» في استخدام القوة الغاشمة، بل حماية الإنسان من أي طموح مستقبلي من هذا النوع قد ينشأ

لدى ذوي النزعة الأتيلية.

لم يكن الآباء المؤسّسون لهذا المجتمع من الباطنيين المستكنين الذين يقدّسون الموت، أو الناهبون الرُعن الذين يسعون وراء السلطة، لقد كانوا مجموعة سياسية ظاهرة لم يسبق لها مثيل في التاريخ، كانوا مفكرين وكانوا أيضًا أشخاصًا فعالين. ورفضوا الفصل بين الجسد والنفس، وما ينتج عنه من نتيجتين حتميتين: عجز عقل الإنسان ولعن هذه الأرض. ورفضوا مبدأ المعاناة كمصير ميتافيزيقي للإنسان، ونادوا بحق الإنسان في السعي وراء السعادة، وكانوا عازمين على أن يقيموا على الأرض الظروف اللازمة لتحقيق وجود إنساني لائق، من خلال السلطة «غير المدعومة» لفكرهم.

إن المجتمع القائم على المستوى المفاهيمي لوعي الإنسان والمهيأ للعمل وفقه، المجتمع الذي تهيمن عليه فلسفة العقل، هو مجتمع لا يفسح مجالًا لحكم الخوف والشعور بالذنب. فالعقل يقتضي الحرية والثقة بالنفس وتقدير الذات. ويقتضي حق المرء في التفكير والتصرف وفق ما يمليه عليه تفكيره، أي الحق في أن يعيش المرء وفق تقييمه المستقل للأمور. ولا يمكن للحرية الفكرية أن توجد بدون الحرية السياسية، ولا يمكن للحرية السياسية أن توجد بدون الحرية الاقتصادية؛ فحرية التفكير وحرية السوق هما نتيجتان ملازمتان.

كان النظام الاجتماعي المستحدث الذي وضع أسسه هؤلاء

الآباء المؤسسون، النظام الذي وضع القواعد للقرن التاسع عشر وأرسى نموذجًا يُحتذى بهِ وشكّل نمط الحياة فيه- منتشرٌ في جميع دول العالم المتحضر- هو النظام الرأسمالي.

وحتى نتصف بالدّقة، كان نظامًا رأسماليًّا غير كامل وغير مثالي، ولم يكن نظامًا اقتصاديًّا حرًّا ونظاميًّا على الإطلاق. كانت ما تزال هناك درجات متفاوتة من التدخل الحكومي والسيطرة الحكومية، حتى في أميركا، لتتشكل تصدعات مميتة في أسس النظام. ولكن خلال القرن التاسع عشر، اقترب العالم من تحقيق الحرية الاقتصادية للمرة الأولى والوحيدة في التاريخ. كانت درجة الحرية الاقتصادية في أي دولة معينة تساوي نفس الدرجة من تقدمها. وأميركا، التي تتمتع بأعلى درجة من الحرية الاقتصادية، حققت أكبر قدر من التقدم في العالم.

لقد قضت الرأسمالية على العبودية في المادة والنفس، واستبدلت «أتيلا» و«الحالم»، لص الثروات ومرّوج الوحي، بنوعين جديدين من الإنسان: منتج الثروات ومروج المعرفة، أي صاحب الأعمال والمفكّر.

تستدعي الرأسمالية إعمال أفضل ما في كل إنسان- عقلانيته- وتكافئه تبعًا لذلك. فهي تترك لكل إنسان حرية اختيار العمل الذي يريده، وأن يتخصص فيه، وأن يبادل منتجه بمنتجات الآخرين، وأن يسير في طريق الإنجاز بقدر ما ستحمله قدرته وطموحه فيه. ويعتمد نجاحه على القيمة الموضوعية لعمله وعلى

عقلانية أولئك الذين يدركون تلك القيمة. فحينما يتمتع الناس بالحرية في المتاجرة، مع الاستعانة بالعقل والواقع كمحكّمين وحيدين، وحينما لا يجوز لأي إنسان استخدام القوة البدنية لانتزاع موافقة الآخر، فإن أحسن منتج وأصوب حكم هما ما ينتصران في كل مجال من مجالات المساعي الإنسانية، ويرفعان مستوى المعيشة- والفكر- إلى مستويات أعلى من أي وقت مضى لجميع أولئك الذين يشاركون في النشاط الإنتاجي للبشرية.

في خضم هذا النمط المعقد من التعاون البشري، ثمة شخصيتان رئيسيتان تعملان كمحركين مزدوجين لعجلة التقدم، وكموحدين للنظام بأكمله، وكالقنوات الناقلة التي تحمل إنجازات ألمع العقول إلى كل مستوى من مستويات المجتمع: المفكّر وصاحب الأعمال.

يشغل المفكّر المهني منصب العامل الميداني للجيش الذي قائده الأعلى هو الفيلسوف. حيث ينقل المفكّر تطبيقات المبادئ الفلسفية إلى كل مجال من مجالات المساعي الإنسانية. فهو يحدد مسار المجتمع من خلال نقل الأفكار من «البرج العاجي» الذي يسكنه الفيلسوف إلى الأستاذ الجامعي، وإلى الكاتب، والفنان، والصحفي، والسياسي، وصانع الأفلام، ومغني النادي الليلي، والشخص العادي. تقع المهن الفكرية المحددة في نطاق العلوم التي تدرس الإنسان، التي تسمى بـ «العلوم الإنسانية»، ولكن لهذا السبب ذاته يمتدُّ نطاق تأثير المفكّر إلى جميع المهن الأخرى. فأولئك الذين يتعاملون مع العلوم التي تدرس الطبيعة يتعين عليهم أن

يعتمدوا على المفكّرين من أجل الحصول على المعلومات والمبادئ التوجيهية الفلسفية: من أجل القيم الأخلاقية، والنظريات الاجتماعية، والفرضيات السياسية، والمذاهب النفسية، وقبل كل شيء، مبادئ الأبستمولوجيا، هذا الفرع الفلسفي شديد الأهمية الذي يدرس وسائل المعرفة لدى الإنسان، ويجعل اكتساب كل العلوم الأخرى ممكنًا. يُعدّ المفكّر صوت المجتمع الحر ونظره وسمعه، فهو يحمل على عاتقه مهمة مراقبة ما يجري في العالم من أحداث، وتقييم ما تعنيه، وتنوير الأشخاص في جميع المجالات الأخرى. فالمجتمع الحر ينبغي له أن يكون مجتمعًا مستنيرًا. في حالة الركود التي كانت قد تصيب النظام الإقطاعي، ومع وجود طوائف ونقابات الأقنان الذي يكررون نفس الحركات جيلًا بعد آخر، كانت خدمات المنشدين المتنقلين الذين يرددون نفس القصص الأسطورية القديمة تُعد أمرًا كافيًا لشحذ الهمم والخروج من حالة الركود. ولكن أمام قطار التقدم المندفع الذي هو الرأسمالية، حيثما تحدد الخيارات الحرة للأفراد حيواتهم ومسار الاقتصاد بأكمله، وحيثما الفرص المتاحة غير محدودة، وحيثما الاكتشافات مستمرة، وحيثما تؤثر الإنجازات التي تتحقق في كل مهنة على جميع المهن الأخرى، فإن الأفراد بحاجة معرفة أوسع من تخصصاتهم المحددة، فهم يحتاجون أولئك الذين بإمكانهم توجيههم إلى صنع مصيدة أفضل، أو سيكلوترون[7] أفضل، أو

(7) .أو المسرّع الدوراني، وهو جهاز لتسريع الجسيمات الذرية المشحونة كهربائيًا إلى طاقات عليا، ويُستخدم للتطبيقات الصناعية والطبية. (المترجم).

سيمفونية أفضل، أو رؤية للوجود أفضل. كلما كان المجتمع أكثر تخصصًا وتنوعًا، ازدادت حاجته إلى القوة الاندماجية للمعرفة. لكن اكتساب المعرفة على نطاق واسع يشكل مهنة كاملة. ويجب على المجتمع الحر أن يعتمد على أمانة مفكّريه وإخلاصهم في عملهم، أي أن يتوقع منهم أن يكونوا فعالين وموثوقين، ودقيقين، وموضوعيين، مثل المطابع وأجهزة التلفاز التي تنقل أصواتهم.

يشغل صاحب الأعمال المهني منصب العامل الميداني للجيش الذي قائده الأعلى هو العالِم. حيث ينقل صاحب الأعمال الاكتشافات العلمية من مختبر المخترع إلى المنشآت الصناعية، ويحولها إلى منتجات مادية من شأنها تلبية الاحتياجات المادية للأفراد وتوسيع بحبوبة وجود الإنسان. فإنشاء سوق ضخمة، هو ما يجعل هذه المنتجات في متناول مختلف مستويات الدخل في المجتمع. ومن خلال استخدام الآلات، هو يرفع من مستوى إنتاجية العمل البشري، ويحقق بالتالي زيادة في العوائد الاقتصادية للعمالة. ومن خلال تنظيم الجهود البشرية في المشاريع الإنتاجية، فهو يخلق للأفراد فرص عمل في عدد لا يحصى من المهن. فصاحب الأعمال هو المحرر العظيم الذي، في فترة وجيزة لم تزد عن القرن والنصف، حرر البشر من عبودية احتياجاتهم المادية، وحررهم من الكدح الرهيب ليوم عمل مدته ثمانية عشر ساعة من العمل اليدوي الذي يبقيهم في أدنى مستوى من المعيشة، وحررهم من المجاعات والأوبئة واليأس والفزع التي ظل معظم البشر يعيشون

تحت ظلها في جميع القرون السابقة للرأسمالية، والتي ما يزال يعيش فيها أغلب البشر في البلدان التي لا يحكمها النظام الرأسمالي.

وهذا التقسيم الأساسي للعمل والمسؤولية هو الذي قصر فيه المفكّر. فشقيقه التوأم، صاحب الأعمال، أحسن العمل كثيرًا ومنح الإنسان ازدهارًا ماديًّا غير مسبوق. لكن المفكّر تخلى عنه، وخان مصدرهما المشترك (العقل)، وأخفق في أداء مهمته، وترك الناس في حالة من الإفلاس الروحاني. وقد ساهم صاحب الأعمال في رفع مستوى معيشة الإنسان، لكن المفكر أخفض مستوى تفكير الإنسان إلى مستوى بدائي عاجز.

كثيرًا ما لوحظ أن البشرية حققت تقدمًا ماديًا هائلًا، ولكنها ظلت على مستوى همجي بدائي في الروح (عادةً ما يُطرح هنا حل التخلي عن التقدم المادي). وسبب هذا التفاوت في التقدم المُنجز يُعامل بالتجاهل أو التهرب، والذي نجده في نقطة افتراق حدثت في فترة ما بعد عصر النهضة، حيثما افترق وجود الإنسان المادي عن نظامه الفلسفي وذهبا في اتجاهين مختلفين.

وتمامًا مثلما يسبق أفعال الإنسان ويحددها فكرة في ذهنه، فإن الظروف المعيشية للمجتمع يسبقها ويحددها صعود فلسفة معينة بين أولئك الذين تقع على عاتقهم مهمة التعامل مع الأفكار. والأحداث الواقعة في أي فترة من التاريخ ما هي إلا نتيجة أفكار الفترة التي تسبقها. كان القرن التاسع عشر- بما يتمتع به من الحرية السياسية، والعلوم، والتقدم الصناعي، والتجارة، وكل الظروف

الضرورية للتقدم المادي- هو نتيجة القوة الفكرية التي أطلقها عصر النهضة وأخّرَ إنجازاتها. كان هؤلاء الأفراد الذين شاركوا في تلك الأنشطة (السياسة والعلوم والصناعة والتجارة) ما يزالون يتسلحون بأفكار أرسطو المؤثرة في الفلسفة، لاسيما الأبستمولوجيا الأرسطية (بصورة ضمنية أكثر من صريحة). لكنهم كانوا مثل الأشخاص الذين يعيشون على ضوء نجم بعيد، وهم يجهلون (لم يكن عليهم أن يعلموا بذلك بل هي مهمة تقع على عاتق المفكرين) أن هذا النجم قد اندثر ولم يُعد له وجود.

وقد أخمد شعلته أولئك الذين كانت مهمتهم الأساسية هي الحفاظ عليها.

منذ بداية فترة ما بعد عصر النهضة، سعت الفلسفة- التي حُررت من عبوديتها كتابع لعلم اللاهوت- إلى ارتداء شكل جديد من العبودية، مثل عبد مذعور ومكسور النفس، يجر خطاه إلى الخلف مبتعدًا عن تحمل مسؤولية الحرية. وحدد ديكارت اتجاه هذا التراجع عن طريق إعادة «الحالم» إلى ميدان الفلسفة. ولئن كانَ ديكارت يتعهد بخلق نظام فلسفي عقلاني، قابل للإثبات وواضح وعلمي مثل الرياضيات، غير أنه بدأ نظامه بوضع فرضية الأبستمولوجيا الأساسية لكل «حالم» (وهي فرضية شاركها أوغسطين على نحو صريح): فرضية أن «العقل يتمتع بيقين مسبق ثابت»، وهو الاعتقاد بأن وجود العالم الخارجي ليس واضحًا ومثبتًا بذاته، ولكن يجب إثباته من خلال الاستنباط من محتويات

وعي المرء، وهو ما يعني النظر إلى مفهوم الوعي على أنه ملكَة تختلف عن ملكَة الإدراك الحسي، وهو ما يعني النظر إلى المحتويات العشوائية لوعي المرء على أنها شيء أساسي ومطلق يتعذر تقنينه، ويجب أن يمتثل لها الواقع. ما تبع ذلك كان المشهد الفاجع والمأساوي للفلاسفة الذين يناضلون من أجل إثبات وجود عالم خارجي بالاستعانة بنظرة «الحالم» العمياء وغير السوية، وعن طريق الخوض في التقلبات العشوائية لمفاهيمهم، ثم إدراكاتهم الحسية، ثم أحاسيسهم.

عندما لم يطلب «الحالم» في العصور الوسطى من الناس سوى التشكيك في صلاحية عقولهم، كان تمرد الفلاسفة ضده يتلخص في التصريح بشكوكهم فيما إذا كان الإنسان واعيًا على الإطلاق وما إذا كان هنالك أي شيء يجب أن يكون واعيًا به.

وفي هذه المرحلة دخل «أتيلا» المشهد الفلسفي.

وجد «أتيلا»- نوع الأشخاص الذي يسعى للعيش على المستوى الإدراكي الحسي للوعي دون «تدخل» أي أفكار مفاهيمية، والذي يسعى إلى التصرّف وفق هواه ونطاق اللحظة دون «التقييد المانع» الذي تفرضه المبادئ والنظريات، ودون الحاجة إلى دمج تجربة مع أخرى أو لحظة مع اللحظة التالية- فرصته للهروب من خنوعه «للحالم» الذي لطالما استاء منه (الأصح أن نقول الذي لطالما أراد الاستقواء عليه)، والحصول عن طريق العلم على ما يستحسن أفعاله ويقرّ مبدأه الابستمولوجي النفسي. بمعنى آخر، كان

«أتيلا»، الذي يكنُّ الكره والخوف تجاه المسائل الفكرية، قد وجد فرصته للسيطرة على مجال الفكر والعثور على صوته.

عندما صرّح هيوم بأنه يرى أجسامًا تتحرك من مكان إلى آخر ولكنه لا يرى ما يُدعى «بالسببية»، كان صوت «أتيلا» هو ما يسمعه الناس. لقد كانت روح «أتيلا» هي التي تكلمت عندما صرح هيوم بأنه أختبر تيارًا من الحالات العابرة داخل عقله، مثل الأحاسيس أو المشاعر أو الذكريات، لكن لم يسبق له أن اختبر قط شيئًا مثل الوعي أو الذات. وعندما صرّح أن الوجود الظاهري لجسم ما لا يضمن عدم اختفائه ذاتيًا اللحظة التالية، وأن شروق الشمس اليوم لا يثبت أن الشمس ستشرق غدًا، وأن الافتراضات الفلسفية هي لعبة، مثل الشطرنج أو القنص، لا تشكل أي أهمية للوجود العملي للبشر بما أن العقل أثبت أن الوجود غامض يتعذر فهمه وأن الجهلة وحدهم هم من يبقون وهم المعرفة- كل هذا مصحوبًا بمعارضة شديدة ضد مذهب الباطنيّة «للحالم» واحتجاجات على تقديم الولاء للعقل والعلم- فإن ما كان يسمعه الناس هو بيان لحركة فلسفية لا يمكن وصفها إلا بـ «الأتيلية».

إن كان بوسع حيوان ما أن يصف محتوى وعيه، فستكون النتيجة نسخة مكتوبة من فلسفة هيوم. وستكون استنتاجات هيوم استنتاجات وعي يقتصر عمله على المستوى الإدراكي الحسي، ووعي يستجيب بسلبية تجاه المحسوسات المباشرة دون قدرة على تشكيل الأفكار المجردة ودمج المدركات الحسية في المفاهيم، منتظرًا

في عبث ظهور كائن يسمى «السببية» (باستثناء أن مثل هذا الوعي سيعجز عن استخلاص الاستنتاجات).

إن المستوى المفاهيمي لوعي المرء هو ما يتعين إبطاله إن كنا نريد إنكار العقل. وفي ظل التعقيدات والتناقضات والالتباسات والمسوغات الملتوية التي اتسمت بها فلسفة ما بعد عصر النهضة، كان قد برز خط ثابت وحيد، وأمر جوهري يفسر بقية ما كان يجري، وهو الهجوم المتظافر على الملكة المفاهيمية لدى المرء. ومع أنه لم يكن معظم الفلاسفة يحملون نية إبطال المعرفة المفاهيمية، غير أنه كان لمناصريها القسط الأكبر في تدميرها مقارنة بمعاديها. حيث كانوا غير قادرين على تقديم حلٍ «لمعضلة المسلمات»، أي تحديد طبيعة التجريدات ومصدرها وتحديد علاقة المفاهيم بالبيانات الإدراكية الحسية. وكانوا غير قادرين على إثبات مصداقية الاستقراء العلمي. كما أن هؤلاء الفلاسفة، وهم متجاهلون سَبقوا أرسطو الذي لم يترك لهم إجابة شافية للمعضلة ولكنه بيّن الاتجاه والطريقة اللذان يمكن من خلالهما العثور على الحل، كانوا عاجزين عن دحض ادعاء «الحالم» الذي ينصُّ على أن مفاهيمهم كانت اعتباطية كحال أهوائه، وأنَّ معرفتهم العلمية لا تتمتع بمصداقية ميتافيزيقية أكثر من رؤياه.

غير أن الفلاسفة اختاروا حلّ المعضلة عن طريق إقرار ادعاء «الحالم» وعن طريق تسليمه سلطة المستوى المفاهيمي لوعي الإنسان، وهو نصر ما كان ليأمل أي «حالم» بتحقيقه بمفرده.

والشكل الذي اتخذه هذا التنازل المنافي للعقل هو ما وقع على أثره الانقسام النهائي للفلاسفة إلى فريقين: أولئك الذين أدعوا أن الإنسان يحصل على معرفته بالعالم من خلال استنباطها تحديدًا من المفاهيم التي تأتي من داخل عقله ولا تُستمد من الإدراك الحسي للوقائع المادية (العقلانيون)، وأولئك الذين ادعوا أن الإنسان يحصل على معرفته من التجربة، وهو ما قيل إنه يعني من خلال الإدراك الحسي المباشر للوقائع الفورية دون اللجوء إلى المفاهيم (التجريبيون). وببسيط العبارة: الفريق الأول هم أولئك الذين انضموا إلى «الحالم» بالتّخلّي عن الواقع، والثاني هم أولئك الذين تشبثوا بالواقع بالتخلّي عن عقولهم.

وهكذا أُبعد العقل من المشهد الفلسفي بفعل التخلّف والتقصير والتملص. فما بدأت كمعضلة حقيقية بين فريقين من المفكرين الجادين سرعان ما تدهورت إلى المستوى الذي لم يتبق فيه شيء في مجال الفلسفة، وإنما معركة بين «الحالمين» و«الأتيليين».

والشخص الذي أضفى لهذا الوضع صبغة رسمية، وأغلق باب الفلسفة أمام العقل، كان إيمانويل كانط.

منح كانط النظرية الأبستمولوجية النفسية «لأتيلا» و«الحالم»، وعلاقتهما الوجودية البدائية، صبغة ميتافيزيقية قاصيًا من عالمه وجود المنتج ونظريته الأبستمولوجية النفسية. لقد سلّم الفلسفة إلى يدا «أتيلا»، وأكد على إعادة تسليمها في المستقبل إلى يدا «الحالم». وسلّم العالم إلى «أتيلا»، لكنه احتفظ بعالم الأخلاق

«للحالم». كانت غاية كانط المُعلنة تتلخص في إنقاذ أخلاقيات نكران الذات والتضحية بالنفس. فقد كان يعلم أنه ما كان ليكتب لهذه الأخلاقيات البقاء دون وجود قاعدة باطنيّة، وأنه ما يجب أن يحميها منها هو العقل.

تشمل حصة «أتيلا» من عالم كانط الفلسفي هذه الأرض، والواقع المادي، وحواس الإنسان، والإدراكات الحسية، والعقل والعلم، والتي أُدرجت جميعها تحت مسمى «العالم الظاهراتي». في حين أن حصة «الحالم» هي واقع آخر «أسمى» أُطلق عليه «العالم المعقول»، ومظهر أخلاقي خاص أُطلق عليه «الضرورة الحتمية»، التي تملي على الإنسان قواعد الأخلاق، والتي تجعل نفسها معلومة لدى المرء عن طريق إحساس ما، كإحساس معين بالواجب الأخلاقي.

«العالم الظاهراتي»، على حد قول كانط، ليس حقيقيًا: فالواقع إذا ما أُدرك عن طريق العقل هو محرّف. وهذا التحريف بحسب قوله ينتج عن الملكَة المفاهيمية لدى المرء، فالمفاهيم الأساسية (مثل الزمان والمكان والوجود) ليست مستمدة من التجربة أو الواقع، ولكنها تأتي من منظومة مرشحات تلقائية في وعيه (المسماة «المقولات»[8] و«أشكال الإدراك الحسي») التي تفرض تصميمها الخاص على إدراكه للعالم الخارجي وتجعل منه غير قادر على إدراكه

---

(8) بحسب تعبير كانط هي تصورات عقلية يأتي بها العقل ومن ثم يطبقها على المحسوسات، وهي اثنتي عشرة مقولة منها الجوهر والكم والفعل والزمان والمكان. (المترجم)

بأي طريقة أخرى بخلاف الطريقة التي يدركه بها. يقول كانط، إنّ هذا يثبت أن مفاهيم الإنسان ليست سوى وهم، ولكنّهُ وهم جماعي لا يملك أي إنسان القدرة على التملص منه. وبالتالي يُعد العقل والعلم على حد تعبير كانط «محدودان»، وهما صالحان فقط طالما أنهما يتعاملان مع هذا العالم تحت ظل توهم جماعي دائم ومحدد مسبقًا (وعليه تحول معيار صلاحية العقل من الموضوعي إلى الجماعي)، لكنهما يعجزان عن التعامل مع مسائل الوجود الميتافيزيقية الأساسية، التي تنتمي إلى «العالم المعقول». وهذا «العالم المعقول» هو عالم مستغلق على الإفهام، وعالم الواقع «الحقيقي»، وعالم الحقيقة «المتفوّقة» وعالم «الأشياء في حد ذاتها» أو «الأشياء كما هي»، وهو ما يعني الأشياء كما لا يدركها الإنسان.

وبغض النظر عن حقيقة أن نظرية كانط حول «المقولات» كمصدر لمفاهيم الإنسان كانت اكتشافًا لاعقلاني، فإن حجته التي ساقها جاءت كإنكار، ليس فقط لوعي الإنسان، بل أيضا لأي وعي، لأي وعي من هذا القبيل. حيث تقوم حجته في جوهرها على النحو التالي: أن الإنسان مقيد بوعي ذي طبيعة محددة، والذي يدرك الأشياء بوسائل معينة ليس هناك غيرها، وبناء على ذلك فإن وعيه غير صالح؛ فالإنسان يكون أعمى البصر لأن لديه عينين، ويكون أصم السمع لأن له أذنين، ومتوهم لأن لديه عقل، والأشياء التي يدركها غير موجودة بسبب أنه يدركها.

وبالنسبة إلى نظام كانط الأخلاقي، فهو ملائم لنوع المغيبين

الذين سيسكنون هذا النوع من العالم، عالم يقوم على الإيثار الكلّي البائس والوضيع. يقول كانط إن الفعل لا يكون أخلاقيًا إلا عندما تخلو النفس من الرغبة في القيام به، وأن يؤديه المرء بدافع الإحساس بالواجب، دون أن ينتفع منه بأي شكل من الأشكال، لا ماديًا ولا روحانيًا؛ بل أن السعي وراء المنفعة يهدم القيمة الأخلاقية للفعل. (وهكذا، إذا كانت لدى المرء الرغبة في ألا يغدو شريرًا، فإنه لا يستطيع أن يكون صالحًا، وإذا لم تكن لديه هذه الرغبة يستطيع أن يكون صالحًا).

إن أولئك الذين يقبلون أي جزء من فلسفة كانط – الميتافيزيقية أو الأبستمولوجية أو الأخلاقية- يستحقون أن يعيشوا وفقها.

إذا وجد المرء أن الوضع الراهن للعالم يتعذر فهمه وتفسيره، فبمقدوره أن يبدأ في فهمه من خلال إدراك أن التأثير الفكري السائد اليوم ما يزال تأثير كانط، وأن جميع المدارس الحديثة الرائدة في الفلسفة مستقاة من القاعدة الكانطية.

ينطبق التعبير العامي الشائع «head-shrinker»، المُطبق على علماء النفس، حرفيًا أكثر على كانط[9]: لاحظ الهبوط الحاد في المكانة الفكرية للفلاسفة الذين جاءوا بعد كانط، والحجاب الآخذ في التماسك من الرمادية والسطحية والسفسَطة الذي ظل ينزل على تاريخ الفلسفة بعد ذلك، مثل ضباب يغلف نهر بطيء ينساب برقة

(9) تقصد هنا الكاتبة المعنى الحرفي والأصلي للمصطلح وهو "مُصغر الرؤوس"، والذي يعود أصله إلى بعض أعضاء القبائل الأمازونية التي كانت مهمتهم هي تجريد رؤوس الأعداء من الجلد لتقليص حجم جماجمهم والاحتفاظ بها. (المترجم).

أكثر وأكثر حتى يختفي أخيرًا في مستنقعات القرن العشرين.

لقد رفض الجانب الأكبر من الفلاسفة «العالم المعقول» لكانط على وجه السرعة، لكنهم قبلوا عالمه «الظاهراتي» وحملوه إلى نتائجه المنطقية المتمثلة في رؤية الواقع على أنه مجرد صورة ومظهر، ورؤية الملكَة المفاهيمية للإنسان على أنها آلية لإنتاج «مفاهيم» اعتباطية غير مستمدة من التجربة أو الحقائق، ورؤية اليقين العقلاني على أنه في حكم المستحيل، والعلم على أنه أمر لا يسلّم بصحته، وعقل الإنسان على أنه أداة عقيمة، وقبل كل شيء، معادلة المُثل الأخلاقية العليا بالإيثار. لقد رفضوا جذر نظام كانط أو السبب ورائه، لكنهم قبلوا جميع آثاره المهلكة. لقد قبلوها مثل عنكبوت بشع معلق في الجو في شبكة من الإسهاب المبهم الذي يكاد ألا يُقرأ، واليوم، قلة من الناس يعلمون أن هذا العنكبوت لا يدعمه خيط واحد مثبت.

كان هذا هو العتاد الفكري الذي تسلح به الفلاسفة لأداء مهمة مراقبة الأحداث التاريخية غير المسبوقة التي شهدها القرن التاسع عشر، والقيام بمسؤولية توفير التوجيه الإرشاد لمجتمع الرأسمالية الحديث الحر.

فلئن كان العلماء يقومون بإنجازات مذهلة في ضبط العقل وتطويعه، محطمين حواجز «المجهول» في كل مجال من مجالات المعرفة، وواضعين رسومًا توضح مسار الأشعة الضوئية في الفراغ أو مسار الدم في الشعيرات الدموية لجسم الإنسان، ما كانت الفلسفة تقدمه لهم في المقابل، كتفسير لإنجازاتهم وتوجيه لها، هو

النزعة الحالمة الصريحة لهيجل، الذي صرّح بأن المادة ليس لها وجود على الإطلاق، وأن كل شيء ما هو إلا فكرة (ليست فكرة شخص ما، وإنما مجرد فكرة)، وأنّ هذه الفكرة تعمل من خلال العملية الجدلية لـ«منطق متعالٍ» جديد، يثبت أن التناقضات هي قانون الواقع، وأن (أ) ليس (أ)، وأن المعرفة بالكون المادي (بما في ذلك الكهرباء والجاذبية والنظام الشمسي، وما إلى ذلك) يتعين استخلاصها، ليس من تقصي الحقائق، ولكن من خلال التمعن في الشقلبة الثلاثية[10] لتلك الفكرة داخل عقله، عقل هيجل. ولقد عُرضت هذا الفلسفة بصفتها فلسفة عقلانية.

وفي حين كان أصحاب الأعمال يرتقون إلى تحقيق إنجازات مشهودة في القدرة الإبداعية والتحلي بشجاعة تنبع عن الطموح وتقدير الذات، متحدين المسلّمة البدائية التي تنص على وجوب بقاء الإنسان في حالة عوز وبؤس على وجه الأرض، وممهدين الخطوط التجارية في العالم، ومطلقين الطاقة الإنتاجية لدى الإنسان ومسخرين القوى المحررة للآلات في خدمتها (ضد المقاومة المتهكمة للمتسكعين والأرستقراطيين الإقطاعيين السابقين وضد العنف المدمر لأولئك الذين كانوا سيستفيدون أكثر في الحقيقة من

(10) تشير الكاتبة هنا إلى المنهج الجدلي لهيجل في معالجة الأفكار. والذي مفاده أنه عندما تظهر فكرة أولى سماها "الأطروحة" ومن ثم يقابلها ظهور فكرة أخرى مناقضة سماها "النقيض". ستحصل عملية جدل بين الفكرتين وينتج عنها فكرة جديدة يسميها هيجل "الجميعة". (المترجم).

الآلات[11]: ألا وهم العمّال)، ما كانت تقدمه لهم الفلسفة في المقابل، كتقييم لإنجازاتهم وتوجيه لبقية المجتمع، هي النزعة الأتيلية المحضة لماركس، الذي أعلن أن العقل لا وجود له، وأن كل شيء ما هو إلا مادة، وأن المادة تطور نفسها من خلال العملية الجدلية التي يقوم بها «منطقها المتعالي» للتناقضات، وما هو صحيح اليوم، غدًا هو ليس كذلك، والذي أعلن أيضًا أن أدوات الإنتاج المادية تحدد «البنية العلوية الأيديولوجية» للإنسان (ما يعني أن الآلات تخلق تفكير الإنسان، وليس العكس)، وأن العمل البدني هو مصدر الثروة المادية، وأن استخدام القوة البدنية هو الوسيلة العملية الوحيدة للوجود، وأن حيازة الآلات ذات القدرة الكلية سوف يحول القدرة الكليّة إلى حكم العنف الغاشم. ولم يُحدث قط أن اُستنسخت الأبستمولوجيا النفسية لـ «أتيلا» بهذه الدقة كما فعلت فلسفة ماركس. والتي قُدمت بوصفها فلسفة تاريخ ونظام اقتصادي سياسي.

لكن ما الذي قُدم كترياق فلسفي لأولئك الذين لن يقبلوا بهذه النظريات؟

كآلية دفاع ضد النزعة الحالمة لفلسفة كانط وهيجل، تسلّح صاحب الأعمال بالمذهب الأتيلي الباطني الجديد للبراغماتية. والتي

---

(11) تتحدث الكاتبة هنا عن الحركات الثورية التي يقوم بها العمال دفاعًا عن مصدر رزقهم الذي يهدده انتشار الآلات في المصانع. والتي تصل إلى مرحلة الهجوم على المصانع وتحطيم الآلات والماكينات. ومنها الحركة "اللاضية" التي اندلعت في إنكلترا مع بداية الثورة الصناعية في أوروبا في عام 1811. (المترجم)

صرّح أتباعها أن الفلسفة يجب أن تكون عملية وأن «العملية» تقوم على الاستغناء عن جميع المبادئ والمعايير المطلقة، وأنه ليس هناك ما يُسمى بالواقع الموضوعي أو الحقيقة الدائمة، وأن الحقيقة هي تلك التي تنجح، وأن الحكم على صحتها لا يمكن إلا من خلال النتائج المترتبة عليها، وأنه يستحال معرفة أي حقائق مسبقًا على وجه اليقين، ويمكن اختبار أي شيء عن طريق قاعدة الاختبار والتجربة، وأن الواقع ليس ثابتًا، ولكنه متقلب و«غير محدد (تتحكم فيه عدة متغيرات)»، وأنه لا يوجد ما يُسمى بالتمييز بين العالم الخارجي والوعي (بين المُدَرك والمُدِرك)، ولا يوجد سوى مظهر من العناصر المتجانسة يسمى «التجربة»، وأيًا كان ما يرغب المرء في أن يكون حقيقيًا هو حقيقي، وأيًا كان ما يرغب في وجوده هو موجود، شريطة أن ينجح هذا الشيء أو يُشعر المرء بتحسن.

عمدت مدرسة لاحقة تضم المزيد من البراغماتيين الكانطيين إلى تعديل هذه الفلسفة على النحو التالي: إذا لم يكن هناك ما نستطيع أن نطلق عليه الواقع الموضوعي، فإن الخيار الميتافيزيقي المتمثل أمام الأفراد يصبح رهين سؤال ما إذا كانت الأهواء الديكتاتورية الأنانية للفرد أم الأهواء الديمقراطية للجماعة هي ما ستشكل تلك المادة المرنة التي يطلق عليها الجهلة «الواقع»، لذلك رأت هذه المدرسة أن «الموضوعية» تتمثل في النزعة الذاتية الجماعية، وأن المعرفة تُكتسب من خلال الاستفتاءات بين النخب الخاصة من «الباحثين الأكفاء» الذين بوسعهم «التنبؤ بالواقع والسيطرة عليه»،

وأن أيّ شيء يرغب الناس في أن يكون حقيقيًّا هو حقيقي، وأيّ شيء يرغب الناس في وجوده هو موجود، وأي شخص يحمل أي قناعات حازمة من جانبه هو متعصب متعسف وباطنيّ نظرًا لأن الواقع غير محدد والناس هم من يحددون طبيعته الفعلية.

من جهة أخرى، قُدم إلى العلماء نسخة مختلفة قليلًا من الفلسفة. فكآلية دفاع ضد النزعة الحالمة لهيجل، الذي ادعى العلم الكلي الشامل، تسلح مجتمع العلماء بالمذهب الباطني الجديد من النزعة الأتيلية والحالمة مجتمعة الذي كان رواده من الوضعيين المنطقيين. والذين أكدوا لهيجل أن مفاهيم مثل الميتافيزيقيا أو الوجود أو الواقع أو الشيء أو المادة أو العقل هي مفاهيم عديمة المعنى، قائلين دع الباطنيين يهتمون بشأن الوجود أم عدمه، لكن ليس لزومًا على العالِم أن يعرف ذلك؛ فمهمة العلم النظري تتمثل في التلاعب بالرموز، والعلماء هم النخبة الخاصة التي تتمتع رموزهم بقوة سحرية تجعل الواقع متفقًا مع إرادتهم («المادة هي تلك التي توافق المعادلات الرياضية»). كما أضافوا أن المعرفة تتكون ليس من الحقائق، ولكن من الكلمات، كلمات لا علاقة لها بأشياء، وإنما كلمات لأعراف وممارسات اجتماعية تعسفية، كأساس لا يمكن تقنينه؛ وبالتالي فإن المعرفة هي مجرد مسألة تلاعب باللغة. وصرحوا كذلك بأن وظيفة العلماء ليست دراسة الواقع، وإنما إنشاء مفاهيم اعتباطية من خلال الأصوات العشوائية، وأن أي مفهوم هو صالح مثل الآخر، لأن معيار الصلاحية الوحيد هو

«الملاءمة» ولأن تعريف العلم هو «ما يفعله العلماء». لكن هذه القوى الكلية المطلقة، التي فاقت ما تصور علماء الأعداد القدامى أو الكيميائيين في العصور الوسطى الوصول إليه، منحها المذهب الفلسفي الأتيلي للعلماء بشرطين: أولًا، ألا يدعون قط اليقين في معرفتهم، لأن اليقين لا سبيل إلى معرفته أمام الإنسان، وأن يتبنون بدلًا من ذلك قاعدة «نسبة الاحتمال»، دون أن يكلفوا أنفسهم عناء الإجابة على سؤال كيفية أن يحسب المرء النسب المئوية لشيء مجهول. وثانيًا، أن يتبنون كمعرفة مطلقة الافتراض القائل بأن جميع القيم تقع خارج نطاق العلم، وأن العقل عاجز عن التعامل مع الأخلاق، وأن القيم الأخلاقية هي مسألة اختيار ذاتي، تمليها مشاعر المرء وليس عقله.

أعظم خيانة ارتكبها الفلاسفة هو أنهم لم يتجاوزوا البتّة حقبة العصور الوسطى: فهمَ لم يعترضوا مطلقًا المدونة الأخلاقية التابعة «للحالم». وكانوا على استعداد للتشكيك في وجود الأشياء المادية، وعلى استعداد للتشكيك في صحة أحاسيسهم، وعلى استعداد لرفض حكم الملكيّات المطلقة، وعلى استعداد، من آن لآخر، لإعلان أنفسهم متشككين أو لا أدريين أو ملحدين، لكنهم لم يكونوا مستعدين للتشكيك في المذهب القائل بأن الإنسان ضحية، وأنه لا يتمتع بحق الوجود من أجل نفسه ومصلحته، وأن خدمة الآخرين هي المبرر الوحيد لوجوده، وأن التضحية بالنفس هي أسمى فضائله وقيمه وواجباته الأخلاقية.

مكتبة
t.me/soramnqraa

في ظل كل ما لحق هذا المذهب - الذي يُعرّف على أفضل وجه باسم الأخلاق الغيرية- من مظاهر مختلفة وما تعرّض له من تغيرات وتعديلات لا حصر لها، لكنه جاء إلى مدينة نيويورك من المستنقعات الفكرية لما قبل التاريخ دون أن يمسسه أي تغيير. ففي المجتمعات الوحشية غير المتمدنة، مارس الناس طقوس الأضاحي البشرية، مضحين بالأفراد على مذابح قربانيه، من أجل ما أعدوه صالحهم الجماعي وولائهم القبلي. واليوم، ما زالوا يفعلون ذلك، اللّهم أن العذاب أصبح أبطأ والذبح أعظم. والمذهب الذي يقرّ بذلك ويطالب به، هو نفس المذهب الأخلاقي الذي مارسه الهمجيون الأوائل.

حافظ الفلاسفة على وجود هذا المذهب من خلال تسليم موضوع الأخلاق لأهل الباطن، أو من خلال تركه تحت إرادة المشاعر الذاتية، مما يعني أيضًا تحت إرادة الباطنيين، أو من خلال إبداء الرفض القاطع لقدرة العقل على التعامل مع القيم الأخلاقية وتصنيف جميع الأحكام القيمية على أنها «غير علمية»، مما يعني أيضًا استمرار احتكار أهل الباطن للأمور الأخلاقية وإعادة التأكيد على ذلك، أو الأسوأ من ذلك كله، من خلال قبول المدونة الأخلاقية للباطنيين في مجملها غير العقلاني، ثم ترجمتها إلى مصطلحات دنيوية وترويجها باسم العقل.

إن الالتواءات والتعقيدات التي شهدتها هذه المحاولة الأخيرة تقدم لنا ما قد يكون أكثر الفصول فظاعة وبشاعة في تاريخ الفكر

الغربي. والمذهب «الإمّعي» السياسي الذي أظهره «محافظو» اليوم بوضاعة تجاه خصومهم الاشتراكيين المتبجحين، لا يُعد سوى نتيجة وانعكاسًا ضعيفًا للمذهب «الإمّعي» الأخلاقي الذي أظهره فلاسفة القرن التاسع عشر والعشرين، عن طريق أنصار العقل المزعومين، تجاه النزعة الحالمة في الأخلاق.

دعا أوغست كونت، مؤسس الفلسفة الوضعية ونصير العلم، إلى نظام اجتماعي «عقلاني» و«علمي» يقوم على إخضاع الفرد بالكامل تحت إرادة الجماعة، بما في ذلك وضعه لما يُسمى بـ«دين البشرية» الذي يستبدل المجتمع بالآلهة أو الأرباب التي تجمع دم ضحايا القرابين البشرية. وعليه ليس من المستغرب أن يكون كونت هو مصدر مصطلح «الغيرية»، والذي يُقصد به وضع الآخرين فوق الذات، ووضع مصالحهم فوق مصلحتها.

استند نيتشه في اعتراضه على الغيرية إلى استبدال مبدأ التضحية بالنفس للآخرين بمبدأ التضحية بالآخرين للنفس. حيث قال إن الإنسان الأعلى يحركه، ليس العقل، ولكن «دمه»، وغرائزه الفطرية، ومشاعره، ورغبته في التسلّط. وأعلن أن المرء كُتب له بالفطرة أن يحكم الآخرين ويضحي بهم من أجل نفسه، بينما هم كُتب لهم بالفطرة أن يقعوا ضحاياه وعبيده، وأن العقل والمنطق والمبادئ جميعها عقيمة وموهنة، وأن الأخلاق عديمة الجدوى، وأن «الإنسان المتفوّق هو أسمى من الخير والشر»، وأنه «وحش مفترس» يستند معياره المطلق لا إلى شيء سوى أهواءه. وعليه فإن

نبذ نيتشه «للحالم» قام على ترقية «أتيلا» إلى مرتبة من المثالية الأخلاقية، والذي يعني تسليمًا مزدوجًا للأخلاق في أيدي «الحالم».

دافع جيرمي بنثام، نصير الرأسمالية، عن الغيرية بوضع مبدأ «تحقيق أعلى مقدار من السعادة لأكبر عدد ممكن من الناس» كمبرر أخلاقي لها، ووضع مبدأ «تقدير اللذة» لتوفير التوجيه الأخلاقي للأفراد، والذي ينص على أنه قبل اتخاذ أي إجراء يجب على المرء أن يأخذ في الاعتبار كافة الأشكال والمقادير الممكنة من السعادة والتعاسة التي ستلحق كل الأشخاص الذين قد يتأثرون بالنتائج المترتبة على أفعاله (بما في ذلك نفسه كوحدة واحدة من بين العشرات أو المئات أو الملايين من الوحدات)، فعليه تقديرها جميعًا، ومن ثم التصرف وفقًا لذلك، والتضحية بالأقلية من أجل الأغلبية «المتلذذة».

بينما أختار هربرت سبنسر، وهو نصير آخر للرأسمالية، أن يعتقد بأنّ نظرية التطور والتكيف مع البيئة هما مفتاح المُثل الأخلاقية العليا، وصرح بأن المبرر الأخلاقي وراء وجود النظام الرأسمالي هو بقاء أنواع الجنس البشري، وأن كل من هو عديم المنفعة للجنس البشري يجب أن يُهلك، وأنّ المُثل الأخلاقية العليا للمرء تقوم على التكيف مع بيئته الاجتماعية والسعي وراء السعادة الذاتية في ظل رفاه المجتمع، وأن عمليات التطور التلقائية سوف تعمل في نهاية المطاف على طمس التمييز بين الأنانية والإيثار.

عندما دعا كارل ماركس، الشخص الأكثر مثابرةً على ترجمة

الأخلاق الغيرية إلى أعمال فعلية ونظرية سياسية، إلى مجتمع يُضحى فيه بالجميع من أجل الجميع، بدءًا من التضحيات الفورية من جانب القادرين والأذكياء والناجحين والأثرياء، فمهما كانت المعارضة التي واجهها، كانت لا تقوم على أسس أخلاقية. وقد مُنح في الأساس صفة المثاليّ النبيل، ولكن غير العمليّ.

الخيانة العظمى التي ارتكبها الفلاسفة كانت أنهم، هم المفكّرين، تقاعسوا عن مسؤولية إرساء مجتمع عقلاني يقوم على مدونة من الأخلاق العقلانية. وبدلًا من ذلك، اكتفى هؤلاء، الذين كانت مهمتهم اكتشاف القيم الأخلاقية للإنسان وتحديدها، بالنظر في السيل الجارف من طاقة الإنسان المحررة، دون أن يقدموا في سبيل توجيهها وإرشادها ما هو أفضل من أخلاقيات «الحالم» المرتكزة على التضحيات البشرية، ونكران الذات وإذلال النفس والتضحية بالنفس، والمعاناة والشعور بالذنب والموت.

إن فشل الفلاسفة في التصدي لأخلاقيات «الحالم» قد كلفهم خسارة مملكاتهم: وهي الفلسفة. بيد أن علاقة العقل بالأخلاق هي علاقة متبادلة: فالإنسان الذي يقبل دور المُضحى به لن يحقق تقدير الذات اللازم لدعم صلاحية عقله، والإنسان الذي يشكك في صلاحية عقله لن يحقق التقدير الذاتي اللازم لرفع قيمة شخصه واكتشاف الأسس الأخلاقية التي تجعل تحقيق قيمة لوجود الإنسان أمرًا ممكنًا.

يتشارك المفكرون والفلاسفة في ذنب التقاعس عن المسؤولية.

فقد أدرك المفكرون- جميع أولئك الذين تتناول مهنهم «العلوم الإنسانية» وتتطلب قاعدة فلسفية راسخة- منذ وقت طويل أنه لا توجد قاعدة من هذا القبيل. وأدركوا أنهم كانوا يعملون في فراغ فلسفي وأن العملة التي كانوا يمررونها بينهم كانت شيكات ليس لها قيمة سترتد في يوم ما لتدمر ثقافتهم.

لا يمكن للمرء أن يعرف أبدًا، وله أن يتخيل فقط، حجم المآسي واليأس والدمار الصامت الذي ما فتئ يحدث منذ أكثر من قرن تحت سطح المهن الفكرية وفي نفوس ممارسيها، ولا حجم الإمكانات التي لا تحصى من القدرة والكفاءة البشرية التي قُضي عليها في تلك الصراعات الأحادية الخفية. إن العقول الشابة التي أتت إلى ميدان الفكّر بإحساس مكتوم بالنضال، باحثةً عن إجابات عقلانية للمسائل المتعلقة بتحقيق وجود إنساني ذو معنى، وجدت أنّ ما هو قائم هو كيان من الاحتيال الفلسفي بدلًا من التوجيه والقيادة. مما جعل البعض منهم يتخلى عن ميدان الأفكار في سخط وإحباط بائس، ليختفوا في صمت «الذاتية». بينما استسلم البعض الآخر، ورأوا أن تلهفهم يتحول إلى شعور بالمرارة، وسعيهم إلى عدم اكتراث، ونضالهم إلى عدم مبالاة واستخفاف. لقد حكموا على أنفسهم بالقلق المزمن لمحتال يخشى أن يتعرض للفضح عندما قبلوا القيام بأدوار القادة المستنيرين وهم يعلمون أن معرفتهم لا تستند إلى شيء سوى حالة من الضبابية وأن معيار صحتها الوحيد هو مشاعر شخص ما.

لقد وجدوا، أصحاب العقل القياسيون، أنفسهم يخشون العقل كعدو لهم، والمنطق كشبح مطارد لهم، والفكّر كمنتقم منهم. لقد وجدوا، دعاة الفكّر، أنفسهم متمسكين بالاعتقاد بأن الأفكار عقيمة، وكان الاختيار المتمثل أمامهم هو خوض سفسفة الدجال أو ذنب الخائن. كانوا يفوقون أواسط الناس عندما بدأوا مهنتهم؛ وكانوا ما دون ذلك عندما أنهوها. والاستثناءات تزداد ندرة مع كل جيل. لكن لا يمكن لأحد يتمتع بعتاد نفسي منيع أن يقبل تحت راية العقل دور «الحالم».

مع عدم وجود أرض ثابتة سوى رمال متحركة- اتخاذ المزيج المتغير من النزعة «الحالمة» و«الأتيلية» كقاعدة فلسفية- يقف عليها المفكرون، لم يكن بوسعهم استيعاب الدراما التاريخية التي تجري أمام أعينهم من الثورة الصناعية والرأسمالية، أو الوقوف عليها أو تقييمها. لقد كانوا مثل الأشخاص الذين لم يبصروا عظمة مشهد صاروخ ينفجر فوق رؤوسهم، لأنهم كانوا مطأطئين رؤوسهم في حالة من الشعور بالذنب. لقد كانت مهمتهم أن يبصروا ويوضحوا- لمجتمع من الأشخاص يخرجون متعثرين بارتكاب من زنزانة بدائية وغير متحضرة- سبب الأحداث التي كانت تجتاحهم على نحو أسرع وأبعد من حركة كل القرون التي قبلهم ومعناها. إلا أن المفكرين اختاروا ألا يبصروا ذلك.

وكان الأشخاص الذين يمتهنون المهن الأخرى غير قادرين على الرجوع إلى الوراء ومراقبة ما يحدث. فإذا وجد بعض الأشخاص

أنفسهم يغادرون مزارعهم للحصول على فرص عمل في مصنع، فإن معرفتهم بالأمر تقتصر هنا. وإذا قُدّر الآن لأطفالهم فرصة البقاء على قيد الحياة بعد سن العاشرة (كان معدل وفيات الأطفال حوالي خمسين بالمائة في فترة ما قبل الرأسمالية)، فليس بوسعهم معرفة السبب. ولم يتمكنوا من معرفة سبب انتهاء المجاعات المتكررة الآن- التي كانت تضرب البشرية كل عشرين عامًا لتقضي على السكان «الفائضين» التي لم تستطع الاقتصادات السابقة للرأسمالية إطعامهم- وسبب انتهاء مذابح وويلات الحروب الدينية، ولا لماذا يبدو الخوف وكأنه يهجر أصوات الناس وشوارع المدن المتنامية، ولا عن السبب وراء مشاعر الابتهاج الهائلة التي أخذت فجأة تجتاح العالم. وذلك لأن المفكرين لم يختاروا إعلامهم.

لقد ظل المفكرون، أو السواد الأعظم منهم، قرونًا متخلفين عن زمانهم: كانوا ما زالوا يسعون لنيل رضى الحماة النبلاء واستحسانهم، وبعضهم كان يندب «سوقية وابتذال» المساعي التجارية ساخرين من أولئك الذين كانت ثرواتهم «جديدة»، وفي الوقت ذاته لائمين هؤلاء صناع الثروة الجدد على جميع الفقر الموروث من القرون التي حكمها أصحاب الثروة «غير التجارية» النبلاء. وكان البعض يستنكر الآلات على أنها «لاإنسانية»، والمصانع على أنها تشويه لجمال الريف (حيثما كانت المشانق قائمة في السابق عند مفترق الطرق). وآخرون كانوا ما يزالون يدعون إلى حركة «العودة إلى الطبيعة»، وإلى الحرف اليدوية، وإلى العصور

الوسطى. وكان البعض الآخر يهاجمون العلماء لبحثهم في «الأسرار» المحرّمة والتدخل في خلق الله.

وكان صاحب الأعمال هو ضحية هذا الظلم الشائن الذي مارسه المفكرون.

بقبولهم اتخاذ دور «الحالم» ومبادئه وقيمه الأخلاقية، كان المفكّرون غير راغبين في التفريق بين صاحب الأعمال و«أتيلا»، بين منتج الثروة واللص. ومثل «الحالم»، خافوا من عالم الواقع المادي وازدروه، وأحسوا في باطنهم بعدم كفاءتهم للتعامل معه. ومثل «الحالم»، كان ما يمثل رؤيتهم الخفية (الأمر أقرب بالمثاليّة التي يهابونها ويتمنونها) للإنسان العملي والناجح وسيد الواقع الحقيقي، هو «أتيلا». ومثل «الحالم»، كانوا يؤمنون أن البطش والاحتيال والأكاذيب والنهب والاستعباد والقتل ونزع أملاك الآخرين جميعها أشياء عملية. لذلك لم يتحرّوا في مصادر الثروة أو يتساءلوا أبدًا عما جعلها ممكنة (لقد جُبلوا على أن السببية وهم وأن اللحظة الآنية وحدها هي الحقيقية). لقد أخذوا به كأمر مسلم به، وكأساس قاطع لا رجعة فيه، وهو أن الثروة يتعذر اكتسابها إلا بالقوة، وأن الثروة في حد ذاتها هي إثبات على النهب، دون الحاجة إلى مزيد من التمييز أو الاستفسار.

سائرين وأعينهم شاخصة على العصور الوسطى، ظلوا على ذلك في خضم فترة أتى فيها إلى الوجود من حولهم قدر من الثورة أكبر مما كان عليه الحال في أي وقت مضى في العالم. إن كان

الأشخاص الذين أنتجوا تلك الثورة هم لصوص، فمِن من نهبوها؟ كانت إجابة المفكرين، في ظل كل التقلبات المخزية التي خضعت لها تملصاتهم، هي من أولئك الذين لم ينتجوها. لقد كانوا يرفضون الاعتراف بالثورة الصناعية (وما زالوا يرفضون اليوم). وكانوا يرفضون الاعتراف في عالمهم بما لا يستطيع «أتيلا» ولا «الحالم» الاعتراف به: وهو وجود الإنسان المنتج.

تهربًا من التمييز بين الإنتاج والنهب، أطلق المفكرون على صاحب الأعمال اللص. وتهربًا من التمييز بين الحرية والإكراه، أطلقوا عليه رب عمل مسترق. وتهربًا من التمييز بين إعطاء الناس أجور أعمالهم وإرغامهم عليها بالترويع، أطلقوا عليه اسم المستغل. وتهربًا من التمييز بين الأجور والأسلحة، أطلقوا عليه المستبد. وتهربًا من التمييز بين التجارة والبطش، أطلقوا عليه طاغية. وكانت المسألة الأكثر أهمية التي كان عليهم التهرب منها هي التمييز بين المُكتسب وغير المُكتسب.

متجاهلين وجود الملكَة التي خانوها، ملكَة التمييز التي منبعها العقل، فقد رفضوا تمييز حقيقة أن الثروة الصناعية هي نتاج عقل الإنسان: وهو أن كمية هائلة من القوة الفكرية والذكاء الإبداعي والطاقة المنضبطة والعبقرية البشرية قد بُذلت في خلق الثروات الصناعية. لم يكن بمقدورهم تمييز هذه الحقيقة، لأنه لم يكن بمقدورهم الاعتراف بأن العقل هو ملكَة عملية، وبرهان الإنسان لإنجاح وجوده على الأرض، وأن مهمته هي دراسة الواقع (فضلًا

عن إنتاج الثروة) وليس التفكّر في مشاعر مبهمة، وأنه ليس احتكارًا خاصًّا للأمور التي يتعذر معرفتها.

كانت أخلاق الغيرية للـ «الحالم»- الأخلاق التي تلعن جميع أولئك الذين يحققون النجاح أو التنعم في الأرض- سببًا في تزويد المفكرين بالوسائل اللازمة لجعل التملص فضيلة. وأعطتهم سلاحًا لشل حركة ضحاياهم، وأعطتهم بديلًا تلقائيًا عن تقدير الذات، وفرصة للحصول على مكانة معنوية غير مُستحقة. لقد أعلنوا أنفسهم مدافعين عن الفقراء ضد الأغنياء، متملصين بحق من حقيقة أن الأغنياء لم يعودوا من نوعية «أتيلا» بعد الآن، ومدافعين عن الضعفاء ضد الأقوياء، متملصين بحق من حقيقة أن القوة المستخدمة لم تُعد قوة العضلات الغاشمة بعد الآن، وإنما أصبحت قوة عقل الإنسان.

ولكن لئن كان المفكّرون أصحاب الأعمال من نوع «أتيلا»، إلا أن صاحب الأعمال ما كان ليتصرف كما هو متوقعًا من «أتيلا» أن يتصرف من منظورهم ذي النزعة الحالمة، فقد كان منيعًا ضد قواهم. كان صاحب الأعمال في حيرة وارتباك من الأحداث التي تجري أمامه مثل بقية البشر، ولم يكن لديه الوقت لاستيعاب دوره التاريخي، ولم يكن لديه ما يتسلح به من الأسلحة الأخلاقية، ولا صوت يتكلم به، ولا دفاع يحتمي به، وكان- كونه جاهلاً بالمُثل الأخلاقية سوى أخلاق الغيرية، لكن مع ذلك كان يعرف أنه كان يعمل ضدها، وأن التضحية بالنفس ليست دوره- بلا حول ولا

قوة أمام الهجوم الذي يشنه المفكرون ضدهم. وكان ليُرحب بحرارة باتباع خطى أرسطو، دون أي حاجة إلى إيمانويل كانط. ذلك أن ما يُسمى اليوم بـ «العُرف العام» هو من بقايا التأثير الأرسطي، وكان الشكل الوحيد من الفلسفة الذي تبناه صاحب الأعمال. طلب صاحب الأعمال برهانًا يلبي توقعه في أن تغدو الأمور واضحة ومنطقية، وهو توقع دفع المفكرين إلى فئة العاطلين عن العمل. فلم يكن لديهم ما يقدموه لشخص لم يحز أي حصة من أي نسخة من العالم «المعقول».

حتى نفهم المسار الذي اختار المفكرون سلوكه، فمن الأهمية تذكّر الأبستمولوجيا النفسية «للحالم» وعلاقته بـ «أتيلا»، وهو أن «الحالم» يتوقع من «أتيلا» أن يكون حاميه ضد الواقع وضد ضرورة الإدراك العقلاني، وفي ذات الوقت يتوقع أن يحكم هو حاميه هذا، الذي يحتاج بدوره إلى إقرار باطني غامض كجرعة مخدرة لتخفيف شعوره المزمن بالذنب. فهما يستمدان من بعضهما حماية متبادلة، ليس من خلال أي شكل من أشكال القوة، ولكن من خلال حقيقة أن كل منهما يحكم قبضته على مواطن الضعف السرية للآخر. ولا يتعلق الأمر بعلاقة حماية متبادلة بين اثنين من التجار يعتمدان على الأشياء القيمة التي يقدمونها لبعضهم بعضًا، ولكن علاقة حماية متبادلة بين اثنين من المبتزين اللذين يعتمدان على خوف بعضهم بعضًا.

في المجتمع الرأسمالي يشعر «الحالم» بأنه منبوذ ميتافيزيقيًا، كما لو

أنه زُج به في بقعة مهملة خارج عالم يهمه أن يعترف به. فهو لا يملك أي وسيلة للتعامل مع الصلاح وسلامة النية، ولا يستطيع أن يسيطر على إنسان يسعى إلى العيش في حالة تخلو من الشعور بالذنب، وعلى صاحب أعمال يثق في قدرته على كسب رزقه، ذاك النوع من الإنسان الذي يفخر بعمله وقيمة منتجه، والذي يقود نفسه بطاقة لا تنضب وطموح غير محدود لتحقيق ما هو أفضل وأفضل من أي وقت مضى، والذي هو على استعداد لتحمل جزاء أخطائه ويتوقع المكافآت على إنجازاته، والذي ينظر إلى الكون بروح طفل جسورة وتواقة وهو يعلم أنه كون واضح لا يتعذر معرفته، والذي يطالب بالحصول على طرق مستقيمة وعبارات واضحة وتعريفات محددة، والذي يقف في وضح النهار وليس في وسط الضبابية المعتمة التي تفرضها الإيحاءات الخفية والسرية والمجهولة والماكرة، ـدون الحاجة لأي مدونة إشارات من الأبستمولوجيا النفسية التي تقوم على الشعور بالذنب.

ما قدمه صاحب الأعمال في المقابل إلى المفكرين هو النظير الروحي لنشاطه الذي يمارسه، والذي يخشاه «الحالم» أكثر من غيره، وهو حرية سوق الأفكار.

إن العيش من خلال إعمال العقل، وتزويد الأشخاص بما ينتجه تفكير المرء، وتزويدهم بمعارف جديدة، والركون إلى لا شيء سوى وجاهة أفكار المرء، والاستناد على لا شيء سوى الحقيقة الموضوعية، في سوق مفتوحة أمام أي إنسان مستعد للتفكير وما

يستدعيه من «الحكم على الأمور ومن ثم القبول أو الرفض بنفسه»، هي مهمة لا يمكن إلا للإنسان الذي يتمتع بالمستوى المفاهيمي للأبستمولوجيا النفسية أن يُرحب بها أو يحققها. وهو ليس بمكان مناسب لإنسان «الحالم» ولا لأي «صفوة» باطنيّة أخرى. فـ «الحالم» لا يستطيع أن يعيش إلا بفضل حاميه، من خلال الحصول على إعفاء خاص، ومن خلال ممارسة الاحتكار القاصر، ومن خلال استعباد الآخرين وقمعهم وفرض الرقابة عليهم.

بعد قبولهم لفلسفة «الحالم» والأبستمولوجيا النفسية التابعة لها، كاد المفكرون أن يسحبوا البساط من تحت أقدامهم وينقلبوا ضد ما سيميزهم ويعلي من منزلتهم تاريخيًا، ضد أول فرصة أتيحت للبشر لعيش حياة مهنية تقوم على العقل. عندما احتجّ المفكرون على «النزعة التجارية (طلب الربح في كل شيء)» التي يتسم بها المجتمع الرأسمالي، فإن ما احتجوا عليه تحديدًا هو السوق المفتوحة للأفكار، حيثما كانت المشاعر لا تحظى بالقبول، والأفكار يُتوقع منها أن تبرهن على صحتها، وحيثما كانت المخاطر تعظم والمظالم قد تقع، ولا وجود لحامٍ سوى الواقع الموضوعي.

وتمامًا مثلما كان «أتيلا» يبحث منذ عصر النهضة عن «حالم» يقوم بدور حمايته، كان المفكرون أيضًا يبحثون منذ نشوء الثورة الصناعية عن «أتيلا» يكون حامٍ لهم. وكانت أخلاق الغيرية هي ما جمعتهم معًا ومنحتهم السلاح الذي يعوزونه. وكانت الاشتراكية هي الأرض التي وجدوا عليها بعضهم بعضًا.

لم يكن أصحاب الأعمال أو الصناعيين أو العمال أو النقابات العمالية أو بقايا الطبقة الأرستقراطية الإقطاعية هم من بدأوا التمرد ضد الحرية والمطالبة بعودة الدولة المطلقة، بل كان المفكرون. كان هؤلاء أوصياء العقل المزعومون الذين أعادوا البشرية إلى حكم القوة الغاشمة.

عملت الثورة الصناعية المضادة، مع نموّها طوال فترة القرن التاسع عشر بعد أن نشأت في الصالونات الفكرية ومقاهي الأرصفة وأقباء الحانات المتواضعة وقاعات الدراسة الجامعية وأُديرت منها، على توحيد الحالمين والأتيليين معًا. وطالبوا بالحق في فرض الأفكار إلى حد استخدام السلاح، أي من خلال سلطة الحكومة، وإرغام الآخرين على الخضوع لآراء ورغبات أولئك الذين سيسطرون على الجهاز الحكومي. وامتدحوا «الدولة» على أنها «مثال للفضيلة» مَع البشر كعبيدها اليائسين. كما اقترحوا العديد من التغييرات التي تُطبق على الدولة الاشتراكية كما كان الحال مع الأخلاق الغيرية. ولكن في كلتا الحالتين، لم تُمس هذه التغييرات إلا السطح، في حين ظل الجوهر الوحشي كما هو، وهو أن الاشتراكية مذهب ينفي عن الإنسان حقه في الوجود من أجل مصلحته، وينص على أن حياة الإنسان وعمله لا ينتميان إليه، وإنما إلى المجتمع، وأن المبرر الوحيد لوجوده هو خدمة المجتمع، وأن المجتمع يمكن أن يتصرف فيه بأي شكل من الأشكال من أجل كل ما يراه أنه صالح جماعي قبلي.

إن العقلية ذات النزعة الأتيلية والبراغماتية والوضعية والمناهضة للمستوى المفاهيمي للوعي- التي لا تمنح الصلاحية للتجريدات، ولا قيمة للمبادئ، ولا سلطة للأفكار- هي الوحيدة التي ما يزال بوسعها أن تتساءل لماذا تفضي ممارسة مذهب نظري من هذا النوع في الواقع إلى سيل من الدماء والرعب الغاشم غير الإنساني الذي تتسم به المجتمعات الاشتراكية مثل ألمانيا النازية وروسيا السوفيتية. ووحدها العقلية ذات النزعة الأتيلية التي ما يزال بوسعها أن تدّعي أن لا أحد يستطيع أن يثبت أن هذه النتائج ضرورية الحدوث، أو تحاول إلقاء اللوم على «النقص» في الطبيعة البشرية أو على شر جماعة معينة «خانت مثل أعلى نبيل»، وهي التي ما تزال تتعهد بأن جماعتها ستحسن فعل الأمور وإنجاحها، أو ما تزال تغمغم بصوت مرتعش بأن الدافع هو حب الإنسانية.

ورغم أنّ المزاعم والذرائع قد بلغها الوهن، ولم تعد عمليات التهرب والتملص تجدي نفعًا، وغدا المفكرون مدركين بذنبهم، لكنهم ما يزالون يسعون جاهدين إلى التهرب من سبب هذا الذنب وتمريره إلى الكون بأسره، إلى العجز الميتافيزيقي للإنسان المحتوم والمقدّر سلفًا.

إن الشعور بالذنب والخوف هما ما يفسدان وعي الإنسان أو ثقافة المجتمع. واليوم تهوي الثقافة الأميركية نحو السقوط بفعل ثلاثة أحكام تتغلغل في جونا الفكري والتي تُعدُّ أفعالًا نموذجية للشعور بالذنب: لا تنظر، لا تحكم، لا تكن متيقنًا.

والمعنى والتطبيق الأبستمولوجي النفسي لهذه الأحكام الثلاثة يتمثل في: لا تفكّر، لا تقيّم، استسلم.

اتخذ المذهب «الأتيلي» موقفه الدفاعي الأخير، في كل من الفلسفة والعلم، من التأكيد المتضافر لجميع الباطنيين الجدد على أن دمج المعرفة أمر مستحيل وغير علمي. والآن، بلغ الهروب من المستوى المفاهيمي للوعي والتقليص التدريجي لبصيرة لإنسان إلى حدود بصيرة «أتيلا» ذروته القصوى. حيث ينادي الباطنيّون الجدد، منسحبين من الواقع والمسؤولية، بأنه لا توجد كيانات مستقلة، ولا توجد سوى علاقات، وأنه يمكن للمرء أن يدرس العلاقات دون أي شيء لربطها، وفي الوقت نفسه، أن كل مُعطى هو مفرد ومنفصل، ولا يمكن لأي مُعطى أن يرتبط بأي مُعطى آخر، وذلك لأن السياق ليس له صلة، وأن أي شيء يمكن إثباته أو دحضه في منتصف الطريق ووسطه، وكلما كان موضوع الدراسة أضيق كان ذلك أفضل، على أن قصر النظر هو السمة المميزة للمفكّر أو العالم.

استنكر جميع الأتيليين «بناء النظام المعرفي» - أي دمج المعرفة في مجمل مترابط وفي رؤية متسقة مع الواقع- باعتباره أمرًا غير عقلاني وباطني وغير علمي. وهذه هي طريقة «أتيلا» الدائمة في الخضوع للـ «الحالم»، وهو ما يفسر أيضًا السبب الذي يجعل العديد من العلماء يتوجهون إلى الرب أو يتبعون مسالك باطنية وضعوها لأنفسهم والتي قد تجعل حتى «الحالم» القديم يخجل من عبثيتها.

يتعذر على أي وعي أن يقبل التفكك (عدم دمج المعرفة) على أنه حالة طبيعية ودائمة. فالعلم ولد كنتيجة للفلسفة، ويستحال عليه البقاء دون وجود قاعدة فلسفية (لا سيما من الناحية المعرفية) يستند عليها. فإذا قُدر وأن هُلكت الفلسفة، فإن العلم سيُكتب له نفس المصير.

يكاد يكون التنازل عن الفلسفة تنازلًا كاملًا. ويصرح فلاسفة اليوم، بما لديهم من نزعة «حالمة»، بأنه لا يمكن لأي شخص تحديد ماهية الفلسفة أو مهمتها المحددة، لكن هذا لا يستدعي منع أي شخص من ممارستها كمهنة. ويصرحون، بما لديهم من نزعة «أتيلية»، بأن استخدام التجريدات أو المفاهيم الواسعة هو حق مقصور على الشخص العادي أو الجاهل أو غير المختص، في حين أن الفيلسوف، العارف بكل الصعوبات التي تنطوي عليها عمليات التجريد، هو من يتعامل مع لا شيء سوى المحسوسات.

الحكم والأمر المتمثل في «لا تحكم» يُعد قمة الأخلاق الغيرية التي يمكن رؤيتها اليوم في جوهرها العاري. فعندما يلتمس الناس الغفران، الغفران الكوني وغير المُسمى عن شر مستتر، وعندما يبدون التسامح الفوري مع أي ذنب يُرتكب، ومع مرتكبي أي فظائع وحشية، مبتعدين وغير مباليين بالأجساد الملطخة بالدماء للضحايا والأبرياء، قد يرى المرء حينها الغاية الفعلية لمبدأ الغيرية والدافع ورائه والاستمالة النفسية المستخدمة فيه. وعندما يتوجه هؤلاء الأشخاص المتسامحون أنفسهم بكراهية محرِضة نحو أي

شخص ينطق بأحكام أخلاقية، وعندما ينادون بأن الشر الوحيد هو التصميم على محاربة الشر، قد يرى المرء حينها نوع الانعدام الأخلاقي الذي تقدمه الأخلاق الغيريّة.

وربما تكون أكثر المواقف جُبنًا هي تلك التي يعرب عنها الحكم المتمثل في «لا تكن متيقنًا». وكما عبر عنه العديد من المفكرين بصورة صريحة، هو الاقتراح الذي يشير إلى أنه إن كان لا أحد متيقن من أي شيء، وإن كان لا أحد يحمل أي قناعات راسخة، وإن كان الجميع على استعداد للإذعان لأي شخص آخر، فلن ينهض أي ديكتاتور بيننا وسوف ننجو من الدمار الذي يجتاح بقية العالم. وما هذا إلا صوت خفي للـ «الحالم» يعترف فيه بأنه يرى الدكتاتور، أي نوع «أتيلا»، إنسان ذو قوة واثقة وقناعة راسخة. لكن لا شيء سوى الذعر الأبستمولوجي النفسي يمكن أن يعمي مثل هؤلاء المفكرين عن حقيقة أن الدكتاتور مثله مثل أي معتد مجرم يهرب من أوّل دلالة على وجود مقاومة واثقة، وأنه لا يستطيع أن ينهض إلا في مجتمع من المتنازلين تمامًا الذين يتسم دفاعهم بالتردد والاهتزاز والإذعان، مجتمع يدعو المجرم لتولّي السلطة عليه، ويعميهم عن حقيقة أن مهمة مقاومة «أتيلا» لا يستطيع تحقيقها إلا الأشخاص أصحاب القناعة الراسخة واليقين الأخلاقي، وليس أولئك الدجاج الذين يدفنون رؤوسهم في الرمال (ونعتناهم بالدّجاج لأنّ حتى تشبيههم بالنعام كثير عليهم لأنها حيوانات ضخمة وذات خَطَر).

وتمهيدًا للطريق أمام «أتيلا»، ما زال المفكرون يرددون، ليس عن قناعة بعد الآن ولكن عن ظهر قلب، أن نمو سلطة الحكومة لا يُعد اقتصاصًا من الحرية، وأن مطالبة مجموعة ما بحصة لم يكتسبوها من دخل مجموعة أخرى هو ليس من الاشتراكية، وأن تدمير حقوق الملكية لن يؤثر على أي من الحقوق الأخرى، وأن عقل الإنسان وذكائه وقدرته الإبداعية هي «مورد وطني» (مثل المناجم والغابات والشلالات والمحميات والمتنزهات الوطنية) يحق للحكومة الاستحواذ عليه والتصرف فيه ودعمه ماليًا، وأن أصحاب الأعمال هم مستبدون أنانيون لأنهم يناضلون من أجل الحفاظ على الحرية، في حين أن «الليبراليين» هم الأبطال الحقيقيين للحرية لأنهم يقاتلون من أجل فرض المزيد من الضوابط الحكومية، وأن حقيقة أننا ننزلق إلى طريق قد دمر كل بلد آخر سلكه، لا تثبت أنه سيلحق ببلدنا نفس المصير، وأن الديكتاتورية ليست ديكتاتورية إذا لم يدعوها أحد بهذا الاسم المجرد، وأنه ليس في الأمر حيلة على أية حال.

لم يعد أحد يصدق أي من ذلك بعد الآن، ومع ذلك لا أحد يعارضه. ولمعارضة أي شيء يحتاج المرء إلى مجموعة ثابتة من المبادئ، وهو ما يعني نظام فلسفي.

إذا انهارت أميركا، فإنها انهيارها سيكون ناتج عن التخلف الفكري. وليس ثمة مؤامرة شيطانية وراء هذا، إذ لا يمكن لأي مؤامرة أن تكون كبيرة وقوية بما يكفي لفعل ذلك. وبالنسبة إلى

نظريات المؤامرة التي ينتقي أصحابها من الاشتراكية ما يروقهم فحسب والموجودة بالفعل، هي جماعات من متوسطي القدرة المذعورين والمضطربين الذين يجدون أنفسهم مدفوعين إلى تولي القيادة الوطنية، وذلك لأن لا أحد آخر يتقدم إلى الأمام. فهم مثل النشالين الذين كانت تقتصر نيّتهم على انتزاع نظام اجتماعي واحد أو اثنين ويجدون فجأة أن ضحاياهم مغيبين، وأنهم وحدهم في قصر ضخم من الثروة الهائلة مع كل الأبواب مفتوحة وبين أيديهم عمل السارق المتمرس لامتهانه، وشاهدهم الآن يصرخون أنهم لم يقصدوا ذلك، وأنهم لم يدعُ قط إلى تأميم اقتصاد البلد. أما المتآمرون الشيوعيون في خدمة روسيا السوفيتية، فهم أفضل مثالًا على الانتصار من خلال فعل التخلف الفكري: فنجاحاتهم تُسلّم إليهم من خلال التنازلات التي يقدمها لهم ضحاياهم. في أمريكا لا توجد حركة وطنية للاشتراكية أو الديكتاتورية، ولا يوجد «فارس على صهوة جواد» أو زعيم غوغائي شعبي، لا يوجد سوى المتنازلين المتلعثمين والانتهازيين الخائفين. ومع ذلك، فإننا نتحرك نحو نظام اشتراكي كامل واستبدادي، مع أصوات مبتذلة ومتهكمة تخبرنا أن هذا اتجاه تاريخي يتعذر أن نقاوم الانخراط فيه. بيد أنّ التاريخ والمصير والتآمر الخبيث جميعها أمور أسهل للتصديق من الحقيقة الفعلية: وهي أننا لا نتحرك سوى بفعل حالة القصور والفتور البطيء التي تصيب العقول المشتتة.

إنّ «النّزعة الجماعيّة» بوصفها نموذج اجتماعي أعلى قد انتهت.

لكن النظام الرأسمالي لم يُكتشف بعد. وذلك أنه يستحال اكتشافه باتباع الأبستمولوجيا النفسية للـ «الحالم» و«أتيلا». وفي حال صاحب الأعمال، فإنه يسعى جاهدًا لنسيان أنه عرف هذا النظام يومًا ما، وهذا هو ذنبه.

كان صاحب الأعمال في بداية مسيرته التاريخية ضحيةً للمفكرين، ولكن لا يمكن لأي ظلم أو استغلال أن يستمر لفترة طويلة دون موافقة الضحية. ارتكب صاحب الأعمال، الذي أبى أن يقبل القيادة الفكرية للـ «الحالمين» الذين أتوا بعد كانط، خطأً فادحًا عندما تنازل عن مجال الفكر لصالح المفكرين. فقد أحسن الظن بهم على حساب مصلحتهم الخاصة، وخلص إلى أن إسهابهم الفارغ قد لا يكون على نفس القدر من السوء الذي بدا له، وأنه يفتقر إلى الفهم وليس لديه الشجاعة لمحاولة فهم هذا النوع من الأمور وسيصرف ذهنه عنها بطريقة لائقة. وهو تنازل أنّى لأي «حالم» آخر أن يتخيل الحصول على واحد أكثر مصيرية منه.

لقد تبوأ صاحب الأعمال لنفسه منصب «أتيلا» من خلال تحوله إلى مناهض للفكّر. واضطر إلى أن يقصر اهتماماته على النطاق الضيق «لأتيلا» المتمثل في الأشياء المادية والملموسة واللحظة الحاضرة الآنية بسبب إقدامه على تقييد أهدافه وشؤونه ورؤيته حصرًا على نشاطه الإنتاجي. وهكذا فقد قسم نفسه إلى شقين جراء ما يساوره من تناقض داخلي: فعمل على مستوى عقلاني وراسخ ومفاهيمي من الأبستمولوجيا النفسية في مجال الأعمال، ولكنه قمع

كافة الجوانب الأخرى من حياته وفكره، مسلمًا نفسه لحكم التيار الثقافي العام، ومبقيًا نفسه في حالة الارتباك وشبه التشتت التي يخلقها المستوى الإدراكي الحسي لإنسان يعد نفسه عاجزًا عن الحكم على ما يراه. وبهذا، كثيرًا من الأحيان ما تحول صاحب الأعمال إلى ظاهرة مأساوية لشخص نابغ في مجال الأعمال و«بابيت»[12] في حياته الخاصة.

لقد قمع ونبذ أي اهتمام بالأفكار، وأي مسعى نحو القيم الفكرية أو المبادئ الأخلاقية. ولم يستطع قبول الأخلاق الغيرية، كما لا يستطيع أي إنسان آخر يتمتع بتقدير الذات أن يقبلها، لكنه لم يجد أمامه أي نظام فلسفي أخلاقي آخر. لقد عاش وفق قانون ذاتي وضعه بنفسه- قانون العدل والتاجر العادل- دون أن يدرك الفضيلة الأخلاقية السامية التي يمثلها هذا القانون. إن طريقة فهم صاحب الأعمال لمذهب الغيرية أو النسخة التي تبناها لنفسه- لا سيما في أميركا- اتخذت شكل كرم هائل، كرم صادر عن ابتهاج وبراءة وخيريّة إنسان واثقًا بذاته، والذي كان على قدر كبير من البراءة وسلامة النية بحيث لم يساوره أي شك في أنه كان مبغوضًا بسبب نجاحه، وأن أنصار الغيرية يريدونه أن يدفع جزية مالية، ليس من باب الإحسان، بل كتكفير عن ذنب نجاحه. نعم كانت هناك استثناءات، وهم أصحاب الأعمال الذين قبلوا المعنى

---

(12) جاءت هذه التسمية من"جورج بابيت" الشخصية الرئيسة لرواية سنكلير لويس الساخرة "بابيت". والتي تُستخدم للدلالة على شخص مادي وضيق التفكير وتقليدي يتمحور اهتمامه حول قيم الطبقة الوسطى والأعمال التجارية والنجاح الاجتماعي.(المترجم)

الفلسفي الكامل للغيرية وما تلقيه على كاهلهم من عبء الشعور القبيح بالذنب، لكنهم لم يكونوا الأغلبية.

واليوم هم يمثلون الأغلبية. ليس بوسع إنسان أو مجموعة من الأشخاص أن يعيشوا تحت وطأة الظلم الأخلاقي إلى أجل غير مسمى، فعليهم إما أن يثوروا أو يستسلموا. لكن معظم أصحاب الأعمال استسلموا؛ كان ليتطلب الأمر تدخل فيلسوف وتزويدهم بأسلحة التمرد الفكرية، لكنهم تخلوا عن أي اهتمام بالفلسفة. لقد ارتضوا بعبء ذنب غير مرتكب؛ وارتضوا وصفهم بـ «الماديين المبتذلين»، وقبلوا الاتهامات الموجهة إليهم بـ«الشره والجشع»، الشره في الثروة التي خلقوها، والجشع في جمع الثروات التي لم تكن لتكون موجودة إلا لهم. ونتيجة لذلك، سيقوا بوعي أو دون وعي إلى حالة من المرارة الساخرة النابعة عن قناعة بأن البشر غير عقلانيين، وأن العقل عقيم في العلاقات الإنسانية، وأن مجال الأفكار ما هو إلا احتيال خبيث ومبهم وجسيم.

لا يمكن لأحد يتمتع بعتاد نفسي منيع أن يرتضي بوقع ذنب لم يرتكبه. مع ابتداء أصحاب الأعمال مسيرتهم كأكثر فئة إنسانية شجاعة في التاريخ، إلا أنهم انزلقوا ببطء نحو وضع أشخاص يحركهم دافع الخوف المزمن، في جميع الجوانب الاجتماعية والسياسية والأخلاقية والفكرية لوجودهم. حيث أصبحت تقوم سياستهم العامة على استرضاء ألد أعدائهم، واسترضاء أكثر مهاجميهم وضاعة، ومحاولة التصالح مع مدمريهم، وضخ الأموال

لدعم المنشورات اليسارية والساسة «الليبراليين»، ووضع أشخاص ذو «نزعة جماعية صريحة» مسؤولين عن علاقاتهم العامة، ومن ثم الإعراب- عبر الخطابات الملقاة في الولائم الرسمية والإعلانات ذات الصفحات الكاملة- عن اعتراضات اشتراكية مفادها أن الخدمة الإيثارية للمجتمع هي هدفهم الوحيد، واعتذارات غيرية عن حقيقة أنهم ما يزالون يبقون لأنفسهم اثنين أو ثلاثة بالمائة من أرباح مؤسساتهم التي تبلغ قيمتها عدة ملايين من الدولارات.

هناك العديد من الدوافع المختلفة وراء اتباع هذه السياسة. فبعض الأشخاص يحركهم الشعور الفعلي بالذنب: إنهم النوع الجديد من أصحاب الأعمال، وهم نتاج اقتصاد «مختلط» والذين يصنعون الثروات، ليس من خلال القدرة الإنتاجية والمنافسة في السوق الحرة، ولكن- من خلال الدعم السياسي والخدمات والإعانات والإعفاءات والامتيازات الخاصة التي تقدمها الحكومة؛ وهؤلاء أقرب إلى «أتيلا» من «المنتج» من الناحية الأبستمولوجية النفسية والاقتصادية، ولديهم سبب وجيه للشعور بالذنب. بينما يُجبر البعض الآخر على مضض على اتخاذ موقف مختلط، حيثما يزالون يعيشون وفق قدرتهم الإنتاجية لكن مع ذلك يتعين عليهم الاعتماد على الامتيازات الحكومية حتى يتسنى لهم أداء عملهم؛ وهؤلاء ما يكونون أقرب إلى هدم أنفسهم ذاتيًا. لكن السواد الأعظم من أصحاب الأعمال- ربما الأفضل مقدرة

ومنزلة- يعملون بصمت ولا يُسمع عنهم أبدًا. ويرجع هذا على الأرجح إلى أن معظم أصحاب الأعمال تخلوا عن انتظارهم لأي عدالة من الملأ. لكن ثمة دافع واحد يشترك فيه الكثير من أصحاب الأعمال وهو عقوبة نبذ الفكر، والمتمثل في الشعور بخوف مستتر من الأفكار في ظل قناعة معلنة بأن الأفكار لا طائل منها، مما يؤدي إلى ممارسة فعل التملص باضطراب وتعنت، والشعور بالقلق أو الأمل في أن الثروة في حد ذاتها هي القوة، وأن الممتلكات المادية وحدها هي ما تحظى بأهمية عملية.

اليوم، يواجه صاحب الأعمال والمفكر بعضهما بعضًا بخوف متبادل وازدراء متبادل كالذي اتسمت به العلاقة بين «أتيلا» و«الحالم». حيث فقد صاحب الأعمال الثقة في جميع النظريات، ويعمل وفق ما تقتضيه اللحظة، غير قادر على النظر إلى المستقبل. وأبعد المفكر نفسه عن الواقع مكتفيًا بلعبة كلمات تافهة يطبقها على الأفكار، غير قادر على النظر إلى الماضي. ينظر صاحب الأعمال إلى المفكر على أنه شخص غير عملي، وينظر المفكر إلى صاحب الأعمال على أنه شخص غير أخلاقي. ولكن سرًّا، يؤمن كل منهما أن الآخر لديه ملكة غامضة يفتقر إليها، وأن الآخر هو سيد الواقع الحقيقي، والممثل الحقيقي لسلطة التعامل مع الوجود.

إنَّ هذا الموقف المتبادل والمنطلقات الفلسفية التي أتت منه هما ما أوصلا أصحاب الأعمال والمفكرين إلى تدمير بعضهم بعضًا. لكن النصيب الأعظم من الذنب يعود إلى المفكر، فقيادة الفلسفة كانت

مهمة تقع على عاتقه لكنه خانها، والآن هي متروكة بين ألهبة النيران.

ما يمثل المشهد الأكثر مفارقة تاريخيًا ورجعية على نحو بشع هو مشهد المفكرين المعاصرين الذين يعلون الصوت البدائي لـ «الحالم»، والذين في خضم الحضارة الصناعية يندبون ندبًا لا رجاء فيه على شقاء الحياة على الأرض، وفساد الإنسان، وقصور عقله، والسوقية الوضيعة للمساعي المادية، ويشيدون بنبالة السعي وراء الأمور الغيبية.

ومن استجاب لندائهم هم أصوات «الحالمين» الأصليين للعصور الوسطى التي عادت لتُسمع مرة أخرى، والذين على أثر ذلك أخذوا ينادون بمذهب العجز الفطري المقدّر ومذهب الإذعان والامتثال والخضوع والاستسلام- هنا في مدينة نيويورك التي تشكل أعظم نموذج على نفوذ عقل الإنسان- ويعلنون أن جميع الكوارث في العصر الحديث هي جزاء البشر على اعتزازهم بعقل الإنسان وعلى محاولتهم لتحسين أحوالهم وتأسيس مجتمع عقلاني، وعلى محاولتهم لتحقيق طريقة مثالية للعيش على وجه الأرض.

في حلقة نقاش تلفزيوني أُجريت مؤخرًا، طُلب من مفكّر محافظ مزعوم تحديد الفارق بين «المحافظ» و«الليبرالي». والذي أجاب بدوره أن «الليبرالي» هو من لا يؤمن بـ «الخطيئة الأصلية» لخروج آدم من الجنة، مما جعل المفكّر الليبرالي يرد بعجالة: «أوه بلا، نحن

نؤمن بذلك!»، لكنه ألحق مضيفًا أن الليبراليين يؤمنون أن بمقدورهم تحسين حياة الإنسان قليلًا.

وهذا هو إفلاس الثقافة.

ففي خضم هذا الفراغ المعتم والموحش ينبغي للمفكرين الجدد أن يتقدموا إلى الأمام وأن يتصدوا لأولئك الذين يقدسون المعاناة والإذعان والموت، بموقف يمكن أن يُعبر عنه بصورة أفضل إن أعدنا صياغة تحية قديمة لتصبح على هذا النحو: «نحن الذين لسنا على وشك الموت...».

من هو المفكّر؟ أي رجل أو امرأة تتملكه رغبة التفكير. كل أولئك الذين يعلمون أن حياة الإنسان ما تُهتدى إلا بالعقل، وأولئك الذين يثمنون حياتهم ويأبون أن يسلموها إلى سلطة اليأس التي يفرضها النظام الغابي الحديث للمذهب الكلبي[13] الذي ينص على عجز الإنسان ونقصه المطلق، تمامًا مثلما يأبون أن يسلموا العالم إلى حكم القوة الغاشمة وإعادته إلى العصور المظلمة.

لم يعظم مقدار الحاجة إلى الزعامة الفكرية من قبل كما هو الحال الآن. ما من إنسان لديه مقدار زهيد من الشعور بقيمة الذات مستعدًا للتخلي عن حياته دون أن يحرك يده، أو عقله، للدفاع عنها، لا سيما في أميركا، البلد القائم على منطلق اعتماد الإنسان على نفسه

(13) عُرفت آين راند بانتقادها الشديد للنزعة الكلبيّة (أو التشاؤمية) التي وصفتها في كتاباتها بأنها ساذجة. ومما يجدر الإشارة به هنا هو أن مفهوم الكلبيّة طرأ عليه التغيير في القرن التاسع عشر ليدل على الاتصاف بالسلبية الشديدة والإحباط واليأس وغياب الثقة تجاه دوافع الآخرين وتجاه نواحي أخرى من المجتمع. (المترجم)

وتقديره لذاته. لقد عرف الأميركيون كيف يقيمون إنجازًا ماديًا هائلًا في قلب أرض معزولة لم تمتد إليها يد بشر من قبل، وفي وجه القبائل البدائية الهمجية. وما نحتاجه اليوم هو إقامة ما يقابل هذا الإنجاز المادي من بنية فلسفية تجعل استمرار ازدهاره أمرًا ممكنًا. لا يمكن لناطحة السحاب أن تُشيد على براميل المفرقعات، ولا بالاعتماد على الشعارات الجدارية، ولا على إعلانات الصفحات الكاملة، ولا على الصلوات والعبادات، ولا على اللغة المترّفعة. إن الأرض المعزولة الجديدة التي يجب استصلاحها هي الفلسفة، والتي أصبحت الآن مهجورة تمامًا، مع عودة نمو الأعشاب الضارة لمذاهب ما قبل التاريخ لابتلاع ما تبقى من أطلال الفلسفة. في سبيل دعم ثقافة ما، فإن أقل ما يمكن فعله هو بناء أساس فلسفي جديد. والوضع الراهن للعالم ليس برهانًا على عجز الفلسفة وإنما برهانًا على مدى قوّتها. إنها الفلسفة التي أودت بالبشر إلى هذا الحال، والفلسفة وحدها هي التي تستطيع أن تخرجهم منها.

إن أولئك الذين بإمكانهم أن يصبحوا المفكرين الجدد هم أصول أمريكا المخبأة، وعلى الأرجح أن عددهم أكبر مما يستطيع أي شخص أن يقدّره، وهم موجودون في كل مهنة حرة، حتى بين المفكرين الحاليين. لكنهم مبعثرين في عجز صامت في كافة أنحاء البلاد، أو مخفيين في ذلك السرداب الذي غالبًا ما أبتلع خلال تاريخ البشرية أفضل إمكانية لدى الإنسان: النزعة الذاتية. هم

الأشخاص الذين فقدوا منذ أمد بعيد احترامهم للمعايير الثقافية التي يتوافقون معها، والذين يخفون قناعاتهم أو يكبتون أفكارهم أو يقمعون عقولهم. وكل واحد منهم يشعر أنه خاسر أمام الآخرين، وكل واحد منهم يقوم بدور الضحية والمعتد على حد سواء. سيكون المفكرون الحداثيين أولئك الذين سيخرجون إلى العلن ويتحلون بالشجاعة الكافية لكسر هذه الحلقة المفرغة.

إذا نظر هؤلاء إلى حال ثقافتنا، فسيرون أن هذا العرض البائس بأكمله لا يبقيه مستمرًا سوى الرتابة والتظاهر الذي يخفي وراءه الحيرة والخوف. فلا أحد يجرؤ على اتخاذ الخطوة الأولى الجديدة، والجميع ينتظر مبادرة جاره. إذا وصل المجتمع إلى المرحلة التي يرتضي فيها كل فرد الشعور بأنه «غريب وخائف في عالم لم يكن له أبدًا يد في صنعه»، فإن هذا العالم الذي سيُتخلى عنه سيكون من صنع إنسان «أتيلا». وأكثر ما تمس إليه الحاجة اليوم هو أشخاص ليسوا غرباء عن الواقع، بسبب أنهم لا يهابون الفكّر. سيكون المفكرون الحداثيين هم أولئك الذين سيتولون زمام المبادرة والمسؤولية الفكرية، وسيعمدون إلى الوقوف على المنطلقات الفلسفية والتحقق منها، وتحديد قناعاتهم، ودمج أفكارهم في عمل متماسك ومتسق، ومن ثم تزويد البلاد برؤية للوجود يستطيع الحكيم والنزيه أن يقوّماها.

سيكون المفكر الحديث هو الإنسان الذي يرتقي إلى المعنى الدقيق للقبه: إنسان يسترشد بعقله، وليس مُغيبا ذهنيًا يسترشد

بمشاعره أو غرائزه أو رغباته أو أمنياته أو أهوائه أو ما ينزل عليه من إلهام. عند إنهاء حكم «أتيلا» و«الحالم»، سيتخلص المفكر الحديث من المنطلق الأساسي الذي جعل وجودهما ممكنًا: منطلق الفصل بين الجسد والروح. وسيتخلص مما أنطوى على هذا المنطلق من صراعات وتناقضات غير عقلانية، من قبيل وضع العقل في مقابل القلب، والفكر في مقابل الفعل، والواقع في مقابل الرغبة، والمحور العملي في مقابل المحور الأخلاقي. وسيصبح إنسانًا متكاملًا، أي مفكّرًا ذو أفعال. وسيدرك أن الأفكار المنفصلة عن الأفعال التي تترتب عليها هي أفكار مزيفة، وأن الأفعال المنفصلة عن الأفكار هي ضرب من الانتحار. وسيدرك أن المستوى المفاهيمي للأبستمولوجيا النفسية- المستوى الإرادي في العقل والفكّر- هو ضرورة أساسية لبقاء الإنسان على قيد الحياة وفضيلته الأخلاقية العظمى. وسيدرك أن البشر يحتاجون الفلسفة لغاية العيش على وجه البسيطة.

سيكون المفكّر الحديث بمثابة لمّ شمل لثنائي ما كان يجب أن ينفصلا على الإطلاق: المفكّر وصاحب الأعمال. وقد يظهر من بين صفوة الناس- أكثرهم عقلانية- الذين ربما ما يزالون موجودين في كلا الفريقين. وبدلًا من «الحالم» المُكره و«أتيلا» المتردد، سيتمخض عن لمّ الشمل نوعان جديدان من الأشخاص: المفكّر العملي وصاحب الأعمال الفلسفي.

على الصفوة من المفكرين الحاليين أن يضعوا في الحسبان القوة

الهائلة التي بين أيديهم، غير أنهم لم يحدث وأن مارسوها أو فهموها بصورة كاملة على الإطلاق. وإذا شعر أي شخص من بينهم أنه رّبيب عاجز وغير نافع لثقافة «مادية» لا تمنحه الثروة ولا التقدير، دعونا نذكره بمعنى لقبه: وهي أن قوته تكمن في عقله وليس مشاعره أو عواطفه أو نواياه. ليس أصحاب الأعمال هم من سلبوا منه قيمته ومنفعته، وإنما زملاءه الذين حطوا من مهنته إلى مستوى العرافين وقارئي أوراق الشاي والوسطاء الروحانيون الغابيون. لندعه ينفصل عن الباطنيين الجدد، ويدرك أن الأفكار ليست هروبًا من الواقع، وليست هواية للمضطربين «اللامباليين» الساكنين في صروح من العاج، بل هي القوة الأكثر حسمًا وعمليةً في الوجود البشري. ومن ثم ندعه يصبح قائدًا فكريًا يتولى المسؤولية الكاملة عن النتائج العملية المترتبة على نظرياته.

وعلى الصفوة من أصحاب الأعمال أن يضعوا في الحسبان وظيفة الثروة، وأن يدركوا أن المحرك الحقيقي وراء الشر المبهم الذي أُطلق الآن بحقهم هم سببه. فالثروة بحد ذاتها ليست سوى أداة، وعندما يتخلى صاحب الأعمال عن فكره فإنه بذلك يضع ثروته في خدمة من يدمرونه، والذين بدورهم لا يعملون على تأميم ممتلكاته، لأنهم أمموا عقله منذ زمن طويل. ولندعه الآن يدرك أن الفعل العملي في غياب قاعدة نظرية يستند إليها سيحقق نقيض أهدافه، وأن التخلي عن المسؤولية الفكرية ليست طريقة مجدية للهروب من أعدائه. وبعدها ندعه يكتشف وظيفة الفلسفة.

عوضًا عن إقامة برامج «التبادل الطلابي» السخيفة بين أمريكا وروسيا السوفيتية لتحقيق الغرض المزعوم المتمثل في «اكتساب فهم متبادل»، يُستحسن أن يكون هناك برنامج طوعي خاص «للتبادل الطلابي» بين المفكرين وأصحاب الأعمال، الجماعتان الأكثر احتياجًا لبعضهما بعضًا، ومع ذلك يفهمان ويعرفان القليل عن بعضهما مقارنةً بمعرفتهم بأي مجتمع غريب آخر في أي ركن بعيد من أركان المعمورة. إنَّ أصحاب الأعمال بحاجة اكتشاف الفكر؛ والمفكّرون بحاجة اكتشاف الواقع. لذلك لندع المفكرين يفهمون طبيعة السوق الحرة ووظيفتها من أجل أن يتمكنوا من تزويد أصحاب الأعمال، فضلًا عن عامة الناس، بإطار نظري توجيهي واضح لكيفية التعامل مع الأفراد والمجتمع والسياسة والاقتصاد. ولندع أصحاب الأعمال في المقابل يتعلمون المسائل والمبادئ الأساسية للفلسفة من أجل معرفة كيفية تقييم الأفكار، ومن ثم ندعهم يتولون كامل المسؤولية عن نوع الأيديولوجيات التي يختارون تمويلها ودعمها.

لندع كلاهما يكتشف طبيعة الرأسمالية ونظريتها وتاريخها الفعلي؛ فكلا الجماعتين يجهلون هذه الأمور بنفس القدر. وما من موضوع آخر يطمسه الكثير من التشوّهات والمفاهيم الخاطئة والمغالطات والتزييف مثلما هو الحال مع الرأسمالية. ولندعهم يدرسون الحقائق التاريخية ويكتشفون أن كل الشرور التي نُسبت شعبيًا إلى الرأسمالية كان السبب ورائها وما جعلها ممكنة وحتمية هو فرض الضوابط

الحكومية على الاقتصاد. وكلما سمعوا الأصوات المستهجنة للرأسمالية، سمحنا لهم بأن يتبينوا الحقائق ويكتشفوا أيًا من المبدأين السياسيين المتضادين- التجارة الحرة أو التدخل الحكومي- كان مسؤولًا عن الشرور المزعومة. وعندما يسمعون أن الرأسمالية قد أتيحت لها فرصتها وفشلت، لنذكرهم أن ما فشل في نهاية المطاف هو الاقتصاد «المختلط»، وأن التدخل الحكومي كان السبب وراء الفشل، وأن السبيل إلى إنقاذ بلد ما لا يتم بإسقائها كأسًا كاملاً من السمّ «الخالص» الذي يتسبب في قتلها.

كان الآباء المؤسسون لأميركا هم أول المفكرين فيها وآخرهم حتى الآن. والمسار السياسي الأساسي الذي وضعوه هو ما يتعين على المفكرين الجدد أن يستمروا فيه. لكن اليوم يضيع هذا المسار تحت طبقات من التملصات والمراوغات والأكاذيب المحضة. حيث يدعي أصحاب النزعة «الحالمة» اليوم أن المنطلق الأساسي الذي تبناه الآباء المؤسسين كان يتلخص في الإيمان والامتثال للتقاليد دون سؤال. ويدّعي أصحاب النزعة «الأتيلية» اليوم أن المنطلق الأساسي كان يتلخص في تبعية الفرد للجماعة والتضحية بنفسه من أجل المصلحة العامة. لكن يتعين على المفكرين الجدد تذكير العالم بأن المنطلق الأساسي الذي تبناه الآباء المؤسسين كان يتلخص في حق الإنسان في حياته وحريته والسعي وراء سعادته، وهو ما يعني حق الإنسان في العيش من أجل مصلحته، ولا أن يضحي بنفسه للآخرين أو يضحي بالآخرين من أجل نفسه، وأن

التطبيق السياسي لهذا الحق يتمثل في إقامة مجتمع يتعامل فيه الأشخاص فيما بينهم كتجار من خلال التبادل الطوعي للمنفعة المتبادلة.

إن المنطلقات الأخلاقية المضّمنة في الفلسفة السياسية للآباء المؤسسين، وفي النظام الاجتماعي الذي أنشأوه، وفي اقتصاديات الرأسمالية، لابد الآن من الاعتراف بها وقبولها في شكل فلسفة أخلاقية صريحة. ذلك أن ما هو ضمني وليس صريحًا لا يقع تحت السيطرة الواعية للأشخاص؛ حيث يمكن أن يخسروه عن طريق مضامين أخرى، دون معرفة ما الذي يخسرونه أو متى أو لماذا. لقد كانت الأخلاق الغيريّة هي التي قوضت قوة أمريكا وتقومُ بتدميرها الآن. وبل منذ بدايتها تعرضت أمريكا للتمزق بسبب اصطدام نظامها السياسي بالأخلاق الغيريّة. حيث أن الرأسمالية والغيرية مذهبين متناقضين؛ فهما أضداد فلسفية لا يمكنهما التعايش معًا في نفس المجتمع أو في نفس الإنسان. واليوم، وصل الصراع إلى ذروته القصوى، وأصبح الخيار جليًّا وواضحًا: إما نظام أخلاقي جديد يقوم على المصلحة الذاتية العقلانية، مع تبعاته المتجسدة في الحرية والعدل والتقدم وسعادة الإنسان على الأرض، أو النظام الأخلاقي البدائي للغيّرية، مع تبعاته المتجسدة في العبودية والقوة الغاشمة وحالة الذعر الراكدة والقرابين البشرية.

إن الأزمة التي يشهدها العالم اليوم هي أزمة أخلاقية، ولا يمكن حلها إلا بثورة أخلاقية: ثورة أخلاقية تقرّ الإنجاز السياسي للثورة

الأميركية وتتممه. لن تجدي التملصات والمراوغات والاعتذارات عن ارتكاب الذنب نفعًا بعد الآن. والظلم الشائن الذي يستدعي معاقبة الفضيلة لكونها فضيلة، والذي أرغم أصحاب الأعمال على الاعتذار عن قدراتهم ونجاحاتهم وإنجازاتهم، قد أُسقط الآن على نطاق عالمي وتُرجم إلى مشهد مشين، تقدم فيه أمريكا اعتذارها عن فضائلها وعظمتها إلى تلك المجزرة الدامية التي يخلفها مذهب الغيرية، وهي روسيا السوفييتية.

يتعين على المفكرين الحداثيين أن يناضلوا من أجل الرأسمالية، ليس بصفتها قضية «عملية»، وليس قضية اقتصادية، وإنما قضية أخلاقية، بل وأن يناضلوا من أجلها بأكبر قدر من الاعتزاز القويم. هذا ما تستحقه الرأسمالية ولن ينقذها ما هو أقل وأدنى.

ينبغي على المفكرين الحداثيين أن يضطلعوا بمهمة بناء ثقافة جديدة على أساس أخلاقي جديد، والتي للمرة الأولى لن تكون ثقافة «أتيلا» و«الحالم»، ولكن ثقافة «المنتج». وسيتحتم عليهم أن يكونوا «جذريين» (راديكاليين) بالمعنى الحرفي والشائع للكلمة، فالـ «جذري» يعني «الجوهري». ويُعد ممثلي الفكر الأرثوذكسي التقليدي والراهن، «بابيتيون» اليوم، هم من أتباع المذهب الجماعيّ. لذا من المهم أن يدرك أولئك الذين يكترثون بشأن المستقبل، أولئك الذين على استعداد للنضال من أجل مجتمع مثالي، أن «الجذريين» الجدد هم محاربي الرأسمالية.

إنها ليست بمهمة هينة تتم بين عشية وضحاها، لكن يتمتع

المفكّرين الحداثيين بميزة نفيسة لا تقدر بثمن: وهو أن الواقع في صفهم. حيث أن الصعوبات التي ستعترض طريقهم لن تكون عوائق حجرية بل ضبابية ناتجة عن عدم مقاومة التفكك الفكّري الحاصل، والتي سيصعب عليهم من خلالها العثور على بعضهم بعضًا. ولن تبرز في طريقهم أي معارضة، بما أنه في هذا السياق سيتعين على الحركة المعارضة أن تمتلك في حوزتها أسلحة فكرية. أما بالنسبة إلى أعدائهم، فعليهم الامتثال لمصيرهم الذي ستحدّدهُ السماء.

إن عملية تحديد نظام فلسفي جديد للعيش وتقييمه وقبوله ودعمه هي عملية طويلة ومعقدة تستلزم التفكير والبَرهَنة والفهم التام والإقناع. ولكن ثمة مبدأين يمكن لجميع الأشخاص ذوي النزاهة الفكرية والنوايا الحسنة أن يتفقا عليه كـ «حد أدنى أساسي» وكشرط مسبق لأي نقاش أو تعاون أو تحرك نحو عصر النهضة الفكرية. إحدى هذين المبدأين هو معرفي والآخر أخلاقي، وهما ليسا من المسلمات البديهية، وإلى أن يثبتهما الإنسان لنفسه ويقبل بهما، فإنه ليس بوسعه خوض أي مناقشة فكرية. وهذان المبدآن هما:

أ) إنَّ العواطف ليست أدوات معرفية للإدراك.

ب) أنه لا يحق لأي إنسان الشروع في استخدام القوة البدنية ضد الآخرين.

أ. يمثل أول هذين المبدأين الرفض الأساسي للأبستمولوجيا

النفسية للـ «الحالم». وهو ما يعني أنه يتعين على المرء أن يميز بين أفكاره وعواطفه بكل وضوح ودقة. وليس لزومًا على المرء أن يتصف بالعلم الكلي حتى يمتلك المعرفة، وإنما عليه أن يعرف ما يعرفه، وأن يميزه عما يشعر به. كما لا يحتاج المرء نظامًا كاملًا من المعرفة الفلسفية من أجل أن يميز أحكامه الموضوعية عن مشاعره أو رغباته أو أمانيه أو مخاوفه. وأولئك الذي يزعمون أنهم لا يستطيعون فعل ذلك فهم إنما يعترفون بأنهم لم يتعلّموا قط كيفية استخدام عقولهم، وأنهم غير قادرين على فهم الواقع أو الحكم عليه أو تقييمه. قد تكون هذه مشكلة نفسية، ولكنها تغدو احتيالًا فكريًا عندما يدخل هؤلاء الأشخاص في نقاش فلسفي ويطالبون بالنظر في أفكارهم. إذ يُستحال حدوث نقاش أو تعاون أو اتفاق أو تفاهم بين الأشخاص الذين يستبدلون البرهان بالعاطفة.

ب. يمثل المبدأ الثاني الرفض الأساسي للأبستمولوجيا النفسية لـ «أتيلا». فإن ادّعاء حق الشروع في استخدام القوة الجسدية ضد إنسان آخر، وحق انتزاع الموافقة عن طريق التهديد بالتدمير المادي، يجلي المرء تلقائيًا من عالم الحقوق والأخلاق والفكّر. ولعل أكثر ما خلّفته الغيرية قبحًا بين المفكرين المعاصرين هو قبولهم البديهي للقوة الغاشمة وتضحية المرء بنفسه كجزء طبيعي وضروري من المجتمع البشري، ورفضهم النظر في إمكانية التعايش والتعاون بين الأفراد بطريقة سلمية وطوعية وغير فدائية. لاحظ أنه ليس بوسعهم التفكّير في «الأنانية» إلا من ناحية التضحية بالآخرين من

أجل أنفسهم، ولا يتقبلون أي شخص لا يرى أن التضحية تصب في مصلحته. وهذا بالطبع اعتراف نفسي حول طبيعة رغباتهم وحول وجود النزعة «الأتيلية» في نفوسهم. وحينما يقولون إنهم لا يرون أي اختلاف بين السلطة الاقتصادية والسلطة السياسية- مما يدل على أنه لا فرق بين رب العمل والسارق، ولا فرق بين الولايات المتحدة وروسيا السوفيتية- فإنهم يعترفون بالخوف المقنط للـ «الحالم» من الواقع، والذي يجعلهم يساوون بين «المنتج» و«أتيلا».

قد يفترض المرء أن أي شخص يسند إلى نفسه لقب الأخلاقي أو الإنسانيّ أو المفكّر سيقضي حياته محاولًا ابتكار نظام اجتماعي – كنموذج أعلى- حيثما لا يجوز لأي إنسان أو جماعة من الأشخاص الشروع في استخدام القوة البدنية ضد الآخرين أو طلب التضحية بأي شخص من أجل- شخص آخر. ولكن عندما يتذكر المرء أن مثل هذا النظام قد أُبتكر سلفًا وكان موجودًا منذ أقل من مائة عام، سيعرف كيفية الحكم على الأنفس المتوحشة والبلطجية التي ترفض النظر في إمكانية وجوده.(14)

طالما أن الأشخاص يرون أن الشروع في استخدام القوة البدنية من جانب بعض الأشخاص ضد الآخرين هو جانب صحيح من

(14) إن الفوضى المعرفية التي تعم العالم اليوم تستدعي ضرورة التشديد على أن لدى الإنسان الحق والالتزام الأخلاقي بالدفاع عن النفس. أي الحق في استخدام القوة البدنية كرد انتقامي فقط وليس سوى ضد أولئك الذين يشرعون في استخدامها. وللحصول على مناقشة تفصيلية في هذا الصدد يمكنك الاطلاع على خطاب غالت في رواية "الأطلس متململاً"

مجتمع منظّم، فإن كل ما بوسعهم تحقيقه أو سيحققونه هو الكراهية والعنف والوحشية والتدمير والذبح وحرب العصابات الهمجية التي ترتكبها جماعة ضد أخرى. فعندما تكون القوة البدنية هي الحكم الفاصل، فإن الأشخاص يصبحون منساقين نحو ممارسة التواطؤ والتآمر والهجوم على بعضهم بعضًا من أجل أن يدمِروا قبل أن يُدمَروا، وأفاضل الناس يهلكون لكن «أتيلا» يصعد إلى القمة. قد يكون من المفهوم أن القبائل البدائية الهمجية لا تستطيع تصور أسلوب حياة لا يُلجأ فيه إلى العنف الجسدي، وأن الفوضى الدموية التي خلفتها الحروب القبلية كانت هي كل ما حققته، وأن أولئك الذين ظلوا على هذا المستوى ما زالوا يظهرون اليوم. ولكن عندما يقترح الأشخاص العيش في حضارة صناعية وفق المفاهيم الأخلاقية لأولئك الهمجيين القبابيين، مع وجود الصواريخ النووية والقنابل الهيدروجينية تحت تصرفهم، فإنهم يستحقون النكبات التي يبتغونها. فلا يجوز لأي إنسان أن يقف داعيًا للسلام وهو يقترح أو يؤيد أي نظام اجتماعي يدعم استخدام القوة البدنية ضد الأفراد بأي شكل من الأشكال. ولا يجوز لأي شخص أن يقف داعيًا للحرية وهو يطالب بالحق في إنشاء نسخته من مجتمع صالح حيثما يُقمع فيه الأفراد المنشقين باستخدام القوة البدنية. ولا يجوز لأي شخص أن يقف مفكرًا وهو يقترح ترقية المجرم إلى مركز السلطة النهائية فوق المفكّر، أو وهو يساوي بين قوة الإكراه البدني وقوة الإقناع، أو يساوي بين قوة العضلات وقوة الأفكار.

ليس بإمكان أي من دعاة العقل أن يدّعي حق فرض أفكاره على الآخرين. وليس بإمكان أي من دعاة حرية العقل أن يدّعي حق إكراه عقول الآخرين. فلا يمكن بناء مجتمع عقلاني، ولا تعاون، ولا اتفاق، ولا تفاهم، ولا نقاش بين الأفراد الذين يقترحون استبدال الإقناع العقلاني بالأسلحة والبنادق.

إن أراد الأفراد أصحاب النوايا الحسنة أن يتكاتفوا من أجل إقرار العقل وإقامة مجتمع عقلاني، فيجب أن يبدؤوا باحتذاء حذو رعاة البقر في الأفلام الغربية عندما يخبرهم الشريف عند باب غرفة الاجتماعات: «أيها السادة، دعوا أسلحتكم خارجًا».

وأولئك الذين سيقبلون «الحد الأدنى الأساسي» للحضارة، المبدأين المذكورين أعلاه، سيكونون قد خطوا الخطوة الأولى نحو بناء ثقافة جديدة في المساحات الواسعة من الفراغ الفكري السائد اليوم. وثمة شعار قديم ينطبق على وضعنا الراهن: «مات الملك، يعيش الملك!»، وبوسعنا أن نقول بنفس القدر من التفاني تجاه المستقبل: «مات المفكرون، يعيش المفكرون!»، ومن ثم نمضي نحو الوفاء بالمسؤولية التي كان يحملها هذا اللقب المشرّف ذات مرة.

نحن الأحياء

نُشرت هذه الرواية عام 1936 وأعيد نشرها عام 1959. ويدور موضوعها الرئيس حول «الفرد ضد الدولة»، والقيمة السامية لحياة الإنسان وشر الدولة الشمولية التي تدّعي حق التضحية بحيوات البشر. تدور أحداث القصة في روسيا السوفيتية. والمقتطف الوارد أدناه هو خطاب وجهته كيرا أرغونوفا إلى أندريه تاغانوف في السياق التالي: كانت كيرا تحظى بعلاقة غرامية مع أندريه في سبيل الحصول على المال لإنقاذ حياة الرجل الواقعة في حبه ليو كوفالنسكي. وكان قد بدأ أندريه، الشاب الشيوعي المثالي والمغرم بها بشدة، يكتشف أهمية القيم الشخصية عندما علم بحقيقة علاقة كيرا بكليهما، أثناء اعتقال ليو أثر ارتكابه جرمًا سياسيًّا.

«كلا، لم تكن تعلم. ولكن الأمر كان شديد البساطة، وليس بشديد الغرابة. زر العلاليّ والأقباء حيثما يعيش الأشخاص في مدنكم الحمراء وشاهد كم مكانًا طيبًّا للعيش مثل هذا تستطيع العثور عليه هناك. لقد أراد العيش. هل تعتقد أن كل ما يتنفس

بوسعه العيش؟ أعي أنك تعلمت ما يخالف ذلك. لكنه كان من أولئك الذين من الممكن أن يعيشوا. ولا يوجد الكثير منهم، لذا هم لا يشكلون أي أهمية لديك. قال الطبيب إنّه على وشك أن يلاقي منيته. وأنا امرأة واقعة في حبه. وحتمًا أنك تعلمت ما يعنيه هذا أيضًا، أليس كذلك؟ كان ليس بحاجة إلى الكثير. كان لا يحتاج إلا إلى الراحة والطعام والهواء النقي. ولم يكن لديه الحق في الحصول على هذا، أليس كذلك؟ هذا ما قالته دولتكم. لقد حاولنا أن نتوسل إليهم. وأخذنا نتوسل إليهم بتذلل. هل تعرف ما قالوه؟ كان يوجد طبيب في المستشفى وقال إن لديه المئات على قائمة انتظاره...

«كما ترى، لا بد أن تفهم هذا جيدًا وبعمق. لا أحد يفعل ذلك. ولم يلمح أحد هذا من قبل، لكنني فعلت، لم أستطع الامتناع عن النّظر، لقد فهمت الأمّر، ولا بد أن تفهمه أنت أيضًا. هل تفهمني؟ مئات، وألوف بل الملايين.. الملايين من ماذا؟ من البطون والرؤوس والسيقان والألسن والأرواح. ولا يهم إن كانت هذه الأشياء لا تتناسب مع بعضها البعض. فما هي إلا مجرد ملايين.. مجرد لحم، لحم بشري. التي سجلوها ورقّموها، كما تعلم، مثل علب طعام على رفوف المتاجر. وهنا يخطر ببالي ما إذا سجلوها على حسب الرطل أو شخص هذا الإنسان؟ لكن كانت لديهم فرصة المضي في العيش. وليس في حال ليو. فهو كان ليس إلا إنسانًا. لكنني أعرف أنك ترى جميع الحجارة حجارةً تصلح لرصف

الطرق، والماس تراه حجرًا كريمًا لكنّهُ عديم الفائدة. تصوّر أن ترصف الطريق بالألماس، سيصبح ذا بريق شديد تحت أشعة الشمس، وسيؤذي العيون بشدة، كما أن المشي عليه لن يكون مريحًا للقُطعان البشرية السائرة نحو مستقبل طبقة العمال. لذا أنت لا ترصف الطرق بالألماس، لكن قد يكون لهذه الأحجار الكريمة نفع آخر في هذ العالم لم تعلم به البتّة. وهذا هو حالك مع معادن الناس. لهذا حكمت على ليو بالموت، هو وآخرين من نفس معدنه، قتلتهم دون حتى الاستعانة بفصيل إعدام. كان ثمة مفوض كبير ذهبت لرؤيته. وأخبرني أن مائة ألف عامل قضوا نحبهم في الحرب الأهلية، لكن لماذا لم يحدث أن مات أرستقراطي واحد في مواجهة اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية؟ وما اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية في وجه إنسان واحد؟ ولكن هذا السؤال ليس موجهًا لك. وأشعر بالامتنان لذاك المفوض. لقد أذن لي بفعل ما فعلته. ولا أكرهه، لكن عليك أنت أن تكره. فما أفعله بك، قام هو به أولًا!».

«هذا هو السؤال كما تعلم، أليس كذلك؟ لم لا يموت أرستقراطي واحد في وجه اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية؟ أنت لا تفهم هذا، أليس كذلك؟ أنت ومفوضك العظيم وملايين آخرين مثلك ومثله. هذا هو ما أحضرتموه للعالم، أحضرتم هذا السؤال وإجابتكم عليه! إنها هبة عظيمة، أليس كذلك؟ لكن أحدكم دفع ثمن ذلك، فجعلتك تدفع ثمنه منك

وإليك، عن كل الحزن والأسى الذي أحضره رفاقك في الحزب إلى عالم الأحياء. كيف يبدو لك الأمر أيها الرفيق أندريه تاغانوف من الحزب الشيوعي السوفييتي؟ فإذا علّمتنا أن حياتنا كانت لا تساوي شيئًا قبل حياة الدولة، فهل يعني هذا إذن إنّك تعاني حقًا؟ إذا ما تسببتُ في إيقاعك في الجحيم الأخير من اليأس، لم لا تقول إذن إنّ حياة المرء لا تهم حقًا؟ هل أحببت امرأة وألقت حبك في وجهك؟ لكن المناجم البروليتارية في أحواض نهر دون باسن أنتجت مائة طن من الفحم الشهر الماضي! أكان لديك مذبحان وصدمتك رؤية منظر مومس وقفت على أحدهما والمواطن موروزوف على الآخر؟ لكن الدولة البروليتارية صدّرت عشرة آلاف مكيال من القمح الشهر الماضي! هل سُلب منك نور الحب من حياتك؟ لكن الجمهورية البروليتارية تبني محطة كهربائية جديدة على نهر الفولغا! لم لا تبتسم وتنشد ترانيم تشيد بها الكدح «الجماعيّ»؟ إنّها ما تزال هناك، جماعتك، اذهب وانضم إليها. هل أنت تعاني حقًا؟ إنها ليست سوى مشكلة شخصية في حياتك الخاصة، من النوع الذي لا يستطيع أن يقلق حولها سوى العالم القديم الميت وحده، أليس كذلك؟ ألا تمتلك شيئًا أعظم تعيش من أجله؟ أم لديك أيها الرفيق تاغانوف؟ وبالمناسبة «أعظم» هي الكلمة التي يستخدمها رفاقك...»

«أنظر إليّ الآن! وانظر جيدًا! لقد ولدت وعرفت أنني حيّة وعرفت ما أريد. ما الذي تظنه حيًا بداخليّ؟ لم برأيك أنا على قيد

الحياة؟ هل لأنه لدي معدة وأتناول الطعام وأهضمه؟ هل لأنني أتنفس وأعمل وأنتج المزيد من الطعام لأهضمه؟ أم لأنني أعرف ما أريد، وذاك الشيء (الذي هو أنا) يعرف كيف يريده، أليست هذه الحياة بذاتها؟ ومن يستطيع- في هذا الكون الملعون- أن يخبرني لم يجب أن أعيش من أجل أي شيء غير ذلك الذي أريده؟ من يستطيع أن يجيب على هذا السؤال بصوت إنساني يتحدث من أجل أسباب إنسانية؟ لكنّكم حاولتم أن تخبرونا بما ينبغي لنا أن نبتغيه. لقد أتيتم كجيش حامٍ عازم على منح الناس حياة جديدة، غير أنكم انتزعتم الحياة التي لم تعلموا عنها شيئًا من أحشاء هؤلاء الناس، وأخبرتموهم بما يجب أن تكون حيواتهم عليه. لقد أخذتم كل ساعة وكل دقيقة وكل قوة وكل فكرة تسكن أقصى أركان أرواحهم، وأخبرتموهم بما يجب أن تكون عليه. لقد أتيتم وحرمتم الأحياء من العيش. لقد دفعتم بنا جميعًا إلى قبو من حديد وأغلقتم علينا جميع الأبواب، وأغلقتموها بإحكام، بإحكام حتى انفجرت شرايين أرواحنا! ومن ثم تحدقون وتتساءلون عما يفعله ذلك بنا. حسنًا إذن، انظروا! كل واحد منكم تبقت له عينين، انظروا!».

ترتيلة

نُشرت هذه الرواية القصيرة للمرة الأولى في إنجلترا عام 1938. وموضوعها هو معنى «**الأنا**». والتي تصورّ حال المستقبل لمجتمع تقيد بالكامل بالمذهب الجماعيّ مع ما يترتب على ذلك من نتائج نهائية: حيثما يعود الناس إلى مرحلة الهمجية البدائية والركود والبَوَار، وتختفي كلمة «أنا» من اللغة البشرية، وتنعدم الضمائر المفردة، فيصبح الشخص يشير إلى نفسه بـ «نحن» وإلى الشخص الآخر بـ «هم». وتقدم القصة إعادة الاكتشاف التدريجي لكلمة «أنا» على يدي رجل شديد العقلانية. والمقتطف التالي هو مما قاله حول اكتشافه.

«أنا. أنا أعتقد. أنا سأفعل...»

«ما عساي أن أقول عدا ذلك؟ هذه هي الكلمات. وهذه هي الإجابة».

«ها أنا أقف هنا على قمة الجبل. رافعًا رأسي وباسطًا ذراعيّ. هذان- جسدي وروحي- هما نهاية المسعى. كنت أرغب في معرفة

مغزى الأشياء. لكنني أنا هو المغزى. كنت أرغب في العثور على إذن للوجود. لكنني لا أحتاج إذن له، ولا أي كلمة تصدّق عليه. أنا من يأذن وأنا من يقرّ».

«لا أعرف ما إذا كانت هذه الأرض التي أقف عليها هي قلب الكون أم أنها مجرد ذرة غبار مفقودة في الأبدية. لا أعلم ولا يهمني. لأنني أعرف ما السعادة الممكنة لي على هذه الأرض. وسعادتي ليست بحاجة غاية أسمى لتسويغ وجودها. سعادتي ليست الوسيلة لأي غاية. بل هي الغاية. وهي الهدف بنفسها، وهي الغرض بنفسه».

«ولست أنا الوسيلة المُستخدمة لتحقيق أي غاية قد يرغب الآخرون فيها. أنا لست بأداة لاستخدامهم. ولست خادمًا لاحتياجاتهم. ولست ضمادة لجروحهم. ولست أضحية على مذابحهم».

«لا أدين بشيء لأخوتي من البشر، ولا أسعى وراء تحصيل الديون منهم. ولا أطلب من أحد أن يعيش من أجلي، ولا أن أعيش من أجل أي شخص آخر. لا أنشد روح أحد، وليس لهم أن ينشدوا روحي».

«أنا لست عدوًا ولا صديقًا لأخوتي من البشر، ولكن بحسب ما يستحقونه مني. وحتى يكسبوا محبتي، عليهم أن يفعلوا أكثر من مجرد ولادتهم على هذه الأرض. فأنا لا أمنح محبتي بدون سبب، ولا لأي مار بالصدفة قد يرغب في المطالبة بها. إنني أكرم الرجال

بمحبتي، لكن الشرف والكرامة شيء يجب اكتسابه».

«سأختار الأصدقاء من بين الرجال، وليس من بين العبيد ولا السادة. ولا سأختار إلا ما يرضيني، وسأحبهم وأحترمهم. لكنني لا آمُر أحد ولا انصاع لأحد. وسنضم أيدينا عندما نشاء، ونسير بمفردنا عندما نشاء. فكل إنسان هو بمفرده في معبد روحه. دع كل إنسان يحتفظ بمعبده بمنأى عن الآخرين وتدنيس أرجلهم. ثم دعه يتكاتف مع الآخرين إذا شاء، ولكن ليس إلا من وراء عتبة معبده المقدسة».

«هذا لأن كلمة «**نحن**» يجب ألا تُقال أبدًا، إلا باختيار المرء وبعد تفكيره. ولا ينبغي لنا أن ندرج هذه الكلمة أولًا في روح الإنسان، وإلا فإنها تتحول إلى وحش، وجذر كل الشرور على الأرض، ومصدر عذاب الإنسان على يد أخوته البشر، وكذبة شنيعة ومريعة».

«كلمة «**نحن**» مثل جير يُصب على الرجال ليجعلهم كتلة واحدة متحجرة ومتصلبة تسحق كل شيء تحتها، ويضيع في رماديتها ما هو أبيض وما هو أسود بصورة متساوية. إنها الكلمة التي يسرق بها الفاسدون فضيلة الخير، ويسرق بها الضعفاء قدرة الأقوياء، ويسرق بها الحمقى حكمة الحكماء».

«ما سعادتي إذا بإمكان كل الأيدي، حتى النجسة منها، أن تطيلها؟ ما حكمتي إن كان حتى الحمقى يستطيعون أن يملوا علي أوامرهم؟ ما حريتي إذا كانت كل المخلوقات، حتى الفاشلة

والعاجزة منها، هم أسيادي؟ ما حياتي إن كنت لن أقدّم إلا الانحناء والموافقة والطاعة؟»

«لكنني اكتفيت من مذهب الفساد هذا».

«اكتفيت من كلمة «نحن» الوحشية، هذه الكلمة التي يترتب عليها الاستعباد والنهب والبؤس والزيف والخزي».

«والآن استطعت أن أرى وجه الإله، وأن أحيّيه على هذه الأرض، هذا الإله الذي سعى إليه الناس منذ نشأة البشر، هذا الإله الذي يمنحهم السعادة والسلام والفخر».

«هذا الإله، هو هذه الكلمة الوحيدة: أنا»

المنبع

نُشرت هذه الرواية عام 1943. وموضوعها هو «الفردانية في مقابل النزعة الجماعيّة»، ليس في السياسة بل في النفس الإنسانية، والدوافع النفسية والمنطلقات الرئيسية التي تنتج الشخصية الفردانية أو الجماعيّة. تقدم الرواية المسيرة المهنية لهاورد رورك، مهندس معماري ومبتكر، يخالف كل ما تمليه الأعراف والتقاليد، ولا يعترف بأي سيادة سوى سيادة حكمه المستقل، ويكافح في سبيل نزاهة عمله الإبداعي ضد كل شكل من أشكال المعارضة الاجتماعية، ليتمكن من تحقيق انتصاره في النهاية.

طبيعة من يحيون حياة مُعارة

أُخذ المقتطف التالي من محادثة بين رورك وصديقه غيل ويناند، يوضح فيها رورك ما اكتشفه وتوصل إليه بشأن الطبيعة النفسية لأولئك الذين يعاكس دافعهم الأساسي للمضي في العيش.

«هذا ما عجزت عن فهمه بشأن الناس لفترة طويلة. وهو أنهم لا يمتلكون ذوات مستقلة. بل يعيشون بداخل ذوات الآخرين.

إنهم يعيشون حياة مستعارة من غيرهم. انظر إلى بيتر كيتنغ... لقد رأيته، أو ما تبقى منه بالأصح، وساعدني ذلك في فهم الأمر. إنه يدفع ثمن خطيئة يتساءل عن ماهيتها مؤنبًا نفسه إنه كان شديد الأنانية. في أي فعل أو فكر صدر عنه كان لذاته مكان فيها؟ بل ما كانت غايته في الحياة؟ كانت العظمة في أعين الآخرين. وأن يكون في موضع شهرة وإعجاب وغبطة. أي كل ما قد ينبع من الآخرين. فالآخرين أملوا عليه قناعاته التي لم يحملها يومًا، ومع هذا يشعر بالرضا أن الآخرين يظنون أنه يحملها. كان الآخرين هم قوته الدافعة واهتمامه الأول. كان لا يريد أن يغدو عظيمًا، ولكن أنه يظنه الآخرين عظيمًا. كان لا يريد أن ينشأ أي شيء، ولكن أن ينال الإعجاب كمنشئ. واستعار من الآخرين من أجل ترك انطباع حسن لدى آخرين. هذا هو شكل إيثارك الفعلي. ما هي إلا ذاته التي خانها وتخلى عنها. ومع ذلك الجميع يدعونه أنانيًا...».

«أليس هذا هو أصل كل عمل حقير ودنيء؟ ليس الأنانية، بل غياب الذات على وجه التحديد. انظر إليهم. انظر إلى الإنسان الذي يغش ويكذب لكنه يتظاهر بالاحترام. فهو يعرف نفسه بأنه مخادع وكذاب، لكن الآخرون يظنون أنه صادق، وهو يستمد احترامه لنفسه من ذلك، من ذلك الرداء الخارجي المستعار. إن الإنسان الذي ينسب لنفسه فضل إنجاز ليس بله، يعرف نفسه بأنه شخص سيء، لكنه عظيم في نظر الآخرين. والحقير البائس الذي يجاهر بحبه لمن هم أقل شأنًا ويتشبث بأولئك الأقل حظًا، من أجل

إثبات تفوقه عن طريق المقارنة... هو يعيش حياة مستعارة مُنتحلة...».

«لا تشغلهم الحقائق أو الأفكار أو العمل، ولا يشغل بالهم سوى الناس. ولا يسألون «هل هذا أمر صحيح؟» وبدلًا عن ذلك يسألون «هل ما يظنه الآخرون صحيحًا؟» وليس من باب أن يحكموا على الأمور، ولكن من باب أن يكرروا ما يفعله الآخرون. وليس من أجل القيام بفعل ما، ولكن من أجل إعطاء انطباع بأنهم يفعلون. وليس من باب خلق الأشياء بل الاستعراض والإظهار. وليس من باب المقدرة بل كسب الصداقة. وليس من باب الاستحقاق بل الانتزاع. ماذا سيحصل للعالم لولا أولئك الذين يفكرون ويعملون وينتجون؟ هؤلاء هم المحبين للذات والساعين وراء منفعتهم الذاتية. أنت لا تفكر بذهن شخص آخر ولا تعمل بيدي شخص آخر. وحينما تعطل ملكَة الحكم المستقل، فإنك تعطل وعيك. وتعطيل وعيك يعني تعطيل حياتك. لا يتمتع هؤلاء الذين يعيشون حياة مُعارة بأي حس بالواقع. وواقعهم لا يحتل مكانًا بدواخلهم، ولكن في مكان ما في ذلك الفراغ الذي يفصل بين جسدٍ بشري وآخر. أي أن واقعهم ليس كيانًا، بل عبارة عن علاقة لا ترتكز على شيء. هذا هو الفراغ الذي عجزت عن فهمه في الناس. وهذا ما أوقفني في كل مرة أواجه فيها جماعة. أرى أشخاصًا يفتقرون إلى الذات، وأراء تنتج دون عملية عقلانية، وحِراك دون مكابح أو محرك، وسلطة دون مسؤولية. يقوم هذا

المُستعير بالأفعال، لكن مصدر أفعاله موزع بداخل كل شخص حي آخر. إنه في كل مكان وفي لا مكان، ولا يمكنك تحكيم العقل معه لأنه ليس منفتحًا على العقل. ولا يمكنك التحدث إليه لأنه يرفض أن يصغي. وكأن الأمر هو أن سلطة ما فارغة أطلقت عليك حكمها. مثل كتلة عمياء تركض متسارعة لتسحقك بلا مغزى أو هدف....».

«لاحظ كيف سيتقبلون أي شيء باستثناء إنسان يقف بمفرده. فهم يتعرّفون عليه في الحال... ويكنون نوعًا خاصًّا وخبيثًا من الكراهية تجاهه. لكنهم يغفرون للمجرمين، ويبدون إعجابهم بالديكتاتوريين. والجريمة والعنف قرينين متلازمين. وشكل من أشكال الاعتماد المتبادل، لابد من إقامة روابط بينهما. فكلا الصنفين يفرض شخصيته المنافقة البائسة على كل شخص يلتقيه. ويقتلهم هذا الإنسان المستقل لأنه ليس لهم وجود بداخله، وهذا هو الشكل الوحيد من الوجود الذي يعرفونه. ولاحظ النوع الخبيث من الامتعاض الذي يكنونه تجاه أي فكرة تدعو إلى الاستقلالية. ولاحظ الحقد المكنون تجاه المرء المستقل...».

«بعد قرون من تلقينهم المبدأ الذي ينص على أن الغيرية هي المثل الأعلى المطلق، قبلَ البشر المبدأ بالطريقة الوحيدة التي يمكن بها قبوله. وهو عن طريق السعي نحو اكتساب تقدير الذات من خلال الآخرين. ومن خلال العيش في جلابيبهم. وقد فتح هذا الطريق أمام كل أنواع الرعب الذي يمكن للمرء اختبارها. بحيث أصبح

الأمر هو ذلك الشكل المرّوع للأنانية التي ما كان لإنسان أناني بصدق أن يتصورها. والآن، في سبيل مداواة عالم يُهلك بفعل الإيثار، يُطلب منا هدم الذات. استمع إلى ما يُنادى به اليوم. وانظر إلى كل من حولنا. وحتمًا أنك تتساءل عن سبب معاناتهم، ولم يسعون وراء السعادة ولا يجدونها أبدًا. لكن إن توقف أي شخص وسأل نفسه عما إذا كانت لديه رغبة شخصية حقًا، فإنه سيعثر على الجواب. سيرى أن كل أمانيه وجهوده وأحلامه وطموحاته يحركها أشخاص آخرين. وأنه لا يكافح من أجل الثروة المادية حقًا، ولكن من أجل وهم مُستعار آخر، وهو الحصول على اعتبار من الآخرين. الحصول على ختم الموافقة من الآخرين، وليس موافقته. ولا يجد البهجة في النضال ولا في النجاح. ولا يستطيع أن يقول عن شيء واحد: «هذا ما أردته لأنني أردته، وليس لأنه جعل جيراني يحدقون منبهرين بي». وثم يتساءل لم هو غير سعيد. إن كل شكل من أشكال السعادة هو فردي وشخصي. وأعظم لحظات حياتنا تتسم بأنها شخصية، وورائها دوافع ذاتية، ونفيسة يجب عدم تدنيسها. والأشياء المقدسة أو الثمينة لنا هي تلك الأشياء التي نُنحيها من المشاركة غير الأخلاقية مع الآخرين. غير أننا تعلمنا اليوم أن نلقي بكل شيء بداخلنا تحت الضوء العام والبحث العام، وأن نلتمس البهجة في قاعات الاجتماعات. وليس لدينا حتى كلمة تصف الخصلة التي أتحدث عنها، والتي هي خصلة الاكتفاء الذاتي في النفس الإنسانية. من الصعب أن نسميها الأنانية أو الأنويّة، فهذه الكلمات تعرضت للتحريف، وأصبحت تعني بيتر كيتنغ. غيل،

أرى أن الشر الجوهري الوحيد على وجه الأرض هو أن تجعل اهتمامك الأول هو ما بدواخل الآخرين. وبالنسبة إلي، لطالما سعيت وراء خصلة واحدة في الأشخاص الذين أحببتهم. ولطالما تعرفت عليها في الحال، وهي الخصلة الوحيدة التي احترمها في البشر، والتي اخترت أصدقائي وفقها. والآن أعرف ما هي. إنها «الأنا» المكتفية ذاتيًا. ولا شيء آخر يهم».

مكتبة
t.me/soramnqraa

روح الجماعيّ

هذا المقتطف هو اعتراف من إلزورث إم توهي، الشخصية النقيضة لرورك وعدوه اللدود، والمستشار المعماري وعالم الاجتماع الذي قضى حياته في التخطيط المستقبلي لتأسيس مجتمع تحكمه النزعة الجماعيّة. ويخاطب في هذا السياق أحد ضحاياه المنكوبين.

«لطالما قلت هذا، وبوّضوح ودقة وصراحة. ليس بخطأي إن لم تستمع. وكان بالطبع يمكنك ذلك، إلا أنك لم ترغب في هذا. والذي كان بالنسبة لي طريق أسلم من الوقوف والدفاع. قلت إنني أنوي استلام زمام الحكم. مثل كل أسلافي الروحانيين. لكنني محظوظ أكثر مما كانوا عليه. فقد ورثت ثمار جهودهم وسأكون الشخص الذي سيبصر الحلم العظيم يتحقق. أرى كل ذلك من حولي اليوم، وأستطيع تمييزه، ولا يعجبني. ولم أكن أتوقع أن يعجبني. المتعة ليست بقدري. وسأشعر بالرضا بقدر ما تسمح به مقدرتي. لكنني سأحكم..».

«إنها ليست سوى مسألة اكتشاف دفة السفينة. فإن تعلمت كيف تحكم نفس واحدة، ستستطيع بعدها أن تحكم بقية البشر. إنها النفس، بيتر، النفس. وليس السياط أو السيوف أو البنادق أو النيران. لهذا السبب كان القياصرة والأتيليون والنابليون حمقى ولم تدم ممالكهم. لكننا سنبقى. إن النفس يا بيتر لا يمكنك أن تُحكمها ولابد من كسرها. أحدث شرخًا في النفس، وضع يدك عليه، وليصبح الشخص ملكًا لك. ولن تعوز سوطًا بعد ذلك، بل هو سيحضره لك ويطلب منك جلده. اضبطه في الاتجاه المعاكس وستقوم آليته الخاصة بالعمل نيابة عنك. استخدمه ضد نفسه. هل تريد أن تعرف كيف يتم ذلك؟ واعلم إن كنت قد كذبت عليك. واعرف إن كنت قد سمعت هذا كله منذ سنوات لكنك أبيت أن تصغي، وأن الخطأ خطؤك وليس بخطأي. حسنًا، ثمة طرق ومسالك عديدة لتحقيق ذلك، وإليك إحداها. أجعل المرء يشعر بضآلته وتفاهته. اجعله يشعر بالذنب. اقتل طموحه ونزاهته. وهذه مهمة ليست بهينة. فحتى الأسوأ بينكم يلتمس مثلًا أعلى بطرقه الملتوية. لكن اقتل النزاهة عن طريق إحلال الفساد الداخلي بالنفس. استخدم الشيء ضد نفسه. وجه الفساد نحو هدف من شأنه أن يدمّر كل المشاعر النّزيهة. ادعوا إلى الإيثار. وأخبر المرء أن عليه أن يعيش من أجل الآخرين. أخبر الأفراد أن الغيرية هي المثل الأعلى، وأنه لم يستطع أحد منهم أن يحققها قط. بل ولن يتمكن أي أحد من تحقيقها على الإطلاق. فكل غريزة حية فيه تصرخ ضدها. لكن ألا ترى ما حققته أنت؟ لقد أدرك هذا الإنسان أنه عاجز عن

تحقيق ما قبلهُ على أنه أسمى فضيلة، وهو ما يمنحه إحساسًا بالذنب والإثم وانعدام قيمته الأساسية. ونظرًا إلى أن المثل الأسمى أبعد من أن يدركه، فإنه في النهاية يتخلى عن كل المُثل العليا وكل الرغبات وكل إحساس بقيمته الشخصية. ويتراءى له أنه ملزوم بالدعوة إلى ما يعجز عن ممارسته. لكن يستحال على المرء أن يكون نصف صالح أو شبه صادق. فحفاظ المرء على نزاهته معركة شاقة وضارية. لمَ يحافظ المرء على ما يعرف أنه فاسد بالفعل؟ إلا لأن روحه تخلت عن احترامها لذاتها. وأنت بذلك تمكنت من الاستحواذ عليه. فسوف ينصاع لك. وسيكون مسرورًا بالانصياع لك؛ لأنه لا يستطيع أن يثق بنفسه، ويراوده الارتياب، ويشعر بالنجاسة. كان هذا أحد المسالك. وإليك مسلك آخر، وهي أن تقتل إحساس المرء بالقيم. اقتل قدرته على إدراك العظمة أو تحقيقها. فالعظماء لا يقعون تحت حكم الآخرين. ونحن لا نريد صعود أي أمرئ عظيم بيننا. لا تنكر مفهوم العظمة، وإنما دمرها من الداخل. والعظيم هو ما يتسم بالندرة والصعوبة والاستثنائية. ولك أن تضع معايير للإنجاز مفتوحة أمام الجميع، ولأدناهم وأقلهم مقدرة. لكن أقضِ على الدافع وراء بذل الجهد لدى جميعهم، العظماء والتافهين منهم. واقضِ على دافع التحسن والتميّز والكمال... لا تقدم على هدم كل الأشياء المقدسة، لأنك بذلك ستبث الذعر فيهم. لكن قدّس الدونية في قدرة الإنسان وحينها الأشياء المقدسة ستُهدم. وإليك هذا المسلك الآخر. وهو أن تقتل الأرواح من خلال الإفراط في الضحك. الضحك أداة من أدوات

البهجة الإنسانية. لكن تعلم كيفية استخدامه كسلاح تدمير. حوله إلى استهزاء وسخرية. هذا أمر سهل. أخبرهم أن يضحكوا على كل شيء. أخبرهم أن حس الدعابة فضيلة مطلقة. لا تدع أي شيء يبقى مقدسًا في روح الإنسان، وبالتالي لن تكون روحه مقدسة عنده. اقتل الاحترام والتوقير في نفسه وبذلك تكون قد قتلت البطل فيه. حيث يضيع من المرء الاحترام والوقار مع الضحك والقهقهة. وسوف ينصاع لك ولن يقيد انصياعه لك، بحيث أن كل شيء مباح ولا شيء خطير وجدي للغاية. وإليك هذا المسلك الأخير والأهم. لا تسمح للأفراد بأن يكونوا سعداء. فالسعادة لا تنبع إلا من روح إنسان مستقل بنفسه ومكتفٍ ذاتيًا. وكل شخص سعيد ليس لديه الوقت ولا الاحتياج لك. والسعيد هو شخص حر. لذا اقتل بهجتهم في العيش. وجردهم من كل ما هو عزيز عليهم أو ذو قيمة لهم. لا تدعهم يحوزون على ما يريدون أبدًا. واجعلهم يشعرون بأن مجرد امتلاكهم لرغبة شخصية هو من ضروب الشر. أوصلهم إلى حال يصبح فيه قول «أريد» ليس بحق طبيعي، ولكنّهُ اعتراف مخجل ومشين. ومبدأ الغيرية له دور كبير في هذا. حينها سيأتي الأشخاص التعساء إليك، وسيحتاجونك. سيأتون إليك من أجل المواساة والدعم واللجوء. وكما أن الطبيعة لا تسمح بوجود فراغ. فنفس المرء الفارغة والمساحة الفارغة تصبح أمامك لتملئها. لا أفهم لما يجب أن تبدو مصدومًا للغاية يا بيتر. هذه الحقيقة هي الأقدم على الإطلاق. انظر إلى التاريخ. انظر إلى أي نظام أخلاقي عظيم من الشرق إلى الغرب. ألم يدعوا جميعًا

إلى التضحية بسعادة الإنسان؟ وفي ظل كل التعقيدات المرتبطة بالإسهاب الكلامي المسرف، ألم يكن لديهم جميعًا فكرة مهيمنة واحدة وهي التضحية والإذعان وإنكار الذات؟ ألم تكن قادرًا على التقاط نشيدهم الرئيسي «استسلم، استسلم، استسلم، استسلم؟» انظر إلى الجو الأخلاقي اليوم. كل شيء ممتع من السجائر إلى الجنس إلى الطموح إلى دافع الربح يعد من الفواسق والآثام. وما عليك إلا أن تثبت أن شيئًا ما يجعل الأشخاص سعداء وتكون بذلك قد أنزلت عليه اللعنة. هذا هو الحد الذي وصلنا إليه. لقد ربطنا السعادة بالشعور بالذنب. وأمسكنا البشر من رقابهم. وأصبحوا يسمعون أحكامًا من قبيل: ضحِّ بمولودك الأول في فرن القربان البشرية، استلق على سرير من المسامير، اذهب إلى الصحراء لإماتة شهواتك، لا ترقص، لا تذهب إلى السينما يوم الأحد، لا تحاول أن تصبح ثريًا، لا تدخن، لا تحتسي الكحول. وعلى هذا النحو. وقد يظن الحمقى أن فرضنا لهذا النوع من المحظورات هو مجرد هراء، شيء متخلّف، ومن الطراز القديم. لكن هناك دائمًا هدف من وراء الهراء. لا تبال بالوقوف على الحماقة، واسأل نفسك ما الذي حققته. لقد تحول كل نظام أخلاقي يدعو إلى التضحية بالنفس إلى قوة عالمية تحكم ملايين البشر. وبالطبع من مهمتك أن تجمّله وتبهرجه. فيجب أن تخبر الناس أنهم سيحققون نوعًا أسمى من السعادة إذا ما تخلوا عن كل ما يجعلهم سعداء. ولا يلزمك أن تكون واضحًا بشأن ذلك. وإنما استخدم كلمات غامضة صعبة من قبيل «الانسجام العالمي»، «الروح الأبدية»، «المقصد الإلهي»،

«النيرفانا»[15]، «الفردوس»، «التفوق العرقي»، «ديكتاتورية البروليتاريا (الطبقة العاملة)». إنه الفساد الداخلي يا بيتر. وهو الوسيلة الأقدم على الإطلاق. قد استمرت هذه المسرحية الهزلية على مدى قرون وما زال الأشخاص ينخدعون بها. ومع ذلك فإن التحقق من الأمر بسيطًا للغاية: ما عليك إلا أن تستمع إلى أي رسول ينادي بمذهب جديد، وإذا وجدت أنه يتحدث عن التضحية بالنفس فاهرب بنفسك. وأركض بسرعة أكبر من سرعة انتشار الطاعون. من المنطقي أنه حيثما توجد «تضحية»، يوجد هناك من يجمع العطايا القربانية. وحيثما توجد خدمة، يوجد هناك من تُقدم له هذه الخدمة. والمرء الذي يحدّثك عن التضحية فهو إنما يتحدث عن وجود العبيد والسادة. ويعتزم أن يكون سيدًا. ولكن إن سمعت يومًا شخص يقول لك إنّه لابد وأن تكون سعيدًا وأن هذا حقك الطبيعي، وأن واجبك الأخلاقي الأول هو ذاك الذي يُمارس تجاه نفسك، فهذا هو المرء الذي لا يسعى وراء الاستحواذ على روحك. وهو شخص ليس لديه ما يكسبه منك. لكن دعه الآن يأتي إليك وسوف تعوي وتصرخ بشدة أنه وحش أناني. وهذا يجعلنا نستنتج أن الاحتيال لعبة آمنة لعدة وعدة قرون. لكن لعلك لاحظت شيئًا هنا. لقد قلت سلفًا كلمة «من المنطقي»، هل ترى؟ هذا يعني أن بحوزة الأفراد سلاح ما ضدك. وهو «العقل». لذا عليك أن تحرص على سلبه منهم. انتزع الدعائم من تحته. لكن كن

(15) النيرفانا هي منتهى النعيم والخلود. والوصول إلى السعادة القصوى عن طريق قتل شهوات النفس بحسب المذهب البوذي. (المترجم).

حذرًا. لا تنكره إنكارًا صريحًا. لا تنكر أبدًا أي شيء بصورة صريحة، وإلا أنت تخاطر بروحك. لا تقل إن العقل من الشرور، رغم أن البعض قد ذهب إلى هذا الحد وحقق نجاحًا مذهلًا. ولا تقل شيئًا غير إن العقل ذو طبيعة محدودة. وأن هناك شيء فوقه وأسمى منه. ما هو هذا الشيء؟ ليس عليك أن تكون واضحًا بشأن هذا الأمر كذلك. والمجال يتسع هنا. إما الغريزة، أو الشعور، أو الوحي، أو الإلهام الإلهي، أو المادية الجدلية. وإذا جادلك أحدهم وأخبرك أن مبدئك غير منطقي، فأنت لديك الجواب. أخبره أن هناك شيء فوق المنطق. وأنه ينبغي له هنا ألا يحاول التفكير، وإنما عليه أن يشعر، وعليه أن يؤمن. أبطل العقل وستفوز باللعبة. وكل شيء سيصبح مباحًا بأي طريقة تريدها ووقتما تشاء. لأنك تمكنت من الاستحواذ على هذا المرء. هل بوسعك أن تحكم إنسانًا يفكّر؟ كلا إننا لا نرغب في وجود أي أشخاص مفكرين بيننا...

بيتر، لقد سمعت بكل هذا من قبل. لقد شاهدتني أمارس هذا لمدة عشر سنوات. وتراه يُمارس هذا في جميع أنحاء العالم. لم تشعر بالاشمئزاز؟ ليس لديك الحق في الجلوس هناك والتحديق فيّ بنظرة تفوّق فاضل على أنك تشعر بالصدمة. أنت لك يد في الأمر. وقد أخذت نصيبك الكافي وعليك أن تتماشى مع الأمر وتمضي قدمًا. أنت تخشى أن تعرف إلى أين سيقودك هذا. لكنني لست بذلك. ودعني أخبرك أن العالم المستقبلي، العالم الذي أبتغيه، هو عالم من الإذعان والوحدة. عالم لن يكون فيه كل تفكير إنساني ملك

لصاحبه، وليس إلا أن يحاول المرء محاولة تخمين الفكرة التي تجول في ذهن جاره الذي ينعدم فيه التفكير ولا يقوم بسوى محاولة تخمين الفكرة التي تجول في ذهن جاره الذي ينعدم فيه التفكير، وهكذا يا بيتر يسير الأمر حول العالم. ولأن الجميع يجب أن يتفقوا مع الجميع. سيكون عالم لا يمتلك فيه أي إنسان رغبة لنفسه، وسيوجه كل جهوده لإشباع رغبات جاره الذي لن تكون لديه رغبات سوى إشباع رغبات الجار التالي الذي تكون لديه أي رغبات، وهكذا يا بيتر يسير الأمر حول العالم. ولأن الجميع يجب أن يخدموا الجميع. سيكون عالم لن يعمل فيه الإنسان من أجل سبب بريء مثل المال، ولكن من أجل ذلك الوحش السخيف، وحش الاعتبار من الآخرين. أي أن يحظى بموافقة أخوته ورأيهم السديد، والذي هو رأي أشخاص لا يُسمح لهم بالتعبير عن رأيهم. أي مثل أخطبوط يحرك أذرعه دون الرجوع للدماغ. أتحسب أن الأمر يتم بإطلاق الأحكام العقلانية يا بيتر؟ إنها ليست الأحكام العقلانية، ولكن استطلاعات الرأي العامة. في مثل هكذا عالَم، سيكون الناس مجرد أرقام، يمثلهم متوسط إحصائي لا يفوق الصفر إلا قليلًا. مثل هذا العالم سيكون عالما مُنتزع المحرّك ليس به إلا قلب واحد. قلب ميت لا يضخ الدم إلا بضغطه باليد. يدي أنا، وأيادي ثلة، قليلة العدد جدًا من الناس أمثالي، أولئك الذين يعرفون كيف يجعلون قلبك ينبض أنت أيها الإنسان العاديّ الرائع والبهيّ. يا من لم تستشيط غضبًا عندما لم نرك إلا مجرد رقم، متوسطٍ إحصائي، ومن صغار القوم، وعاميٍّ من السّوقة، أنت يا من قبلت هذه

المُسميات. سنرفعك على العرش ونعززك ونكرمك ونتوجك. أنت أيها صغير القوم، سنجعلك الحاكم المطلق الذي سيجعل جميع من مضى من الحكام يضجّون حسدًا. أنت أيها المطلق، اللانهائي، أنت يا من يُمثل الرب والنبي والملك مجتمعين. أنتم صوت الشعب، أولئك الذين يُمثَلون بالمتوسط الإحصائي، أولئك العاديون، العامة، السّوقة. هل تعرف ما النقيض الصحيح للأنا؟ الفكر المقلّد، بيتر، حكم المقلّد والمبتذل. ولكن حتى الفكر المبتذل يجب أن يكون من صنع شخص ما في وقت ما. نحن سنقوم بعملية خلقه. فنحن صوت الرب. سننعم بإذعان وخنوع مطلق، من أشخاص لم يتعلموا شيئًا سوى الإذعان. وسنطلق عليه مفهوم «الخدمة». وسنمنح أوسمة لمن يقدمها. ستتقاتلون فيما بينكم لرؤية من يستطيع أن يذعن على نحو أفضل وأكثر. لن يكون هناك أي امتياز آخر تسعون ورائه. ولا أي شكل آخر من أشكال الإنجاز الشخصي. هل تستطيع أن ترى هاورد رورك في الصورة؟ كلا؟ إذن لا تضيع الوقت في الأسئلة الحمقاء. كل ما لا يمكن أن يُحكم لابد وأن يذهب. وإذا ما استمر الشاذين عن منهجنا في الولادة من حين لآخر، فلن يتمكنوا من العيش بعد عامهم الثاني عشر. وعندما تبدأ أدمغتهم بالعمل، ستشعر بالضغط وتنفجر. والضغط يُقاس بحجم الفراغ. هل تعرف مصير المخلوقات التي تعيش في أعماق البحر عندما تخرج تحت أشعة الشمس؟ هذا ما سيدو عليه مستقبل رورك إلى حد كبير. والبقية منكم سيبتسم ويمارس الانصياع. ألم تلاحظ أن الأبله يبتسم دائمًا؟ فتقطيبة الإنسان الأولى

هي لمسة الإله الأولى على جبهته. لمسة الفكر. لكن لن يكون لدينا إله أو فكر، وليس سوى التصويت بالتأييد. أن تقول جميع هذه الأذرع الأتوماتيكية «نعم»... الآن لو كنت أكثر ذكاءً بعض الشيء، مثل زوجتك السابقة على سبيل المثال، ستسأل: ماذا عنّا، نحن الحكام؟ ماذا عني أنا، إلزورث مونكتون توهي؟ سأجيبك نعم، أنت محق، لن أحقق أكثر مما ستحققه أنت. لن يكون لدي أي غاية باستثناء إبقائك قنوعًا. وأن أكذب عليك، وأتملق إليك، وأمدحك، وأضخم تفاهتك. وألقي خطب عن الشعب والصالح العام. بيتر، أيها الصديق القديم المسكين، أنا أكثر شخصًا ناكرًا لذاته عرفته على الإطلاق. أتمتع باستقلالية أقل منك، أنت الذي أكرهتك للتو على بيع روحك. لقد استخدمت أنت الأشخاص على الأقل من أجل ما يمكنك الحصول عليه منهم لنفسك. لكنني لا أريد شيئًا لنفسي. وإنما استخدم الناس من أجل ما يمكنني فعله لهم. إنها وظيفتي الوحيدة ومصدر رضاي الوحيد. ليس لدي غاية شخصية. لا أريد سوى السيطرة. وأريد تحقيق عالمي المستقبلي. وهو أن ندع الجميع يعيش من أجل الجميع. وندع الكل يضحي بنفسه وبدون تحقيق أي منفعة فردية. وندع الجميع يعاني ولا أحد يتنعم. وندع التقدم يتوقف. وندع كل شيء يقع في حالة من الركود. ففي الركود تتحقق المساواة. وأن يكون الجميع خاضعون لإرادة الجميع. وحيثما تسود العبودية الشاملة بدون حتى وجود مكانة السيد. بل أن ننتقل من عبودية إلى أخرى. بحيث تتسع الدائرة وتبقى المساواة الكاملة محققة. هذا هو العالم المستقبلي...

انظر من حولك. التقط أي صحيفة واقرأ العناوين الرئيسية. أليس قادمًا؟ أليس هو موجود بالفعل؟ كل شيء أخبرتك به؟ ألم يبتلع أوروبا بالفعل ونحن نتخبط لاتباع نفس المصير؟ كل ما ذكرته لك تحتويه كلمة واحدة، «الجماعيّة». أليس هذا هو إله قرننا؟ أن نعمل معًا. وأن نفكر معًا. وأن نشعر معًا. وأن نتحد وأن نتوافق وأن نذعن. وأن نذعن ونخدم ونضحي. وأن نفرّق لنسود أولًا، ولكن بعد ذلك نوحد ونحكم. لقد اكتشفنا هذا في النهاية. هل تتذكر الإمبراطور الروماني الذي قال إنه يتمنى أن يكون للبشرية عنق واحد حتى يتمكن من نحره؟ لقد سخر الناس منه لقرون. لكن نحن من سيضحك في النهاية. لقد حققنا ما عجز هو عن تحقيقه. وعلمنا الناس أن يتحدوا. وهذا يجعلهم عنق واحد جاهز لأن يقتاده شخص واحد. لقد وجدنا الكلمة السحرية. وهو مذهب الجماعية. تمعنّ حال أوروبا أيها الأبله. ألا يمكنك أن ترى ما وراء الخزعبلات وأن تتعرف على الجوهر؟ وهي أنها بلد مكرس لتحقيق الرأي القائل بأن الإنسان ليس له حقوق وأن الجماعة هي فوق كل شيء. وحيثما يُعد الفرد بمثابة شيطان، أمّا الجماعة فهي بمثابة إله. ولا يسمح بوجود الدافع ولا الفضيلة، باستثناء تلك التي تخدم الطبقة العاملة. هذه نسخة واحدة، وإليك أخرى. وهي أنها بلد مكرس لتحقيق الرأي القائل بأن الإنسان ليس له حقوق وأن الدولة هي فوق كل شيء. وحيثما يُعد الفرد بمثابة شيطان، والشعب بمثابة إله. ولا يسمح بوجود الدافع ولا الفضيلة باستثناء تلك التي تخدم العرق. هل أنا أهذي أم أن هذا هو الواقع البارد

للقارتين بالفعل؟ لاحظ أيضًا حركة التطويق والمحاصرة التي نقوم بها. فإذا سئمت من أحد النسختين، دفعنا بك نحو الأخرى. هذا يعني أننا نسيطر عليك كنت قادمًا أم ذاهبًا. لقد أوصدنا الأبواب. ووضعنا العملة المتداولة. وجعلنا الجماعية متخللة من الرؤوس إلى الأقدام. بحيث أصبحت تحارب المذهب الذي يذبح الإنسان بمذهب آخر يذبح الإنسان، وتتخلى عن روحك لجماعة ما أو قائد ما. لكن الأهم هو أن تتخلى عنها، تتخلى عنها، تتخلى عنها. الأسلوب الذي اعتمده يا بيتر هو تقديم السم كغذاء والسم كترياق. لذا أنصحك باعتماد البهرجة والتجميل لكن تمسك بالهدف الرئيس. امنح الحمقى خيارًا، ودعهم يأخذون نصيبهم من المتعة، لكن لا تغيب عن بالك الغاية الوحيدة التي يتعين عليك تحقيقها. وهو قتل الفرد. قتل روح المرء. والباقي سيُتبع تلقائيًا.

روح الفرداني

هذا الخطاب ألقاه هاورد رورك دفاعًا عن نفسه أثناء محاكمته بتهمة تفجير مشروع إسكان حكومي كان قيد الإنشاء. وهو مشروع صممه لمهندس معماري آخر، بيتر كيتنغ، بعد الاتفاق على أنه سيُشيد تمامًا بالطريقة التي صممها، لكن الهيئة الحكومية المعنية نقضت الاتفاق. وكان ليس بوسع المهندسين المعماريين اللجوء إلى القانون، ولم يسمح لهما بمقاضاة الحكومة بأي شكل من الأشكال.

اكتشف الإنسان الأول قبل آلاف السنين كيفية إشعال النار. وعلى الأرجح أنه تعرض للحرق على الوتد الذي علّم إخوته البشر

كيفية إشعاله. وكان يُنظر إليه على أنه فاسق تعامل مع شيطان يبث الذعر في نفوس الجنس البشري. ولكن بعدها أخذ الناس يشعلون النار للحصول على الدفء وطهي الطعام وإضاءة الكهوف. لقد ترك لهم نعمة لم يدركوها وأزال الظلمة عن الأرض. وبعد قرون عديدة، اخترع الإنسان الأول العجلة. وعلى الأرجح أن جسده تعرض للتمزق على المخلعة التي علم إخوته البشر أن يبنوها. وكان يُنظر إليه على أنه عاصٍ خاطر بدخول المنطقة المحرمة. ولكن بعدها تمكن الناس من السير على هذه العجلات لبلوغ أي مدى أرادوه. لقد ترك لهم نعمة لم يدركوها وفتح أمامهم طرق العالم.

هذا الإنسان، غير الخاضع والأول، يقف في الفصل الافتتاحي لكل أسطورة سجلتها البشرية منذ بدايتها. فعلى سبيل المثال، قُيد بروميثيوس بالسلاسل إلى صخرة حتى تلتهمه النسور لأنه سرق شعلة من نار الآلهة. وحُكم على آدم بالمعاناة والشقاء لأنه أكل ثمرة من شجرة المعرفة. وأيًا كانت الأسطورة التي نتحدث عنها، إلا أن البشرية علمت في مكان ما في ظلال ذاكرتها أن مجدها بدأ بواحد وأن هذا الواحد دفع ثمن شجاعته.

على مر القرون الماضية كان هناك رجال اتخذوا الخطوات الأولى على دروب جديدة وهم غير متسلحين بشيء سوى رؤيتهم. واختلفت أهدافهم لكن كان لدى جميعهم هذا القاسم المشترك: وهو أن خطواتهم كانت الأولى، وطرقهم كانت جديدة، ورؤيتهم كانت أصيلة، والكراهية هو الرد الذي تلقوه. وقف المنشؤون

العظماء- المفكرون والفنانون والعلماء والمخترعون- وحدهم في مواجهة ناس عصرهم. فكل فكرة جديدة عظيمة كانت تتلقى المعارضة. وكل اختراع جديد عظيم واجه الاستنكار والتنديد. والمحرك الأول أعدوه سخفًا. والطائرة أعدوها معجزة. والمغزل الآلي أعدوه شرًا. والتخدير أعدوه إثمًا. لكن الأشخاص أصحاب الرؤى المستقلة والأصيلة لم يبالوا ومضوا قدمًا. فقاتلوا وعانوا، وبذلوا الغالي والنفيس. لكنهم ظفروا.

كان لا يوجد بين المنشئين من تدفعه رغبة خدمة أشقائه من البشر، لأن أشقائه رفضوا الهبة التي قدمها لهم ورأوها تدمير لروتين الخمول والبلادة الذي يتبعونه في حياتهم. فكان دافعه الوحيد هو حقيقته. حقيقة ذاته، وعمله لتحقيقها بطريقته. أكانت سيمفونية، أو كتاب، أو محرّك، أو نظام فلسفي، أو طائرة أو مبنى. كان هذا هدفه وحياته. وليس أولئك الذين سمعوا هذه السيمفونية التي ابتكرها، أو قرأوا الكتاب الذي كتبه، أو شغلوا المحرك الذي صنعه، أو اعتنقوا الفلسفة التي وضعها، أو ركبوا الطائرة التي صنعها، أو سكنوا المبنى الذي أقامه. أي إن غايته هي صنع الأشياء وليس من يستخدمها. صنع الأشياء وليس الفوائد التي يستمدها الآخرون منها. صنع الأشياء التي أعطت شكلًا وصبغةً لحقيقة ذاته. لقد حمل حقيقته فوق كل شيء وضد كل الناس.

لقد نبعت رؤيته وقوته وشجاعته من روحه. وروح الإنسان هي

ذاته. وذاته هي ذلك الكيان الذي يمثّل وعيه. وإن التفكير والشعور والعمل وتحكيم العقل جميعها من وظائف الأنا.

كان المنشؤون غير منكرين لذواتهم. وكان السر الأعظم لقوتهم أنهم كانوا مكتفين ذاتيًا ومندفعين ذاتيًا ومحفزين ذاتيًا. كانوا المسبب الأول ومصدر الطاقة وشريان الحياة والمحرك الرئيس. فالمنشئ لم يخدم أحدًا ولا من أجل شيء. وإنما كان يعيش من أجل نفسه.

وليس إلا عن طريق العيش لنفسه كان قادرًا على تحقيق الأمور العظّام التي تمثل مجد البشرية. وهذه هي طبيعة الإنجاز.

لا يمكن للإنسان أن يعيش ويبقى على قيد الحياة إلا من خلال عقله. فهو يأتي على الأرض بدون سلاح، وعقله هو سلاحه الوحيد. وفي حين أن الحيوانات تحصل على طعامها باستخدام القوة، إلا أن الإنسان ليس له مخالب ولا أنياب ولا قرون ولا قوة عضلية كبيرة. فعليه أن يزرع طعامه أو يصطاده. وحتى يزرع يتطلب هذا منه عملية تفكير. وحتى يصطاد يحتاج أسلحة، وحتى يصنع الأسلحة يتطلب هذا منه عملية تفكير كذلك. وبدءًا من أبسط مقومات العيش هاته إلى أعلى فكرة تجريدية دينية، وبدءًا من العجلة إلى ناطحة السحاب، فإن كل ما نحن عليه وكل ما نملكه يأتي من سمة واحدة يتمتع بها الإنسان، وهي عقله المفكّر.

لكن العقل سمة من سمات الفرد. فليس ثمة ما يُدعى بالعقل الجماعيّ. وليس ثمة ما يدعى بالفكّر الجماعي. والاتفاق الذي يتوصل إليه مجموعة من الأشخاص ليس سوى تسوية أو حل

وسط يستند إلى العديد من الأفكار الفردية. وهي نتيجة ثانوية. لكن الفعل الأساسي- عملية التفكير- يجب أن يمارسه كل شخص بمفرده. بإمكاننا تقسيم وجبة بين العديد من الأشخاص، لكن ليس بإمكاننا هضمها في معدة جماعية. ولا يمكن لأي إنسان استخدام رئتيه للتنفس عن إنسان آخر. ولا يمكن لأي إنسان استخدام عقله للتفكير عن إنسان آخر. فجميع وظائف الجسد والروح فردية وخاصة. يستعصي مشاركتها أو التنازل عنها.

نعم، نحن نرث نتاج فكر الأشخاص الآخرين. بحيث أننا نرث العجلة. ومن ثم نصنع العربة. والعربة تغدو مركبة. والمركبة تصير طائرة. ولكن طوال هذه العملية ما نحصل عليه من الآخرين هو المنتج النهائي لتفكيرهم ليس إلا. والقوة المحركة هنا هي ملكَة الإبداع التي تأخذ هذا المنتج كمادة وتستخدمه حتى تخلق الخطوة التالية. وهذه الملكَة الإبداعية لا يمكن منحها أو تلقيها أو مشاركتها أو استعارتها. وتنتمي إلى الأشخاص المنفردين والمستقلين. بيد أن أيًا ما يُصنع هو ملك لصانعه. وصحيح أن الأشخاص يتعلمون من بعضهم بعضًا، لكن التعلّم بأكمله هو مجرد تبادل للمواد. إذ يستعصي على الإنسان أن يمنح غيره القدرة على التفكير. بل إن هذه القدرة هي وسيلتنا الوحيدة للبقاء.

لا شيء يُمنح للإنسان على الأرض. فكل ما يحتاجه يتعين عليه أن ينتجه. وهنا يواجه المرء بديله الأساسي: أي يمكنه العيش بإحدى هاتين الطريقتين ولا شيء سواهما، بالعمل المستقل لعقله،

أو كطفيلي تغذيه عقول الآخرين. فالمنشئ يخلق الأشياء، والطفيلي يقترضها. المنشئ يواجه الطبيعة بمفرده، والطفيلي يواجهها من خلال وسيط.

ما يشغل المنشئ هو إخضاع الطبيعة لإرادة الإنسان، وما يشغل الطفيلي هو إخضاع الأفراد لإرادته.

يعيش المنشئ من أجل عمله، دون الحاجة إلى أشخاص آخرين. ويكمن هدفه الأساسي في نفسه. بينما يعيش الطفيلي حياة مستعارة من الآخرين، مع الحاجة إليهم. بحيث يصبح الآخرون هم دافعه الرئيسي.

يتمثل الاحتياج الأساسي لدى المنشئ في الاستقلالية. بيد أن العقل المفكّر يستحال أن يعمل تحت أي شكل من أشكال الإكراه. فلا يمكن تقييده أو التضحية به أو إخضاعه لأي اعتبار من أي نوع. وهو ما يتطلب استقلالية كاملة في العمل والدافع. وبالنسبة إلى هذا المنشئ، تعد كل العلاقات مع الآخرين أمر ثانوي.

الاحتياج الأساسي لدى الشخص ذو الحياة المُعارة يتلخص في تأمين روابطه مع الآخرين من أجل أن يؤمن قوته. فهو يضع العلاقات في المرتبة الأولى. ويعلن أن الإنسان موجود لخدمة الآخرين، ويدعو إلى تبني مذهب الغيرية.

الغيرية هي المذهب الذي يستوجب أن يعيش الإنسان من أجل الآخرين وأن يضع الآخرين فوق ذاته.

لا يمكن لأي إنسان أن يعيش من أجل إنسان آخر. ولا يستطيع أن يشارك الآخرين روحه مثلما لا يستطيع أن يشاركهم جسده. لكن الشخص الذي يعيش حياة مُستعارة استخدم الغيرية كسلاح للاستغلال وعمد إلى عكس قاعدة المبادئ الأخلاقية للبشرية. وعليه اكتسب الأشخاص كل مبدأ يوصي بالقضاء على المنشئ. وتعلموا التبعية باعتبارها فضيلة.

إن المرء الذي يحاول أن يعيش من أجل الآخرين هو تابع. إنه طفيلي في دافعه ويجعل من الآخرين الذين يخدمهم طفيليون مثله. بيد أن هذا النوع من العلاقات لا ينتج سوى الفساد المتبادل. إنه أمر مستحيل مفاهيميًا. لكن أقرب نسخة له في الواقع- للمرء الذي يعيش لخدمة الآخرين- هو العبد. إذا كان الاستعباد الجسدي شنيع وقبيح، إلى أي مدى قد يكون مفهوم الخنوع الروحاني أكثر بشاعةً وقبحًا؟ فالعبد المقهور لديه ما تبقى من الكرامة والشرف. ويتسم بالقدرة على المقاومة وإدراك الشر المُمارس عليه. لكن الإنسان الذي يستعبد نفسه طواعية باسم الحب هو أكثر المخلوقات انحطاطًا. فهو يحط من كرامة الإنسان ويحط من مفهوم الحب. وهذا هو جوهر الغيرية.

لقد تعلّم الرجال أن الفضيلة الأسمى هو ليس أن تنجز بل أن تعطي. لكن لا يمكن للمرء أن يعطي ذلك الذي لم يُنشأ. فالإنشاء يأتي قبل التوزيع، وإلا لن يكون هناك شيئًا لتوزيعه. إن الحاجة للمنشئ تأتي قبل الحاجة لوجود أي منتفع محتمل. ومع ذلك

علمونا أن نقدّر الإنسان المُستعير الذي يقدم عطايا لم ينتجها في مرتبة أعلى من الإنسان الذي جعلها ممكنة في الأساس. نحن نثني على فعل الإحسان، لكننا نستهجن فعل الإنجاز.

لقد تعلّم الرجال أن يكون همهم الأول هو تخفيف معاناة الآخرين. لكن المعاناة مجرد حالة من الاعتلال وإذا ما واجهها أحدهم على الآخر أن يحاول تخفيفها وتقديم المساعدة. وما فعلوه هم هو أنهم جعلوا تخفيف المعاناة عن الآخرين أسمى اختبار على مدى ما يتسم به المرء من فضيلة وأهم جزء في حيوات البشر. وعندها حتمًا سيرغب الإنسان في رؤية الآخرين يعانون، حتى يتسنى له الاتصاف بالفضيلة من خلال تخفيف معاناتهم. وهذه هي طبيعة الغيرية. كما أن المنشئ لا يهتم بالمرض بقدر ما يهتم بالحياة. وقد قضى عمل المنشئين على أشكال المرض واحد تلو الآخر، في جسد الإنسان وروحه، وخفف من أشكال المعاناة أكثر مما يمكن أن يتخيله أي غيريّ على الإطلاق.

لقد تعلم الرجال أن الاتفاق مع الآخرين فضيلة، ولكن من سمات المنشئ الأصيلة أن يختلف ويعارض. وتعلّم الرجال أن السير مع التيار السائد فضيلة، لكن من سمات المنشئ الأصيلة أن يخالف هذا التيار. لقد تعلّم الرجال أن الوقوف معًا فضيلة، لكن من سمات المنشئ الأصيلة أن يقف بمفرده.

لقد تعلّم الناس أن الأنا مرادف للشر، وأن نكران الذات والإيثار هو المثل الأعلى للفضيلة. لكن المنشئ هو الأنويّ بالمعنى

المطلق. والإنسان الإيثاريّ هو الذي لا يفكر أو يشعر أو يحكم أو يفعل. وهذه هي الوظائف التي تقوم بها الذات.

وهذا هو التحول الأساسي الأشد إماتةً. لقد حُرّفت المسألة ولم يبق للإنسان بديل ولا حرية. مثل قطبي خير وشر لم يُعرض عليه إلا مفهومان: الأنويّة والغيرية. كانت الأنويّة تعني التضحية بالأخرين من أجل الذات. والغيرية تعني التضحية بالذات من أجل الآخرين. وهو ما حكم على الإنسان بصورة غير قابلة للنقض بارتباطه الدائم بالآخرين ولم يترك له سوى خيار الألم: الألم الذي يكابده من أجل خدمة الآخرين أو الألم الذي يلحقه بالآخرين من أجل ذاته. وعندما أُضافوا أن الإنسان يجب أن يجد السعادة في التضحية بالنفس، كان قد أُغلق الفخ. ووجد المرء نفسه مضطرًا إلى قبول المازوشية كمثله الأعلى تحت التهديد بأن السادية كانت البديل الوحيد أمامه. وكان ذلك أعظم احتيال على البشرية على الإطلاق.

كانت هذه هي الحيلة التي من خلالها استمرت التبعية والمعاناة كأساسيات للعيش.

الخيار ليس بخيار التضحية بالنفس أو فرض السيادة. الخيار هنا هو الاستقلالية أو التبعية. شريعة المنشئ أم شريعة المُستعير. هذه هي القضية الأساسية. وهي تقوم على بديل الحياة أو الموت. إن شريعة المنشئ مبنية على إشباع احتياجات العقل المفكّر الذي يسمح للإنسان بالبقاء على قيد الحياة. وشريعة المُستعير مبنية على

إشباع احتياجات عقل عاجز عن البقاء. كل ما ينبع عن الأنا المستقلة للمرء هو خير. وكل ما ينبع عن اعتماد المرء على الآخرين هو شر.

إن الأنويّ بالمعنى المطلق ليس الإنسان الذي يضحي بالآخرين. إنه الإنسان الذي يسمو عن الحاجة إلى استخدام الآخرين بأي شكل من الأشكال. وهو لا يمارس عمله عن طريقهم. ولا يضعهم أولوية في أي مسألة كانت. لا في غايته، ولا في دافعه، ولا في تفكيره، ولا في رغباته، ولا في مصدر طاقته. إنه لا يعيش من أجل أي شخص آخر. ولا يطلب من أي شخص آخر أن يعيش من أجله. وهذا هو الشكل الوحيد للأخوة والاحترام المتبادل الممكن بين الأفراد.

تختلف درجات القدرة بين الأفراد، لكن المبدأ الأساسي يظل كما هو، وهو أن درجة استقلالية المرء وروح المبادرة لديه وحبه الشخصي لعمله تحدد موهبته كعامل وقيمته كإنسان. إن الاستقلالية هو المقياس الوحيد للفضيلة الإنسانية والقيمة الإنسانية، ماهية الإنسان وما يجعل من نفسه، وليس ما فعله للآخرين أو لم يفعله لهم. لا يوجد بديل عن الكرامة الشخصية. ولا يوجد معيار للكرامة الشخصية باستثناء استقلالية المرء وحريته.

في جميع العلاقات الإنسانية الصحيحة لا توجد تضحية من تجاه أي شخص من أجل أي شخص آخر. يحتاج المهندس المعماري

العملاء، لكنه لا يُخضع عمله لرغباتهم. وهم يحتاجونه، لكنهم لا يطلبون بناء منزل لمجرد إعطائه التفويض. يتبادل الأشخاص أعمالهم بالموافقة الحرة المتبادلة والقائمة على تحقيق المنفعة المتبادلة عندما تتفق مصالحهم الشخصية ويرغب كلاهما في التبادل. وإذا لم يكن كلاهما يرغب في ذلك، فهما غير مضطران إلى التعامل مع بعضهم بعضًا. ولهما أن يواصلان التماس المزيد. هذا هو الشكل الوحيد الممكن للعلاقة بين الأطراف المتساوية. وما عداه هو علاقة عبد وسيد، أو علاقة ضحية وجلاد.

لا يوجد عمل تم تنفيذه بشكل جماعي على الإطلاق، وبقرار الأغلبية. فكل عمل إبداعي لا يتحقق إلا بتوجيه من فكر فردي واحد. وعلى سبيل المثال، يحتاج المهندس المعماري عددًا كبيرًا من الأشخاص لتشييد مبناه، لكنه لا يطلب منهم التصويت على تصميمه. فهم يعملون معًا من خلال الاتفاق الحر، وكل منهم حر في الوظيفة التي يشغلها. يستخدم المهندس المعماري الفولاذ والزجاج والإسمنت الذي ينتجه الآخرون. لكن المواد تبقى، إلى حد كبير، فولاذ وزجاج وإسمنت حتى تصلها يديه. وما قد يفعله بهذه الأشياء هو منتجه الفردي وملكيته الفردية. هذا هو النمط الوحيد للتعاون الصحيح بين الأفراد.

أول حق للإنسان على وجه الأرض هو حق الأنا. وأول واجب أخلاقي على الإنسان هو ذاك الذي يمارسه تجاه نفسه. ويتلخص قانونه الأخلاقي في عدم وضع الأشخاص الآخرين غايته الأولية

على الإطلاق. ويتلخص التزامه الأخلاقي في أن يفعل ما يشاء شريطة ألا تعتمد رغبته بشكل أساسي على الأشخاص الآخرين. ويشمل هذا الدائرة الكاملة لملَكته الإبداعية وتفكيره وعمله. ولكنه لا يشمل دائرة المجرم والغيري والديكتاتور.

إن المرء يفكر ويعمل بمفرده، لكن ليس له أن يسرق أو يستغل أو يهيمن بمفرده. ذلك أنّ فعل السرقة والاستغلال والهيمنة تستلزم وقوع ضحايا. وتقتضي التبعية والاعتماد على الغير. وهي أفعال تخص ذوي نزعة الحياة المُعارة.

من يتخذ منصب حاكم على الأفراد هو شخص ليس بأنويّ. فهؤلاء الحكام لا يخلقون ولا ينشؤون شيئًا. ويعيشون بالكامل من خلال الآخرين. هدفهم يتمحور حول رعاياهم، وممارسة نشاط الاستعباد. إنهم على نفس القدر من الاعتماد الذي يمارسه المتسول والعامل الاجتماعي واللص تجاه الآخرين. ولا يهم شكل هذا الاعتماد.

ولكن الرجال تعلّموا أن يعدوا المُستعيرين- الطغاة والأباطرة والديكتاتوريين- دعاة للأنوية ومن أنصارها. فحملتهم هذه الحيلة على تدمير الأنا وأنفسهم والآخرين. وكان الغرض من الحيلة هو تدمير المنشئين، أو تسخيرهم لمصالحهم. وهذا الأخير مرادف للأول.

منذ بداية التاريخ وهذان الخصمان يقفان وجهًا لوجه: المنشئ والمُستعير. وعندما ابتكر المنشئ الأول العجلة، أبدى المُستعير ردّه

على ذلك واخترع الغيرية.

لقد واصل المنشئ- الذي تعرض للنكران والاضطهاد والرفض والاستغلال- سيره ومضى قدمًا وحمل البشرية جمعاء على قدر طاقته. ولم يساهم المُستعير في هذه العملية باستثناء طرح العوائق. وهذا الصراع له اسم آخر، وهو الفردانية في مقابل الجماعية.

كان الصالح العالم للجماعة – أو للعرق أو للطبقة أو للدولة- هو الادعاء الذي يقف وراء كل استبداد أُقيم على البشر على الإطلاق، والمبرر له. وأُرتكبت كل فظائع التاريخ الكبرى باسم دافع الغيرية. هل سبق وأن عادل أي فعل أناني فظاعة المذبحة التي ارتكبها أتباع الغيرية؟ هل يكمن الخطأ في نفاق الرجال أم في طبيعة المبدأ؟ بل وكان أشد السفاحين ترويعًا هم الأكثر إخلاصًا للمبدأ. لقد آمنوا بأن المجتمع المثالي لن يتحقق إلا من خلال المقصلة والإعدام. ولم يشكك أحد في حقهم في القتل لأنهم كانوا يقتلون لغرض غيريّ. كان من الجائز التضحية بالإنسان من أجل الآخرين. ويتغير الفاعلين في كل مرة لكن مسار المأساة يظل كما هو. وهو رجل إنساني يبدأ بإطلاق تصريحات حول حبه للبشرية وينتهي الأمر ببحر من الدماء. وسيستمر الأمر ويستمر طالما يعتقد الأفراد أن الفعل لا يكون صالحًا إلا إن كان يخلو من الأنانية. وهذا من شأنه أن يجعل الغيريّ يقدم على التصرف ويجبر ضحاياه على تحمل ذلك. ومع أنه لا يطلب قادة الحركات الجماعية شيئًا لأنفسهم. لكن لاحظ النتائج.

الخير الوحيد الذي بإمكان الأشخاص أن يسدوه لبعضهم بعضًا، والعبارة الوحيدة التي توضح شكل العلاقة الصحيحة بينهم هي «أبعد يديك عنيّ!»

والآن لاحظ نتائج مجتمع يقوم على مبدأ الفردانية. وهي بلادنا. أنبل بلاد في تاريخ البشرية. وبلد أعظم إنجاز، وأعظم ازدهار، وأعظم حرية. لم تقم هذه البلاد على الأفعال الإيثارية أو التضحية أو التنازل أو أيّ مما ينص عليه مبدأ الغيرية. وإنما قامت على حق المرء في السعي وراء السعادة. سعادته هو وليس سعادة أي شخص آخر. بدافع أناني وذاتي وشخصي. انظر إلى النتائج. واستمع إلى ما يمليه عليك ضميرك.

إنه صراع أزلي. ففي كل مرة كان يتمكن فيها الرجال من الاقتراب من الحقيقة، كانت تتعرض للتدمير مما يتسبب في سقوط حضارة تلو الأخرى. وما الحضارة إلا التقدم نحو تحقيق مجتمع من الخصوصية والاستقلالية. فبينما حياة الهمجي بأكملها هي حياة علنية تحكمها قوانين قبيلته، تأتي الحضارة لتحرر الإنسان من تسلط أخيه الإنسان.

والآن في عصرنا، لقد انفلتت النّزعة الجماعيّة، الوحش القديم وحُكم المستعيرين، من رباطها مسعورةً وفقدت السيطرة على نفسها. لقد أوصلت الأفراد إلى درجة من القبح الفكري لم يسبق لها مثيل على وجه الأرض. وبلغت مبلغًا ليس له نظير من الفظاعة والوحشية. لقد سممت كل عقل. وابتلعت معظم أوروبا. وهي

تجتاح بلادنا الآن.

أنا مهندس معماري. وأعرف ما سيأتي من المبدأ الذي تُبنى عليه بلادنا. وهو أننا نقترب من عالم لا أستطيع أن أسمح لنفسي بالعيش فيه.

الآن أصبحتم تعرفون لمَ أقدمت على تفجير كورتلاند.

أنا صممت كورتلاند. وأنا أعطيتها لكم. وأنا من دمرها.

لقد دمرتها لأنني اخترت عدم تركها موجودة. لقد كانت تمثيلًا مزدوجًا للوحشية، شكلًا ومضمونًا. وكان عليّ أن أفجر كلاهما. لقد تعرض نموذج التصميم للتشويه على أيدي اثنين من ذوي نزعة الحياة المُعارة الذين افترضوا أنهم يملكون حق تحسين ما لم يصنعوه وما يتعذر عليهم أن يأتوا بما يساويه. وما سمح لهم بفعل ذلك هو الأثر العام المترتب على تطبيق الأخلاق الغيرية الذي صبغ فعل إنشاء هذا المبنى بغاية غيرية تلغي جميع ما لدي من حقوق عليه وتسلب مني حتى حق الاعتراض على ذلك.

لقد وافقت على تصميم كورتلاند حتى أراها تُشيد بالطريقة التي صممتها وليس لأي سبب آخر. كان هذا هو الثمن الذي وضعته مقابل عملي. ولم أتحصل عليه.

أنا لا ألقي باللوم على بيتر كينغ. لم يكن بيده فعل شيء. كان لديه عقد مع أصحاب العمل. ولكنه عومل بالتجاهل. كان قد حصل على وعد بأن هيكل البناء الذي قدمه سوف يُشيد على النحو الذي

صُمم عليه، لكنهم خانوه وحنثوا بالوعد. إن حب الإنسان لنزاهة عمله وحقه في الحفاظ عليه أصبحت الآن من الأشياء غير الملموسة وغير المهمة وعديم القيمة. لقد سمعتم بأنفسكم عندما المدّعي العام قال هذا. لماذا تعرض المبنى للتشويه؟ ليس لأي سبب. مثل هذه الأفعال لا يكون لها أي سبب أبدًا، إلا إذا كان عنجهيّة بعض المُستعيرين الذين يرون أن لديهم الحق في ممتلكات أي شخص آخر، سواء كانت روحية أو مادية. من سمح لهم بفعل ذلك؟ لا أحد بعينه من بين العشرات الذين يحتلون مكانًا في جهاز السلطة. لم يبال أحد بالسماح بحدوث ذلك أو إيقافه. لا أحد كان مسؤول. ولا أحد يمكن أن يُحاسب. وهذه هي طبيعة كل فعل جماعي.

لم أحصل على الثمن الذي طلبته. لكن مالكي كورتلاند حصلوا على ما طلبوه مني. لقد أرادوا تصميم مخطط يكفل لهم بناء المبنى بأقل قدر ممكن من التكاليف. ولم يجدوا من يستطيع أن يفعل ذلك على نحو يرضيهم. لكنه كان بإمكاني ذلك وفعلت. لقد انتفعوا من عملي وجعلوني أساهم به كعطية. لكنني لست غيريًا. ولا أساهم بعطايا من هذا النوع.

يقال إنّني دمرت منزل المُعدمين والمحتاجين. لكن لننس هذا، فما كان للمحتاجين أن يحصلوا على هذا المنزل بالذات. كان على أولئك الذين كانوا مهتمين بالفقراء أن يأتوا إليّ، أنا الذي لم أكترث بهذا من قبل قط، من أجل مساعدة الفقراء. كما أنهم يرون أن الفقر

الذي قد يُصيب المستأجرين المستقبليين يمنحهم الحق في عملي. وأن حاجتهم تمنحهم الحق في حياتي. وأن من واجبي المساهمة بأي شيء مطلوب مني. وهذه هي نزعة الحياة المُعارة التي تبتلع العالم الآن.

جئت إلى هنا لأقول إنّني لا أعترف بحق أي شخص في دقيقة واحدة من حياتي. ولا في أي جزء من طاقتي. ولا في أي إنجاز أحققه. بغض النظر عمن يقدم هذا الادعاء، وعِظم عددهم أو مدى حاجتهم.

كنت أرغب في القدوم إلى هنا وأقول إنني إنسان لا يعيش من أجل الآخرين.

وكان لابد من قول الآتي، وهو أن العالم يسير على درب الهلاك والاضمحلال بسبب الطقوس العربيدة للتضحية بالنفس.

كنت أرغب في القدوم هنا والقول بأن نزاهة العمل الإبداعي للمرء أعظم أهمية من أي مسعى وجهد خيري آخر. وهؤلاء منكم الذين يستعصي عليهم فهم هذا هم الأشخاص الذين يدمرون العالم.

كنت أرغب في القدوم هنا وذكر شروطي. فأنا لا يهمني أن أعيش على أكتاف الآخرين.

لا أعترف بأي التزامات تجاه الآخرين باستثناء التزام أخلاقي واحد: احترام حريتهم وعدم المشاركة في مجتمع يقوم على

الاستعباد. وبالنسبة لبلدي، فإنني مستعدًا لأن أقضي عشر سنوات من حياتي في السجن إذا لم تعد بلدي موجودة. سأقضيها في الوقوف على أطلال ما كانت عليه بلدي وأنا حاملًا الامتنان بداخلي. سيكون هذا ولائي لها، ورفضي لأن أعيش أو أعمل فيما سيحل مكانها.

ولائي لكل منشئ عاش على الإطلاق وتعرض للمعاناة بسبب ذلك النوع من السلطة مثل تلك المسؤولة عن تفجير كورتلاند. ولكل ساعة مؤلمة من الوحدة والإنكار والإحباط والإساءة أجبر على قضاءها، وللمعارك التي ظفر بها. ولكل منشئ معروف اسمه، ولكل منشئ عاش وكافح ومات دون أن يُعترف به، وقبل أن يحقق إنجازه. ولكل منشئ دُمر جسديًا أو روحيًا. ولهنري كاميرون. ولستيفن مالوري. وللمرء الذي يأبى أن أذكر اسمه، لكنه يجلس في قاعة المحكمة هذه ويعرف أنني أتحدث عنه.

الأطلس متململًا

نُشرت هذه الرواية عام 1957. ويتلخص موضوعها في دور العقل في الوجود الإنساني، وما يستدعيه من ظهور فلسفة أخلاقية جديدة: وهي أخلاقيات المصلحة الذاتية العقلانية.

تُظهر القصة ما يحدث للعالم عندما يضرب العقل عن العمل، وعندما يستقيل الأشخاص أصحاب القدرة الإبداعية، في كل مهنة، ويختفون عن الوجود. وعلى حد تعبير جون غالت، وهو أول من بدأ الإضراب وتولى قيادته: ليس هناك سوى نوع واحد من الأشخاص الذين لم يشاركوا قط في أي شكل من أشكال الإضراب طوال تاريخ البشرية. ولطالما توقف كل نوع آخر وطبقة أخرى من الناس عن العمل عندما أرادوا ذلك، وقدموا مطالب للعالم بدعوى أنه لا غنى عنها، باستثناء هؤلاء الأشخاص الذين حملوا العالم على أكتافهم، وأبقوه على قيد الحياة، وتحملوا التعذيب كثمن عيشهم الوحيد، لكنهم لم يتخلوا قط عن الجنس البشري. حسنًا، لقد حان دورهم. لندع العالم يكتشف من هم وماذا يعملون وماذا يحدث عندما يرفضون العمل. هذا هو إضراب أصحاب الفكّر.

في معنى المال

هذا الخطاب أدلى به فرانسيسكو دانكونيا، صناعيّ في صناعة النحاس، ووريث ثروة هائلة، وأقرب أصدقاء غالت وأول من انضم إليه في الإضراب.

«هل تظن إذن أن المال هو أصل كل الشرور؟» قال فرانسيسكو دانكونيا، «هل تساءلت يومًا ما أصل المال؟ المادة هو أداة للتبادل، والتي لا يمكن أن توجد إلا إذا كانت هناك سلع منتجة وأشخاص قادرون على إنتاجها. المال هو الشكل المادي للمبدأ القائل بأن الأفراد الذي يرغبون في التعامل مع بعضهم بعضًا يجب أن يتعاملوا عن طريق التجارة وأن يعطوا قيمة مقابل قيمة. المال ليس أداة في أيدي المتسولين والمستغلين الذين يتحصلّون على منتجك بالدموع، ولا اللصوص الذين يسلبونه منك بالقوة. فالمال لا يصبح ممكنًا إلا من خلال الأشخاص الذين ينتجون. هل هذا ما تعده شرًا؟»

عندما تقبل المال مقابل جهدك، فإنك تفعل هذا عن قناعة بأنك ستستبدله بمنتج أنتجته جهود الآخرين. ليس المستغلون أو اللصوص من يعطون المال قيمته. ولا محيط من الدموع ولا كل بنادق العالم قادرة على تحويل تلك القطع الورقية في محفظتك إلى رغيف الخبز الذي ستحتاجه للبقاء على قيد الحياة غدًا. وتلك القطع من الورق، التي كان من المفترض أن تكون ذهبية، هي دلالةَ على شرف استحقاقك لطاقة الأفراد الذين ينتجون. ومحفظتك هي تعبيرًا عن الأمل بأنه في مكان ما في العالم من حولك يوجد أناس

لن يتخلوا عن هذا المبدأ الأخلاقي الذي هو أصل المال. فهل هذا ما تعده شرًا؟

هل سبق لك أن بحثت عن أصل الإنتاج؟ ألقِ نظرة على مولد كهربائي وتجرأ على إقناع نفسك أنه أُنشئ من خلال الجهد العضلي للبهائم غير المفكّرة. حاول أن تزرع بذرة من القمح دون الاستعانة بالمعرفة التي تركها لك الأشخاص الذين اضطروا لاكتشاف ذلك للمرة الأولى. حاول الحصول على طعامك بدون أي شيء سوى تحركات جسدية خالصة، وستعلم حينها أن عقل الإنسان هو أصل كل السلع المنتجة وكل الثروات التي وجدت على الأرض على الإطلاق.

لكنك تقول إنّ المال يجنيه الأقوياء على حساب الضعفاء؟ أي قوة تقصد؟ إنها ليست قوة البنادق أو العضلات. فالثروة ما هي إلا نتاج لقدرة الإنسان على التفكير. فهل إذن المال الذي يجنيه الإنسان الذي يخترع محركًا يكون على حساب من لم يخترعه؟ هل المال الذي يجنيه الأذكياء يكون على حساب الحمقى؟ والقادرين على حساب القاصرين؟ والطموحين على حساب الكسالى؟ فقد كان المال يُصنع- قبل أن يتعرض للنهب أو الاحتيال- من خلال الجهود التي يبذلها كل إنسان نزيه، كلُ في حدود قدرته. والشخص الصادق هو الذي يعرف أنه لا يستطيع أن يستهلك أكثر مما أنتجه.

الاتجار بالمال هو شريعة أصحاب النوايا الحسنة. والمال يرتكز على مسلمة مفادها أن كل إنسان هو صاحب عقله وجهده. ولا

يسمح المال بوجود أي سلطة تحدد قيمة مجهودك باستثناء الخيار الطوعي للشخص الراغب في مبادلتك بمجهوده في المقابل. ويتيح لك المال التكسب من سلعك وعملك اللذان يحظيان بقيمة عند أولئك الذين يشترونه، وليس أكثر من ذلك. لا يسمح المال بأي صفقات باستثناء تلك المنفعة المتبادلة التي تقوم على الحكم الطوعي للتجار. ويتطلب المال منك الاعتراف بأنه يجب على البشر أن يعملوا من أجل مصلحتهم الخاصة وليس من أجل ضررهم وهلاكهم، ومن أجل تعزيز مكاسبهم وليس خسارتهم، والاعتراف بأنهم ليسوا دواب ولدوا لحمل ثقل بؤسك، وأن عليك أن تقدم لهم القيم وليس الآلام، وأن الرابطة المشتركة بين الناس لا تقوم على تبادل المعاناة، بل تبادل السلع. يتطلب المال منك أن تبيع، ولكن ليس أن تبيع ضعفك على حمقى الناس، بل أن تبيع موهبتك على العقلانيين منهم، ويتطلب منك أن تشتري، ولكن ليس أردأ ما يقدمونه، بل أفضل ما يمكن لأموالك أن تحصل عليه. وعندما يعيش الأفراد من خلال الاتجار- بالعقل وليس بالقوة كحكمهم النهائي- فهذا يعني أن ما يفوز هو أفضل منتج، وأفضل أداء، والشخص ذو الحكم القويم والمقدرة الأعلى، ودرجة إنتاجية الإنسان هي ما تحدد درجة أجره ومكافأته. هذه هي شريعة الوجود والتي أداتها ورمزها هو المال. هل هذا ما تعده شرًا؟

لكن المال ليس سوى أداة. وسيأخذك إلى أي مكان تريده، لكنه

لن يحل محلك كسائق ومتحكّم به. وسيمنحك الوسائل الموصلة إلى إشباع رغباتك، لكنه لن يزودك بالرغبات. المال هو أداة رادعة للأشخاص الذين يحاولون عكس قانون السببية، الأشخاص الذين يسعون إلى استبدال العقل من خلال الاستيلاء على منتجات العقل.

لن يبتاع المال السعادة للمرء الذي ليس لديه أي فكرة عما يريد، فالمال لن يمنحه مدونة للقيم إذا كان يتهرّب من معرفة ما يجب أن يحظى بقيمة لديه، ولن يزوده بأي غاية إذا كان يتهرب من اختيار ما ينبغي له أن يسعى إليه. ولن يبتاع المال الذكاء للأبله، أو الاحترام للجبان، أو الإعجاب للقاصر (من تنقصه الأهلية والجدارة). والمرء الذي يحاول شراء عقول الذين يتفوقون عليه لغاية خدمته، مع استبدال حكمته بأمواله، ينتهي به الحال ليصبح ضحية لمن هم دونه. فأصحاب الذكاء والفهم يتخلون عنه، ولكن الغشاشين والمحتالين يتوالون عليه، مدفوعًا بقانون لم يكتشفه بعد: وهو أن الإنسان أكثر قيمة من ماله. هل هذا هو السبب في أن تدعوه شرًا؟

ووحده الإنسان الذي لا يحتاج المال هو المناسب لأن يرثه، فهو الإنسان الذي سيصنع ثروته بغض النظر عن المكان الذي بدأ فيه. فإذا كان الوريث يرقى إلى مستوى أمواله، فهذه الأموال ستخدمه، وإذا لم يكن كذلك فإنها ستدمره. لكنك تنظر إلى هذا الإنسان وتبكي أن المال أفسده. هل ماله فعل ذلك؟ أم أنه هو من أفسد

ماله؟ لا تحسد وريثًا تافه، فثروته ليست لك ولم تكن لتحسن فعل ذلك. ولا تظن أنه كان يجب توزيعها بينكما؛ فإثقال كاهل العالم بخمسين طفيليًا بدلًا من واحد لن يعيد إحياء الفضيلة الميتة والتي كانت الثروة. المال قوة حية تموت بدون جذورها. المال لن يخدم العقل الذي لا يستطيع أن يجاريه ويضاهيه. هل هذا هو السبب في أن تدعوه شرًا؟

المال هو وسيلتك للبقاء على قيد الحياة. والحكم الذي تصدره على مصدر رزقك هو الحكم الذي تصدره على حياتك. فإذا كان مصدر رزقك فاسدًا فقد لعنت وجودك. هل جنيت أموالك عن طريق الاحتيال؟ عن طريق استرضاء رذائل الناس أو حماقتهم؟ عن طريق تلبية احتياجات الحمقى، على أمل الحصول على أكثر مما تستحقه قدرتك؟ عن طريق خفض معاييرك؟ عن طريق القيام بعمل تحتقره لمشترين تزدريهم؟ إن كان الأمر كذلك، فلن تمنحك أموالك لحظة أو فلس يستحق السعادة. عندها تصبح كل الأشياء التي تبتاعها، ليس تكريمًا لك بل تأنيب وتثريب، وليس إنجازًا ولكن تذكير بالعار والخزي. ثم ستصرخ قائلًا إن المال ضرب من الشرور. أهو شر لأنه لن يغنيك عن احترامك لذاتك؟ أم شر لأنه لا يتيح لك الاستمتاع بفسادك؟ هل هذا هو أصل كراهيتك للمال؟

دائمًا ما سيبقى المال مجرد نتيجة وسيرفض استبدالك كمسبب له. المال هو نتاج الفضيلة، لكنه لن يمنحك الفضيلة ولن يكفر عن رذائلك. المال لن يمنحك غير المُكتسب، لا في المادة ولا في الروح.

هل هذا هو أصل كراهيتك للمال؟

أم قلت إن حب المال هو أصل كل الشرور؟ لأن تحب شيئًا يستلزم أن تعرف طبيعته وتحبها. وأن تحب المال هو أن تعرف وتقتنع بالحقيقة التي مفادها أن المال هو من صنع أفضل قوة بداخلك، وأنه مفتاح مرورك لمقايضة جهودك بجهود الأحسن بين الناس. إنه الشخص الذي يبيع روحه مقابل نيكل واحد هو من يصرخ بأعلى صوت في إعلان كراهيته للمال، ولديه سبب وجيه يدعوه إلى كراهيته. أما محبي المال فهم على استعداد للعمل من أجله، ويدركون أنهم قادرون على كسبه واستحقاقه.

دعني أقدم لك بعضًا من الدلائل التي تكشف لك عن شخصيات الأفراد: إن الشخص الذي يلعن المال يكون قد جناه بطريقة مخزية، وأما الشخص الذي يحترمه فقد اكتسبه من عمله.

انجُ بحياتك من أي شخص يخبرك أن المال شرّ. هذه الجملة ما هي إلا ناقوس خطر يحذرك من اقتراب سارق. فطالما الناس يعيشون معًا على الأرض ويحتاجون سبل للتعامل مع بعضهم بعضًا، فإن البديل الوحيد المتمثل أمامهم في حال تخلوا عن المال هو فوهة البندقية.

لكن المال يتطلب منك تحقيق أسمى الفضائل إن كنت ترغب في جنيه أو الاحتفاظ به. فالأشخاص الذين لا يتمتعون بالشجاعة أو الفخر أو تقدير الذات، والأشخاص الذين لا يتمتعون بأي حس أخلاقي بحقهم في أموالهم وغير مستعدين للدفاع عنه كما يدافعون

عن حياتهم، والأشخاص الذين يعتذرون عن ثرائهم، جميعهم لن يبقوا أثرياء لفترة طويلة. فهم الطُعم الطبيعي لأسراب الناهبين التي ظلت تحت الصخور لقرون من الزمن، لكنهم يخرجون زحفًا من أول رائحة لإنسان يتوسل الغفران عن خطيئة امتلاك الثروة. وسوف يسارعون إلى تخليصه من الذنب، ومن حياته أيضًا، تمامًا مثلما يستحق.

عندئذ ستشهد صعود أصحاب المعايير المزدوجة، الأشخاص الذين يعيشون من خلال القوة والبطش ولكنهم رغم ذلك يعولون على أولئك الذين يعيشون عن طريق الاتجار بهدف خلق قيمة لأموالهم المنهوبة، وهؤلاء هم مختلسي الفضيلة. وفي أي مجتمع أخلاقي، يعد هؤلاء هم المجرمون وتوضع القوانين لحمايتك منهم. لكن عندما يُنشئ مجتمع ما مجرمين بإعطائهم أحقية أن يكونوا كذلك ولصوص بإعطائهم شرعية أن يكونوا كذلك- الأشخاص الذين يستخدمون القوة للاستيلاء على ثروات الضحايا المجردين من أسلحتهم- عندها يصبح المال منتقمًا من صنّاعه. يظن هؤلاء اللصوص أنه من الآمن سرقة الأشخاص العزّل بمجرد إصدارهم لقانون يقضي تجريدهم من السلاح. لكن نهبهم يصبح عامل جذب لغيرهم من اللصوص، والذين يحصلون منهم على الثروة كما حصلوا هم عليها. ومن ثم يكسب السباق، ليس الأقدر على الإنتاج، ولكن أولئك الأشد قسوةً في الأعمال الوحشية. فحينما تكون القوة هي المعيار، ينتصر القاتل على النشال. وبعدها يختفي

هذا المجتمع في ظل انتشار الخراب والذبح.

أتود معرفة ما إذا كان ذلك اليوم قادم؟ تمعن في شأن المال. فالمال هو مقياس فضيلة المجتمع. وعندما ترى أن التداول يتم، ليس بالموافقة ولكن بالإكراه، وعندما ترى أنه من أجل أن تنتج يتحتم عليك الحصول على إذن من الأشخاص الذين لا ينتجون شيئًا، وعندما ترى أن الأموال تتدفق على أولئك الذي يتعاملون، ليس بالسلع ولكن بالمحاباة والمصلحة، وعندما ترى أن الأفراد يصبحون أكثر ثراءً بالابتزاز والانتزاع بدلًا من العمل، وأن قوانينك لا تحميك ضدهم ولكن تحميهم منك، وعندما ترى أن الفساد يُكافأ عليه والنزاهة تصبح تضحية بالذات، فلتعلم حينها أن مجتمعك محكوم عليه بالفشل والهلاك. المال وسيلة نبيلة جدًا لدرجة أنه لا يتنافس مع البنادق ولا يتصالح مع الأعمال الوحشية. ولن يسمح حتى للبلد التي يقوم نصفها على الملكية والنصف الآخر على النهب بالبقاء.

عندما يبرز المدمرون بين الناس، فأول ما يبدؤون بتدميره هو المال، لأن المال هو مصدر الحماية للبشر وقاعدة الوجود الأخلاقي. يستحوذ المدمرون على الذهب ويتركون لأصحابه كومة من الورق المزيف. وهذا يقتل جميع المعايير الموضوعية ويسلم الأفراد إلى السلطة التعسفية لمجموعة قيم تعسفية. كان الذهب يمثل قيمة موضوعية، ويعادل الثروة المنتجة. أما الورق فهو عبارة عن صك رهن على ثروة لا وجود لها، مدعوم ببندقية موجهة إلى هؤلاء

الذين يتوقع منهم إنتاج الثروة. الورق عبارة عن شيك يسحبه اللصوص القانونيين من حساب لا يعود إليهم: من حساب فضائل الضحايا. وترقب اليوم الذي سيرتد فيه الشيك وقد عُلّم عليه «حساب مكشوف» (أي السحب بما يتجاوز حد الرصيد).

عندما تجعل الشر وسيلة للبقاء، لا تتوقع أن يظل الناس صالحين. لا تتوقع منهم أن يظلوا أخلاقيين ويفقدوا أرواحهم بغرض أن يصبحوا علفًا للفاسقين. ولا تتوقع منهم أن ينتجوا حين يُعاقب على فعل الإنتاج ويُكافأ على النهب والسلب. ولا ينبغي لك أن تسأل «من يدمر العالم؟» لأنكم أنتم من تدمّرونه.

أنت تقف وسط أعظم الإنجازات التي حققتها أعظم حضارة منتجة وتتساءل لم هي أخذة في الانهيار من حولك، بينما تلعن شريان حياتها، المال. وتنظر إلى المال كما فعل الهمجيون من قبلك وتتساءل لم تزحف الغابة عائدة إلى حافة مدنكم المتحضرة. على مدى تاريخ الإنسانية كان دائمًا ما يتعرض المال للاستيلاء على أيدي الناهبين من صنف أو آخر، الذين تغيرت أسماؤهم لكن أسلوبهم ظل كما هو: وهو الاستيلاء على الثروة بالقوة وإبقاء المنتجين مقيدين ومسحوقين ومذمومين ومحرومين من الشرف. إن العبارة التي تتفوه بها حول شرور المال بمثل هذا التهور المُبرر أخلاقيًا، تأتي من وقت كانت فيه الثروة تُنتج من عمل العبيد، العبيد الذين كرروا الحركات التي اكتشفها عقل شخص ما ذات يوم وتركوها دون تحسين لعدة قرون. لطالما كان الإنتاج يُحكم

بالقوة، والثروة تُكسب عن طريق الانتزاع، وكان لا يوجد إلا القليل لانتزاعه. ومع ذلك، طوال كل القرون التي سادها الركود والمجاعة، مجد الناس اللصوص، على أنهم عليّة القوم من حملة السيف، والنبلاء بحسب نسبهم، وأرباب الأقلام (مدراء الدواوين). واحتقروا المنتجين بصفتهم عبيد وتجار وصناعيين وأصحاب دكاكين.

ولمجد البشرية، كان هناك للمرة الأولى والوحيدة في التاريخ، بلد المال، وليس لدي تكريمًا أعلى وأكثر تبجيلًا أقدمه لأميركا من هذا المسمى، والتي هي بعبارة أخرى بلد العقل والعدل والحرية والإنتاج والإنجاز. فللمرة الأولى حُرر عقل الإنسان وأمواله، ولم تُجمع أي ثروات بالانتزاع وإنما بالعمل وحده. وبدلًا من السيّافين والعبيد ظهر صانع الثروة الحقيقي، أعظم عامل، وأسمى أنواع البشر، الإنسان الذي صنع نفسه، وهو الصناعيّ الأميركي.

إذا طلبت مني ذكر أعظم امتياز يفخر به الأميركيون، فسأختار حقيقة واحدة، لم تتسم به من شمولية، وهو أنهم كانوا هم من ابتكروا عبارة «صنع المال». فلم يسبق لأي لغة أو أمة أخرى أن استخدمت هذه الكلمات على الإطلاق؛ لطالما ظن البشر أن الثروة كمية ثابتة، يُستحوذ عليها أو يُتسول من أجلها أو تُورث أو تُشارك أو تُنهب أو تُكتسب بالمصلحة. وكان الأميركيون هم أول من فهموا أن الثروة لابد أن تُنشأ. إن عبارة «صنع المال» تحمل بحد ذاتها جوهر الأخلاق الإنسانية.

ومع ذلك كانت هذه الكلمات السبب وراء تلقي الأميركيين التنديد والاستنكار من الثقافات الفاسدة في القارات التي يسودها اللصوص. والآن جعلتك عقيدة اللصوص هذه تنظر إلى أعظم إنجازاتك على أنها سمة عار، ونجاحك ذنبًا، وأعظم رجالك، الصناعيين، على أنهم فاسقين سفلّة، ومصانعك الرائعة على أنها مُلك العمل العضلي ونتاجه، وعمل عبيد يقودهم السوط، مثل ما حدث مع أهرامات مصر. وعليه لابد للفاسد الخبيث الذي يبتسم بتكلف، لأنه لا يرى فارقًا بين قوة الدولار وقوة السوط، أن يتعلم الفارق من تلقاء نفسه، وأظنه سيفعل ذلك.

وإلى أن تكتشف أن المال هو أصل كل الخير، وما لم تفعل، فإنك تجرّ الويل على نفسك. فعندما يتوقف المال عن كونه الأداة التي يتعامل بها الأفراد مع بعضهم بعضًا، فإن ما يحل محله هو الأفراد أنفسهم. فإما الدماء والسياط والبنادق، أو الدولارات. أتخذ خيارك، وليس أمامك غير ذلك، فوقتك ينفذ.

استشهاد الصناعيين

هذا جزء من حديث دار بين فرانسيسكو دانكونيا وهانك ريردن، رجل عصامي ارتقى بنفسه حتى أصبح من أعظم صناعيّ الصلب في البلاد. (فرانسيسكو هو من يتحدث)

أنت يا من لا تخضع لمشاق الطبيعة، بل تعمد إلى إخضاعها لإرادتك وتسخيرها في تحقيق سعادتك ونعيمك، ما الذي

خضعت له على أيديّ الرجال؟ أنت يا من تعلم من عملك أن المرء لا يُعاقب إلا على خطأ ارتكبه، ما الذي كنت على استعداد لتحمله ولأي سبب؟ لقد سمعت طوال حياتك أصوات التنديد والاستهجان تطلق ضدك، ليس بسبب ذنوبك، بل عن أعظم فضائلك. لقد تلقيت الكره، ليس بسبب أخطائك، ولكن عن إنجازاتك. لقد احتقروك لكل تلك السمات الشخصية التي تمثل فخرك الأعلى. لقد دُعوك بالأناني لشجاعتك في التصرف وفق حُكمك وتحمل كامل المسؤولية عن حياتك. لقد دعوك بالمتعجرف بسبب عقلك المستقل. لقد وصفوك بالقسوة بسبب نزاهتك الثابتة. لقد أطلقوا عليك معاديًا للمجتمع بسبب الرؤية التي جعلتك تغامر بالسير في دروب غامضة وجديدة. ولقد وصفوك بمتحجر القلب بسبب القوة والانضباط الذاتي في دافعك نحو هدفك. ودعوك بالجشع لعظمة قدرتك على تكوين الثروة. أنت يا من أطلقت تيارًا هائلًا من الطاقة دعوك بالطفيلي. أنت يا من خلقت البَسطَة والرخاء حيثما لم يكن هناك شيء سوى الأراضي البور والناس الجائعين البائسين أمامك دعوك باللص. أنت يا من أبقيتهم جميعًا على قيد الحياة دعوك بالمستغل. أنت يا أزكى الرجال وأكثرهم أخلاقية احتقروك على أنك إنسان مادي مبتذل. هل توقفت لسؤالهم بأي حق؟ ووفق أي قانون؟ وأي معيار؟ كلا، لقد تحملت كل شيء والتزمت الصمت. لقد أذعنت لقانونهم ولم تؤيد قانونك قط. كنت تعرف مقدار الالتزام الأخلاقي الذي يتطلبه إنتاج مسمار معدني واحد، لكنك تركتهم يصفونك بالفاسد وغير

الأخلاقي. كنت تعرف أن المرء يحتاج أشد مدونات القيّم صرامة للتعامل مع الطبيعة، لكنك ظننت أنك لا تحتاج مثل هذه المدونة للتعامل مع الأفراد. لقد تركت السلاح الأكثر فتكًا في أيدي أعدائك، السلاح الذي لم تفهمه أو تتوقع مقدار خطره أبدًا، وهو مدونتهم الأخلاقية. اسأل نفسك بأي طرق رهيبة قبلت من خلالها هذه المدونة ومدى عمق ذلك. اسأل نفسك ما الذي قد تفعله مدونة للقيم الأخلاقية لحياة الإنسان، ولم لا يستطيع أن يعيش بدونها، وماذا يحدث له إن قبل المعيار الأخلاقي الخاطئ، الذي بموجبه يكون الشر هو الخير. هل أخبرك سبب إعجابك بي، حتى لو كنت تظن أنه يجب أن تلعنني؟ هذا لأنني أول إنسان أعطاك ما يدين به العالم كله لك وما كان يجب أن تحصل عليه من جميع الناس قبل أن تتعامل معهم: وهو الإقرار الأخلاقي....

أنت مذنب بارتكاب خطيئة كبرى، سيد ريردن، ومذنب أكثر بكثير مما يخبرونك به، لكن ليس بالطريقة التي يدّعون بها. إن أشد جرم هو قبول ذنب لم ترتكبه، وهذا ما كنت تفعله طيلة حياتك. لقد كنت تدفع لمن يبتزونك بسبب فضائلك، وليس بسبب رذائلك. وكنت على استعداد لتحمل عبء عقوبة لا تستحقها، وأن تسمح لثقل هذا العبء بالازدياد كلما زادت الفضائل التي تمارسها. لكن فضائلك كانت هي التي تبقي البشر على قيد الحياة. هذا أن مدونتك الأخلاقية- التي تعيش بموجبها لكنك لم تعلنها أو تقرّ بها أو تدافع عنها قط- كانت هي القانون الذي يحافظ على

وجود الإنسان. وإذا كنت قد عُوقبت عليها، فما كانت طبيعة أولئك الذين عاقبوك؟ طبيعتك كانت قانون العيش. ما طبيعتهم إذن؟ ما معيار القيمة الذي يكمن في جذر طبيعتهم؟ ما غايتها النهائية؟ هل تظن أن ما تواجهه هو مجرد مؤامرة للاستيلاء على ثروتك؟ بل عليك أن تعلم، أنت يا من تعرف مصدر الثروة، أن الأمر أسوأ من ذلك بكثير. هل طلبت مني تسمية القوة المحركة للإنسان؟ القوة المحركة للإنسان هي مدونته الأخلاقي. اسأل نفسك إلى أين تقودك مدونتهم الأخلاقية وما تقدمه لك كغاية نهائية. إن الشر الأقبح من قتل إنسان هو إقناعه أن انتحاره عمل من أعمال الفضيلة. والشر الأقبح من إلقاء إنسان في فرن قربانيّ هو أن يُطلب منه القفز فيه بمحض إرادته، وأن يشيده بنفسه أيضًا. بحسب أقوالهم، إنهم هم من يحتاجونك وليس لديهم أي شيء يعرضونه عليك في المقابل. بحسب أقوالهم، يجب عليك أن تدعمهم لأنهم لا يستطيعون العيش بدونك. وانظر في فحش ما يفعلونه بتقديم عجزهم وحاجتهم- حاجتهم إليك- كمبرر لتعذيبك. هل تريد قبول هذا؟ هل تريد- على حساب مقدرتك الواسعة على التحمل وعلى حساب معاناتك- إشباع احتياجات مدمريك؟

إذا رأيت أطلس، ذلك العملاق الذي يحمل العالم على كتفيه، إذا رأيته واقفًا، والدماء تسيل على صدره، وركبتيه ترتعشان، وذراعيه ترتجفان، ولكنه ما يزال يحاول رفع العالم بآخر ما تبقى من قوته،

وكلما بذل جهود أكبر ازداد ثقل العالم على كتفيه، ما كنت ستخبره؟

«أنا...لا أدري. ما... بوسعه أن يفعل؟ ماذا ستقول مثلًا لسفينة تقلّ بشرًا؟»

«أن تلقي بهم عن كاهلها».

مكتبة
t.me/soramnqraa

في المعنى الأخلاقي للرأسمالية

هذا الخطاب ألقاه هانك ريردن في محاكمته بتهمة البيع غير القانوني لسبائك معدنية كان قد أنشأها، والتي وضعت تحت سيطرة الحكومة ونظام التقنين التابع لها.

لا أريد أن يساء فهم موقفي. ويسرني أن أذكر ذلك في المحضر...أنا لا أعمل إلا من أجل الربح، والذي أحققه من خلال بيع منتج يحتاجه الناس الذين لديهم الاستعداد والقدرة على شرائه. ولا أنتجه من أجل تحقيق منفعتهم على حساب منفعتي، ولا يبتاعونه من أجل تحقيق منفعتي على حساب منفعتهم، ولا أضحي بمصالحي من أجلهم ولا يضحون بمصالحهم من أجلي، ونتعامل على قدم المساواة من خلال الموافقة المتبادلة على تحقيق المنفعة المتبادلة، وفخور بكل قرش ربحته بهذه الوسيلة. أنا ثري وفخور بكل قرش أملكه. لقد جنيت أموالي بمجهودي، في تبادل حر ومن خلال الموافقة الطوعية لكل شخص تعاملت معه، وهي الموافقة الطوعية لأولئك الذين وظفوني عندما بدأت عملي، والموافقة الطوعية لأولئك الذين يعملون لدي الآن، والموافقة الطوعية

لأولئك الذين يبتاعون منتجي. سأجيب بصراحة على جميع الأسئلة التي تخشون أن تطرحونها علي. هل أرغب في أن أدفع للعاملين لدي أكثر مما تستحقه خدماتهم؟ كلا. هل أرغب في بيع منتجي بمبلغ يقل عما عملائي مستعدين لدفعه لي؟ كلا. هل أرغب في بيعه بخسارة أو التنازل عنه؟ كلا. إن كان هذا شرًا وفقًا للمعايير التي لديكم، فافعلوا بي ما تشاؤون. لكن هذه الأشياء تعود إلي. وأنا أكسب رزقي كما يجب على كل إنسان نزيه أن يفعل. وأرفض أن أقبل حقيقة وجودي وحقيقة أنني يجب أن أعمل من أجل دعمه على أنهما ذنب اقترفه. وأرفض قبول حقيقة أنني قادر على القيام بذلك وبصورة حسنة على أنه ذنب. وأرفض قبول حقيقة أنني قادر على القيام بذلك بشكل أفضل من معظم الناس، وحقيقة أن عملي له قيمة أكبر من عمل جيراني وأن المزيد من الناس على استعداد للدفع لي، على أنهم ذنب. أرفض الاعتذار عن مقدرتي، أرفض الاعتذار عن نجاحي، أرفض الاعتذار عن أموالي. إن كان هذا شرًا، فاستغلوا الأمر ما وسعكم ذلك. إذا كان هذا هو ما يجده العامة ضارًا بمصالحهم فدعوهم يدمروني. لكن هذه هي مدونتي الأخلاقية ولن أرتضي غيرها. بوسعي إخباركم بأنني قد فعلت لصالح أخي الإنسان أكثر مما يمكنكم أن تأملوا أنتم في تحقيقه، لكنني سأمتنع عن قول ذلك، لأنني لا أسعى إلى تحقيق مصلحة الآخرين كإقرار لحقي في الوجود، ولا أعترف بمصلحة الآخرين كمبرر للاستيلاء على ممتلكاتي أو لتدمير حياتي. لن أقول إن مصلحة الآخرين كانت الغاية من عملي، بل غايتي كانت هي

مصلحتي أنا، وأحتقر المرء الذي يتنازل عن مصلحته. بوسعي أن أخبركم بأن ما تفعلونه لا يخدم الصالح العام، وأنه لا يمكن تحقيق مصلحة أحد على حساب التضحيات البشرية، وأنكم عندما تنتهكون حقوق إنسان واحد فإنكم تنتهكون حقوق الجميع، وأن المجتمع الذي يفتقر فيه الأشخاص إلى الحقوق هو مجتمع محكوم بالهلاك. وبوسعي إخباركم بأنكم لا تستطيعون ولن تستطيعون أن تحققوا شيئًا سوى الدمار الشامل، كما هو الحال مع أي سارق عندما ينفد من الضحايا. بوسعي إخباركم هذا كله لكنني لن أفعل. أنا لا أتحدى سياستكم الخاصة ولكن مبدأكم الأخلاقي. إذا كان صحيحًا أن بوسع الأفراد أن يحققوا مصالحهم عن طريق تحويل بعض الأفراد الآخرين إلى أضاحي بشرية، وطُلب مني أن أضحي بنفسي من أجل مخلوقات أرادت البقاء على حساب دمي، وطُلب مني خدمة مصالح المجتمع بصرف النظر عما إذا كانت فوق مصالحي أو ضدها، فسأرفض، وسأرفضه باعتباره أشر الشرور، وسأحاربه بكل ما أوتيت من قوة، وسأحارب البشرية جمعاء. وإذا كانت أمامي دقيقة أعيشها قبل أن يُقضى علي، فسأقاتل بثقة كاملة نابعة عن ثقتي في عدالة معركتي وفي حق الكائن الحي في الوجود. دعونا نزيل أي سوء فهم بشأني. إن كان إخوتي البشر، الذين يطلقون على أنفسهم العامة، يعتقدون الآن بأن تحقيق مصالحهم يتطلب وقوع ضحايا، فدعوني أقول هذا: اللعنة على المصلحة العامة، ولن أكون جزء منها قط!

في معنى الجنس

هذه مقتطفات مأخوذة من محادثة جرت بين فرانسيسكو دانكونيا وهانك ريردن، اللذان وقعا في حب نفس المرأة، على الرغم من عدم معرفة أي منهما بذلك. (فرانسيسكو هو من يتحدث).

هل تتذكر ما قلته عن المال وعن الأشخاص الذين يسعون إلى عكس قانون السببية؟ الأشخاص الذين يحاولون استبدال العقل بالاستيلاء على منتجات العقل؟ حسنًا، إن الشخص الذي يحتقر نفسه ستراه يحاول اكتساب تقدير الذات من خلال المهارب الجنسية، وهو أمر مستحيل، لأن الجنس ليس المسبب، لكنه نتيجة وتعبير عن شعور الإنسان بقيمته....

إن الأشخاص الذين يظنون أن الثروة تأتي من الموارد المادية وليس لها أصل أو معنى فكري، هم الأشخاص الذي يظنون- لنفس السبب- أن الجنس هو قدرة جسدية تعمل بصورة مستقلة عن عقل الفرد أو اختياره أو مدونته الأخلاقية. إنهم يظنون أن جسدك هو من يخلق الرغبة لديك ويتخذ الخيار عنك، مثل لو أن خام الحديد يحول نفسه إلى قضبان سكك حديدية بمحض إرادته. يقولون إن الحب أعمى، وأن الجنس منيع على العقل ويسخر من قوة كل الفلاسفة. لكن في الواقع الاختيار الجنسي للإنسان هو نتيجة قناعاته الأساسية ومجموعها. أخبرني ما يجده الشخص مثيرًا جنسيًا وسأخبرك بفلسفته الكاملة في الحياة. أرني المرأة التي ينام

معها وسأخبرك بمدى تقديره لنفسه. وبغض النظر عن الفساد الذي تعلّمه هذا المرء بشأن فضيلة الإيثار، فإن الجنس هو أشد الأفعال أنانية، ولا يستطيع أن يمارسه لأي دافع سوى إمتاع نفسه– لك أن تحاول أن تفكر في ممارسته من باب الإحسان والإيثار! – وهو فعل يُستحال أن ينبع عن تحقير الذات، وليس إلا عن تمجيد الذات، وثقة المرء في كونه مرغوبًا ومستحقًا للشعور بلذة هذه الشهوة. إنه فعل يجبره على الوقوف عاريًا في الروح، وكذلك في الجسد، وأن يقبل أنّاه الحقيقية كمعياره للقيمة. وسوف ينجذب دائمًا إلى المرأة التي تعكس أعمق رؤية يمتلكها لنفسه، المرأة التي تمنحه باستسلامها له اختبار الشعور بتقدير الذات، أو تزييفه. إن الرجل المتيقن بفخر من قيمته سيرغب في الحصول على أسمى نوع من النساء يستطيع إيجاده، والمرأة التي تنال إعجابه هي الأقوى، والتي يصعب إخضاعها، لأن وحده الحظيان بالبطلة هو ما سيمنحه إحساسًا بالإنجاز، وليس الفاسقة الساذجة... فهو لا يسعى لاكتساب قيمته، بل يسعى للتعبير عنها. ولا نجد لديه تعارض بين معايير عقله ورغبات جسده.

لكن المرء الذي لديه قناعة بانعدام قيمته سوف ينجذب إلى امرأة يحتقرها، لأنها تعكس نفسه سرًا، وستحرره من ذلك الواقع الموضوعي الذي يكون فيه مخادعًا، وستمنحه وهم لحظي بقيمته وهروب مؤقت من المدونة الأخلاقية التي تلعنه. لاحظ الفوضى الشائنة التي يتسبب بها معظم الناس في حياتهم الجنسية، ولاحظ

فوضى التناقضات التي يعيشون عليها باعتبارها فلسفتهم الأخلاقية. والأولى ناتجة عن الأخرى. إن الحب هو استجابة لأعلى ما لدينا من قيم، ولا يمكن أن يكون أي شيء آخر. دع الإنسان يفسد قيّمه ورؤيته للوجود، ودعه يصرّح بأن الحب ليس متعة للذات لكن إنكار لها، وأن الفضيلة لا تتألف من الكبرياء والاعتزاز، بل من الشفقة أو الألم أو الضعف أو التضحية، وأن أنبل الحب يولد ليس من الإعجاب بل من الإحسان، وليس استجابة للقيم بل استجابة للعيوب، وسيكون قد قسم نفسه إلى شقين. فجسده لن ينصاع ولن يستجيب له، وسيجعله عاجزًا أمام المرأة التي يقرّ أنه يحبها وسيجعله ينجذب إلى أدنى أنواع العاهرات التي يمكن أن يجدها. وجسده دومًا ما سيتبع المنطق المطلق الذي تحمله أعمق قناعاته. فإذا كان يعتقد أن العيوب تشكل قيمًا، فإنه قد لعن الوجود باعتباره شرًا ووحده الشر هو ما سيجذبه. لقد لعن نفسه وسيشعر بأن الفساد هو كل ما يستحق أن يستمتع به. لقد ساوى بين الفضيلة والألم وسيشعر أن الرذيلة هي عالم المتعة الوحيد. ومن ثم سيصرخ أن لجسده رغبات فاسدة لا يستطيع عقله السيطرة عليها، وأن الجنس خطيئة وأثم، وأن الحب الحقيقي هو عاطفة خالصة للروح. وبعد ذلك سيتساءل لم الحب لا يمنحه سوى الملل، والجنس لا يمنحه سوى الشعور بالخزي.

لن تقبل أبدًا أي جزء من عقيدتهم الفاسدة. ولن تستطيع أن تفرضها على نفسك. فإن حاولت أن تلعن الجنس باعتباره شرًا،

فستظل تجد نفسك تتصرف على أساس أخلاقي سليم رغمًا عنك. وسوف تنجذب إلى أسمى امرأة قابلتها. دائمًا ما ستريد بطلة. ولن تقدر على احتقار ذاتك. ولن تقدر على تصديق أن الوجود شر وأنك مخلوق عاجز ومحاصر في عالم من المستحيلات. فأنت الشخص الذي قضى حياته في تشكيل المادة تحقيقًا لغاياته العقلانية. وأنت الشخص الذي يعرف أن الفكرة التي لا يعبر عنها المرء في الفعل المادي ما هي إلا ضرب من ضروب النفاق الوضيع، وكذلك الحب الأفلاطوني. ومثلما أن الفعل المادي الذي لا توجهه فكرة يمثل احتيالًا على الذات، فكذلك الجنس عندما يفصله المرء عن مدونة قيمه. إنها المسألة نفسها، وكنت لتدرك ذلك. وإحساسك غير المُنتهك بتقدير الذات كان ليدرك ذلك. لن تقدر على الشعور بالرغبة الجنسية تجاه امرأة تحتقرها. ووحده المرء الذي يمجد نقاوة الحب الخالي من الشهوة هو القادر على تحمل فساد الشهوة الخالية من الحب. لكن لاحظ أن معظم الناس ينقسمون ذاتيًا لنصفين ويضلون يتأرجحون بيأس إلى جانب أو آخر. النصف الأول منه هو الإنسان الذي يحتقر المال والمصانع وناطحات السحاب وجسده، والذي يحمل مشاعر غير معرّفة ومبهمة حول موضوعات لا يستطيع تصورها باعتبارها هي معنى الحياة وتحقيقه للفضيلة. والذي يبكي بيأس لأنه لا يشعر بأي شيء تجاه المرأة التي يحترمها ولكن يجد نفسه في انقياد يصعب مقاومته تجاه فاسقة التقى بها في مكان وضيع. وهو الشخص الذي يسميه الناس بالمثالي (غير العملي). في حين أن النصف الآخر منه هو

الإنسان الذي يسميه الناس بالعمليّ، الإنسان الذي يحتقر المبادئ والتجريدات والفن والفلسفة وعقله. ويرى أن اقتناء الأشياء المادية هو الغاية الوحيدة للوجود، ويضحك على ضرورة النظر في مصدرها أو الغرض منها. ويتوقع أن تمنحه هذه الأشياء المتعة، ويتساءل لم كلما حصل على المزيد منها قل إحساسه بالمتعة. إنه الرجل الذي يقضي وقته في مطاردة النساء. ولاحظ الاحتيال الثلاثي الذي يمارسه على نفسه. فهو لن يعترف بحاجته لتقدير الذات بما أنه يسخر من مفاهيم مثل مفهوم القيم الأخلاقية، ومع ذلك يشعر بالاحتقار العميق للذات الذي ينبع من اعتقاده بأنه مجرد قطعة من اللحم. ولن يعترف أن الجنس هو التعبير المادي عن تقدير المرء لقيّمه الشخصية، حتى وهو يعلم ذلك. لذا فهو يحاول الحصول على ما كان يجب أن يكون المسبب- المتمثل في تقدير الذات- من خلال أداء حركات النتيجة. ويحاول أن يكتسب إحساسًا بقيمته الشخصية من النساء اللواتي يستسلمن له، وينسى أن النساء اللواتي يختارهن يفتقرن إلى الشخصية والرأي ومعيارًا للقيمة. ويخبر نفسه أن كل ما يسعى إليه هو المتعة الجسدية. لكن لاحظ أنه يسأم من نسائه في أسبوع أو ليلة، وأنه يحتقر من يعملن عاهرات، وأنه يحب أن يتخيل أنه يغوي النساء الفاضلات اللواتي يقمن باستثناء كبيرًا من أجله. إنه شعور الإنجاز الذي يسعى إليه ولا يجده أبدًا. فأي شعور بالفخر قد يأتي من إخضاع جسد يخلو من العقل؟».

كلٌ حسب قدرته، وكلٌ حسب حاجته

هذه هي قصة ما حدث في شركة «توينتث سينتوري موتور» التي طبقت الشعار أعلاه وترجمته إلى الممارسة العملية، وبحسب رواية أحد الناجين.

حسنًا، كان هناك شيء ما حدث في ذلك المصنع أينما عملت لمدة عشرين عامًا. كان ذلك عندما توفي الرجل المسن وتولى ورثته إدارة الشركة. كان يوجد ثلاثة منهم، اثنان من الأبناء وابنة واحدة، وكانوا قد وضعوا خطة جديدة لإدارة المصنع. لقد سمحوا لنا بالتصويت عليها أيضًا، وأقدم الجميع- الجميع تقريبًا- على التصويت لصالحها. لم نكن نعرف. ظننا أنها كانت خطة جيدة. كلا، هذا غير صحيح كذلك. كنا نظن أنه من المفترض أن نرى أنها كانت جيدة. كانت تنص الخطة على أن يعمل كل شخص في المصنع وفق قدرته، ولكنه سيتقاضى أجرًا وفقًا لاحتياجه...

لقد صوتنا لصالح هذه الخطة خلال اجتماع كبير، بحضورنا جميعًا، بحضور ستة آلاف منًا، وجميعهم كانوا يعملون في المصنع. وألقى فيه ورثة ستارنز خطابات طويلة بشأنها، ولم يكن الأمر بذلك الوضوح، لكن لم يطرح أي أحد منّا أية أسئلة. لم يعرف أي منّا كيف ستعمل الخطة، لكن كل واحد ظن أن زميله يعرف. وإذا ساور أي واحد منّا الشكوك، شعر بالذنب وأبقى فمه مغلقًا؛ لأنهم جعلوا الأمر يبدو وكأن أي شخص يعارض الخطة كان قاتل أطفال في صميمه وأدنى من كونه إنسانًا. وأخبرونا أن هذه الخطة

ستحقق مثلًا أعلى نبيل. فكيف كان لنا إذن أن نعرف خلاف ذلك؟ ألم نسمع هذا طوال حياتنا، من أباءنا ومعلمينا ووزرائنا، وفي كل صحيفة قرأناها وكل فلم وكل خطاب عام؟ ألم يُقال لنا دائمًا إنّ هذا حق وعادل؟ حسنًا، قد يوجد بعض الأعذار التي تبرر ما فعلناه في ذلك الاجتماع. لكننا صوتنا لصالح الخطة، وما حصدناه نحن جلبناه لأنفسنا. أتعلمين سيدتي، نحن أشخاص مستهدفين بطريقة ما، أولئك منا الذين عاشوا خلال الأربع سنوات من تطبيق تلك الخطة. ما كان يُفترض أن تكون ماهية ذاك الجحيم الذي عشناه؟ الشر، الشر المطلق والصريح والمنقص للعيش، أليس كذلك؟ حسنًا، هذا ما رأيناه وساعدنا على تحقيقه، وأعتقد أننا ملعونين، كل واحد منّا، وربما لن يُغفر أبدًا لنا.

هل تريدين أن تعرفي كيف سارت تلك الخطة، وما فعلته بالناس؟ حاولي صب الماء في خزان يوجد فيه بالأسفل أنبوبٌ يُصرّف الماء أسرع من سكبكِ فيه، وكل دلو من الماء تسكبه يوسع الأنبوب أكثر بمقدار بوصة. وكلما عملتِ بجهد أكبر تطلب الأمر منكِ بذل المزيد، وأنتِ تقفين حاملةً الدلاء لمدة أربعين ساعة في الأسبوع، ثم ثمان وأربعين ساعة، ثم ست وخمسين ساعة، من أجل دفع قيمة عشاء جاركِ، وعملية زوجته، وحصبة طفله، وكرسي والدته المتحرك، وقميص عمه، وتعليم ابن أخيه، ومن أجل الطفل في البيت المجاور، والطفل الذي سيولد، وأي شخص في أي مكان من حولك، باعتبارها أشياء لهم يجب أن يحصلوا عليها، من

الحفاضات إلى أطقم الأسنان. وأنتِ يتعين عليكِ أن تعملي من طلوع الشمس حتى مغيبها، شهرًا بعد شهر، وعامًا بعد عام، خالية الوفاض لا تملكين شيئًا سوى عرقك، دون أن يلوح لكِ أي شيء في الأفق سوى سعادتهم، وتظلي هكذا طوال حياتكِ، بلا راحة، وبلا أمل، وبلا نهاية... كلٌ حسب قدرته، وكلٌ حسب حاجته.

أخبرونا أننا جميعا عائلة واحدة كبيرة، وأننا جميعًا في هذا معًا. لكن لا يستطيع جميعكم تحمل العمل على موقد الأسيتيلين لمدة عشر ساعات في اليوم، معًا. ولا يُصاب جميعكم بآلام المعدة، معًا. ما قدرته التي تأتي أولًا وأي من احتياجاته تأتي أولًا؟ عندما تخلطين كل شيء في وعاء واحد، فلن يكون بوسعكِ أن تسمحي لأي شخص أن يقرر ما احتياجاته، أليس كذلك؟ وإذا فعلتِ هذا، فقد يدّعي أنه يحتاج يختًا، وإذا كانت مشاعره هي كل ما عليكِ أن تعولي عليها، فقد يتمكن من إثباته أيضًا. لما لا؟ فإذا كان لا يحق لي أن أمتلك سيارة حتى أعمل في مأوى وأجني سيارة لكل متسكع وكل همجي متعرِ على وجه الأرض، فلمَ لا يستطيع أن يطلب مني يختًا أيضًا إذا كانت ما تزال لدي القدرة على عدم الانهيار؟ كلا؟ لا يستطيع؟ لم بوسعه إذن أن يطلب مني تناول قهوتي دون القشدة حتى يقوم هو بإعادة طلاء غرفة معيشته؟ حسنًا... حسنًا، لقد تقرر على أي حال أنه لا يحق لأي أحد أن يحكم على حاجته أو قدرته الشخصية. لقد صوتنا على ذلك. نعم سيدتي، لقد صوتنا على ذلك في اجتماع عام كان يُعقد مرتين في السنة. وإلا كيف يمكن أن يتم

ذلك؟ هل تهتمين بمعرفة ما قد يحدث في مثل هذا النوع من الاجتماعات؟ لقد استغرق الأمر منّا اجتماعًا واحدًا فقط لاكتشاف أننا أصبحنا متسولين، متسولين نتنين ومتذمرين وضعفاء، جميعنا، لأنه كان لا يمكن لأي شخص أن يستحصل على أجره باعتباره كسبه المستحق، ولم يكن لديه أي حقوق ولا مصدر كسب له، ولم يكن عمله كذلك ينتمي إليه، بل ينتمي إلى «العائلة»، التي كانت لا تدين له بأي شيء في المقابل، والمطلب الوحيد الذي كان له حق سؤاله منهم هي «حاجته»، لذلك كان عليه أن يتوسل علنًا حتى يخففون عنه عبء احتياجاته، مثل أي طفيلي حقير، معدّدًا كل متاعبه ومآسيه، وصولًا إلى أدراج منزله المرممة ونزلات البرد التي أصابت زوجته، على أمل أن يكسب عطف «العائلة» وتلقي عليه الصدقات. كان عليه أن يدّعي العوز، لأن العوز وليس العمل هو الذي أصبح العملة المطلوبة. لهذا تحول الأمر إلى منافسة بين ستة آلاف من المتسولين، يدعي كل منهم أن حاجته كانت أشد من حاجة أخيه. وإلا كيف يمكن أن يتم ذلك؟ هل تهتمين بتخمين ما حدث، وما نوع الأشخاص الذين ظلوا صامتين وشاعرين بالعار، وأي نوع لاذ بالفرار وبحوزته الجائزة الكبرى؟

لكن الأمر لم يقتصر على ذلك. كان ثمة أمر آخر اكتشفناه في نفس الاجتماع. وهو أن إنتاج المصنع أنخفض بنسبة أربعين في المائة في النصف الأول من العام، لذلك تقرّر أن السبب هو أن شخصًا ما لم يعمل وفق قدرته. من هو؟ أنّى لهم معرفة ذلك؟ لقد جرى

هذا أيضًا بتصويت «العائلة». لقد صوتوا على من كان الأفضل بين الرجال، وحكموا عليهم بالعمل الإضافي كل ليلة، لمدة ستة أشهر قادمة. وكان عملًا إضافيًا بدون أجر، لأنك لا تكسب أجرك بحسب ساعات العمل ولا تكسبه بمقدار العمل، بل بالحاجة وحدها.

هل عليّ أن أخبركِ بما حدث بعد ذلك، وإلى أي نوع من المخلوقات بدأنا نتحول نحن الذين كنا في يوم من الأيام بشرًا؟ أخذنا نخفي أي قدرة لدينا، ونبطئ سرعة إنتاجنا ونكتفي بالمراقبة مثل الصقور، حتى نحرص ألا نعمل بصورة أحسن أو أسرع من زملائنا المجاورين على الإطلاق. ماذا يمكننا أن نفعل غير ذلك عندما علمنا أنه إذا ما بذلنا قصارى جهدنا من أجل «العائلة» فما نحصل عليه في المقابل هو العقاب وليس التقدير أو المكافآت؟ كنا نعلم أن مقابل كل شخص كريه يفسد مجموعة من المحركات ويكلف الشركة أموالًا- إما من خلال إهماله لأنه كان غير مضطرًا للاهتمام، أو من خلال عدم كفاءته الواضحة- نحن الذين سيتعين علينا توديع دفء ليالينا وإجازات أيام الأحد. لذلك فعلنا كل ما بوسعنا حتى نكون سيئين في عملنا.

«كان هناك شاب صغير بدأ العمل معنا بروح مليئة بالحماس من أجل خدمة الغاية النبيلة التي يقولون عنها، فتى نابغ لم يتلق أي تعليم، ولكن يمتلك عقل مذهل بين كتفيه. في العام الأول، توصل الفتى إلى آلية عمل وفرت علينا الآلاف من ساعات العمل.

وقدمها إلى «العائلة»، ولم يطلب أي شيء مقابلها، ولم يكن بوسعه فعل ذلك، لكنه كان يرى أنه لا بأس في هذا. قال إنه فعل هذا في سبيل تحقيق الغاية الأعلى. ولكن عندما وجد نفسه قد أُنتخب كواحد من أحسننا وحُكم عليه بالعمل الليلي، لأننا لم نحصل على ما يكفي منه، ما لبث وأن سارع بإغلاق فمه وعقله. يمكنكِ التيقن من أنه لم يأت بأية أفكار أخرى في العام الثاني.

ما الذي اعتادوا على إخبارنا به عن المنافسة الشرسة التي يتسم بها نظام الربح، حيث كان على الأشخاص التنافس من أجل من يحسّن العمل أكثر من أقرانه؟ أنها شر، أليس كذلك؟ كان عليهم أن يروا إذن كيف كان الأمر عندما اضطررنا جميعًا إلى التنافس بيننا من أجل من يستطيع أن يقوم بأسوأ عمل ممكن. ولا توجد وسيلة أضمن لتدمير إنسان من إجباره على البقاء في مكان يحتم عليه التملص من بذل ما بوسعه، حيثما يتعين عليه أن يعمل جاهدًا على التقصير في العمل، يومًا بعد يوم. وهذا من شأنه أن يؤدي إلى القضاء عليه بصورة أسرع من شرب الكحول أو البطالة أو ممارسة السرقة لكسب العيش. لكن لم يكن بوسعنا فعل شيء آخر سوى التظاهر بعدم الكفاءة أو العجز. كان الاتهام الوحيد الذي نخشاه هو الاشتباه في القدرة. كانت القدرة التي يتمتع بها المرء بمثابة دين عليه ليس بوسعه سداده إلى الأبد. وماذا كان يوجد حتى نعمل من أجله؟ كنا نعلم أن أجرنا الزهيد الأساسي سيمنحونه لنا على أي حال، سواء أكنا نعمل أم لا - كان يسمى «بدل السكن والطعام» -

وفوق هذا الأجر الزهيد، كانت ليس أمامنا فرصة الحصول على أي شيء آخر مهما بلغت صعوبة محاولاتنا. ولم يكن بوسعنا حتى التيقن من قدرتنا على ابتياع ملبس جديد في العام المقبل، لأنهم قد يمنحوك «بدل الملابس» أو لا يفعلوا ذلك، على حسب ما إذا لم يكسر أحد ساقه أو احتاج عملية أو أنجب المزيد من الأطفال. وإذا لم يوجد ما يكفي من المال لتوفير ملابس جديدة للجميع، فلن تتمكن من الحصول على ملبسك أيضًا.

كان هناك رجل واحد عمل بجد طوال حياته لأنه دائمًا ما كان يرغب في إرسال ابنه إلى الجامعة. حسنًا، تخرج الفتى من المدرسة الثانوية في السنة الثانية من تطبيق الخطة، لكن «العائلة» لم تمنح الوالد أي «بدل» للجامعة. قالوا إنه ليس بوسع ابنه الذهاب إلى الجامعة إلا أن يصبح لدينا من المال ما يكفي لإرسال أبناء الجميع إلى الجامعة، وأنه كان علينا أولًا إرسال أطفال الجميع إلى المدرسة الثانوية، ولم يكن لدينا ما يكفي لذلك حتى. لقي الوالد حتفه في العام التالي في شجار بالسكاكين مع شخص ما في حانة، شجار ليس على شيء بعينه، وكانت مثل هذه المشاجرات قد بدأت تحدث بيننا طوال الوقت.

وكان هناك ذلك الرجل المسن، أرمل بلا عائلة، وصاحب هواية واحدة: جمع تسجيلات الفونوغراف. أظن أن هذا كان كل ما خرج به من الدنيا. في الأيام الخوالي، كان يتخطى وجبات الطعام لمجرد شراء بعض التسجيلات الجديدة للموسيقى الكلاسيكية.

حسنًا، لم يعطوه أي «بدل» للتسجيلات، وهو ما أطلقوا عليه «رفاهية شخصية». ولكن في نفس الاجتماع، صوتوا على أن تحصل ميلي بوش، ابنة أحدهم، كانت مزعجة وقبيحة تبلغ من العمر ثماني سنوات، على زوج ذهبي من مقوّم الأسنان من أجل أسنانها البارزة، باعتبار أنها كانت «حاجة طبية» لأن الطبيب النفسي العامل قال إن الفتاة المسكينة ستصاب بعقدة النقص إذا لم تقوّم أسنانها. وما حصل أن الرجل المسن الذي أحب الموسيقى اتجه لشرب الكحول بدلًا من ذلك، وأصبح يصعب رؤيته بكامل وعيه بعد ذلك. لكن يبدو أنه كان هناك شيء واحد لا يستطيع نسيانه. ففي إحدى الليالي، نزل الشارع مترنحًا ورأى ميلي بوش أمامه، ليدفع بقبضته إلى وجهها ويسقط كل أسنانها، كل واحد منهم.

كانت الكحول بالطبع هي ما نلجأ إليه جميعنا، البعض أكثر، والبعض الآخر أقل. لا تسألي كيف نحصل على المال اللازم لها. فحين تُمنع كل الملذات الطيبة دائمًا ما توجد سبل للحصول على الفاسدة منها. أنت لا تقتحم متاجر البقالة بعد حلول الظلام ولا تسرق من جيوب أقرانك من أجل شراء السمفونيات الكلاسيكية أو أدوات الصيد، ولكن إذا كان الأمر يتعلق بشرب الكحول والهيام في حالة السكر والنسيان، فأنت ستفعل ذلك. وسواء كان الأمر يتعلق بعدة صيد السمك؟ أم بنادق الصيد؟ أم الكاميرات الفوتوغرافية؟ أم الهوايات؟ فلم يكن هناك أي «بدل ترفيه» لأي شخص. كان «الترفيه» هو أول ما أسقطوه. أليس كان من المفترض

دائمًا أن نخجل من أن نعترض عندما يطلب منا أحد أن نتخلى عن أي شيء، إذا كان شيئًا يشعرك بالمتعة؟ حتى «بدل التبغ» خفضوّه إلى علبتي سجائر شهريًا، وهذا كما أخبرونا كان بسبب أن الأموال يجب أن تذهب إلى صندوق حليب الأطفال. كان الأطفال الرضع هم العنصر الوحيد في الإنتاج الذي لم ينخفض، بل ارتفع واستمر في الارتفاع؛ لأن الناس لم يكن لديهم ما يفعلونه، كما أظن، ولأنهم لم يكونوا مضطرين لأن يقلقوا بشأن هذا الأمر، فحمل مصاريف الطفل كانت تقع على عاتق «العائلة» وليس على عاتقهم. وفي الواقع، كانت أفضل فرصة متاحة لك للحصول على علاوة وأن تستريح لفترة من الوقت هي الحصول على «بدل الطفل». إما هذا، أو الإصابة بمرض خطير.

لم يستغرق الأمر وقتا طويلًا حتى بدأنا نبصر نتائج خطتهم برمتها. كان على المرء منا أن يرفض بنفسه كل شيء حتى يتصرف باستقامة. حيث فقدَ إحساسه بأي متعة، وكره مضغ قطعة من العلكة أو تدخين التبغ الذي تعادل قيمته نيكل واحد، قلقًا ما إذا كان شخص ما بحاجة هذا النيكل أكثر. كان يشعر بالخزي من كل لقمة طعام يتناولها، متسائلًا من الذي قضى ليالي مضنية من العمل الإضافي لدفع ثمنه، ومدركًا أن طعامه لم يكن ملكه بالحق، ومتمنيًا بيأس أن يتعرض للخداع بدلًا من أن يغش الآخرين، وأن يكون ساذجًا ومغفلًا، ولكن ليس محتالًا ومغتصبًا. ولن يقدم على الزواج، ولن يساعد ناسه في الوطن، ولن يلقِ عبئًا إضافيًا على

«العائلة». علاوةً على ذلك، إن كان ما يزال لديه نوع من الشعور بالمسؤولية، فلن يتمكن من الزواج أو إحضار الأطفال إلى العالم، حينما يعرف أنه لا يستطيع التخطيط لأي شيء، ولا التعهد بأي شيء، ولا الاعتماد على أي شيء. لكن عديمو التدبير وعديمو المسؤولية عثوا في الأمر بما اتسع لهم. فأنجبوا الأطفال، وأوقعوا الفتيات في المتاعب، وأتوا بكل قريب تافه لهم من جميع أنحاء البلاد، وكل أخت حامل غير متزوجة. وللحصول على «بدل إعاقة» إضافي، ازدادوا مرضًا بشكل يصعب على أي طبيب دحضه، وأتلفوا ملابسهم وأثاثهم ومنازلهم، لكن ما بحق الجحيم كانت تدفعه «العائلة» مقابل ذلك! لقد وجدوا طرقًا للوصول إلى الحاجة أكثر مما يمكن أن يتخيله بقيتنا قط، لقد طوروا مهارة خاصة لذلك، والتي كانت القدرة الوحيدة التي أظهروها.

ليكن الرب في عوننا، سيدتي! هل ترين ما رأيناه؟ رأينا أنهم منحونا قانونًا نعيش وفقه وأطلقوا عليه «قانونًا أخلاقيًّا»، والذي يعاقب أولئك الذين يتبعونه، لاتباعهم له. وكلما حاولت أنت أيها المرء أن ترتقي به زادت معاناتك، وكلما خنته أكثر حصلت على ثواب أكبر. كانت نزاهتك بمثابة أداة متروكة تحت رحمة خيانة جارك الآخر. دفع النزيهون الثمن، والغشاشون استحصلوا عليه. خسر النزيه وفاز الكاذب الغشاش. إلى متى يمكن أن يظل الأشخاص صالحين في ظل هذا النوع من قوانين الصلاح؟ كنا جماعة محترمة من الرفقاء عندما بدأنا. لم يكن هناك الكثير من

المحتالين بيننا. كنا نعرف ما هي وظائفنا وكنا فخورين بها وعملنا في أفضل مصنع من مصانع البلاد، حيثما لم يوظف المسن ستارنز سوى أفضل العمال في البلاد. لكن في غضون عام واحد من العمل تحت ظل الخطة الجديدة، لم يتبق شخص نزيه بيننا. كان هذا هو الشر، ذلك النوع من شر الجحيم المرعب الذي اعتاد الوعاظ على تخويفك به، ولكنك لم تكن لتتصور قط أن تشهده حيًا أمامك. وليس الأمر أن الخطة ساهمت في إظهار القليل من الأوغاد وحسب، بل حولت الأشخاص المحترمين إلى أوغاد، ولم يكن سينتج عنها شيء آخر سوى ذلك. بل وأطلقوا عليها مثل أخلاقي أعلى!

ما الذي كان من المفترض أن نرغب في العمل من أجله؟ قالوا من أجل حب إخوتنا. لكن أي أخوة؟ من أجل المتشردين والمتسكعين والعاطلين الذين نراهم من حولنا؟ وسواء كانوا يحتالون أو مجرد أنهم غير أكفاء، وسواء كانوا غير راغبين أو غير قادرين، فما الفارق الذي أحدثه هذا لنا؟ وإذا كنا مقيدين مدى الحياة بمستوى عدم كفاءتهم، سواء كان مزيفًا أم حقيقيًا، فإلى متى يمكننا الاستمرار في فعل ذلك؟ لم يكن لدينا أي سبيل لمعرفة قدراتهم، ولم يكن لدينا أي وسيلة للتحكم في احتياجاتهم، جلّ ما عرفناه هو أننا كنا دواب أحمال نكافح بشكل أعمى في مكان ما كان نصف مأوى ونصف حضيرة، مكان مهيأ لا لشيء سوى العجز والكوارث والأمراض، ووضعت فيه بهائم لتلبية أي شيء يختار أي

أحد أن يقول إنه كان احتياجًا.

حب إخوتنا؟ كان هذا عندما تعلمنا للمرة الأولى في حياتنا أن نكره إخوتنا. لقد بدأنا نكرههم على كل وجبة يتناولونها، وكل متعة صغيرة يستلذون بها، وعلى قميص جديد ابتاعه أحدهم، وعلى قبعة زوجة رجل آخر، وعلى نزهة مع عائلاتهم، وعلى طلاء منازلهم. لأنها كانت تؤخذ منا، لقد دفع ثمنها حرمان أنفسنا وإنكار ذواتنا وجوعنا. وحتى بدأنا في التجسس على بعضنا بعضًا، وكل منا يأمل في الإطاحة بالآخرين وهم يكذبون بشأن احتياجاتهم، وذلك حتى نساهم في قطع «البدلات» عنهم في الاجتماع المقبل. حتى أننا بدأنا في الحصول على وشاة يتتبعون شؤون الناس، والذين أفادوا ذات مرة بأن شخصًا ما تمكن من تهريب ديك رومي لعائلته في أحد أيام الأحد، وهو شيء ما كان ليدفع ثمنه عن طريق المقامرة على الأرجح. وأخذنا نتدخل في حياة بعضنا بعضًا. وأثرنا الخلافات العائلية لطرد أقارب أحدهم. وفي أي مرة نرى فيها رجلًا يبدأ بالاستقرار مع فتاة ما، نسارع بجعل حياته جحيم بائس. كما أننا تسببنا في فسخ العديد من العلاقات والزيجات، كنا لا نريد أحدًا أن يتزوج، ولا نريد إطعام المزيد من المُعالين.

في الأيام الخوالي، كنا نحتفل إذا رُزق أحدهم بطفل، واعتدنا أن نساهم ونساعده في دفع فواتير المستشفى في حال كان يمر بصعوبات مالية خلال ذلك الوقت. والآن، إذا ولد طفلًا لأحدهم

لم نتحدث إلى الوالدين لأسابيع. بحيث غدا الأطفال بالنسبة إلينا مثل الجراد للمزارعين. في الأيام الخوالي، اعتدنا على مساعدة الشخص إذا اشتكى أحد أفراد أسرته من مرض جسيم. والآن، حسنًا دعيني أخبرك بحالة واحدة عن والدة رجل كنا نعرفها منذ خمسة عشر عامًا. كانت سيدة عجوز لطيفة، مرحة وحكيمة، وتعرفنا جميعًا بأسمائنا الأولى، وكلنا أحببناها، أو بالأصح اعتدنا أن نحبها. ذات يوم انزلقت هذه السيدة على درج القبو وسقطت وكسرت أحد وركيها. لقد عرفنا ما يعنيه ذلك لشخص في سنها. قال الطبيب العامل أنه لابد من إرسالها إلى أحد مستشفيات المدينة، لتلق علاجات مكلفة قد تستغرق فترة طويلة. لكن السيدة العجوز توفت في الليلة التي تسبق موعد مغادرتها. لم يثبتوا إطلاقًا سبب الوفاة. كلا، لا أعرف ما إذا كانت قد قُتلت أم لا. لم يذكر أحد ذلك. ولن يتحدث عنه أحد على الإطلاق. كل ما أعرفه هو – وهذا ما لا أستطيع أن أنساه! – أنني، أنا أيضًا، وجدت نفسي متمنيًا لها الموت. وكان هذا- ليسامحنا الرب! – الأخوة والأمن والرخاء الذي كان من المفترض أن تحققه الخطة من أجلنا!

هل كان هناك أي سبب يجعل أي شخص يدعو إلى بث هذا النوع من الرعب؟ هل كان هناك من انتفع منه؟ نعم. وهم ورثة ستارنز. آمل ألا تقولين لي بأنهم قد ضحوا بثروة طائلة وسلموا المصنع إلينا كهبة ستعود علينا بالنفع. لقد خُدعنا بهذا أيضًا. نعم، لقد تخلوا عن المصنع. لكن نوع الربح، يا سيدتي، يعتمد على ما

يسعى الشخص وراءه. وما كان ورثة ستارنز يسعون وراءه لا يمكن لأي مال على وجه الأرض شراؤه. فالمال طاهر وبريء على ذلك.

إريك ستارنز، الأبن الأصغر، كان صاحب شخصية ضعيفة بحيث لم يكن لديه الشجاعة للسعي وراء أي شيء بعينه. وكان قد أُنتخب مديرًا لقسم العلاقات العامة في الشركة، ولم يفعل شيئًا باستثناء أنه كان لديه موظفين لعدم القيام بأي شيء، لذلك لم يكن مضطرًا لتكليف نفسه بالبقاء في المكتب. كان الأجر الذي يحصل عليه- حسنًا، لا يجوز أن أسميه «أجرًا» ولم يكن أي منًا يحصل على «أجر» على أية حال- كانت الصدقات التي قُررت له متواضعة إلى حد ما، حوالي عشرة أضعاف ما كنت أحصل عليه، لكن هذا لم يكن ثراءً. كان إريك لا يهتم بالمال، ولم يكن ليعرف ماذا يفعل به. كان يمضي وقته متسكعًا بيننًا، ويظهر كم كان ودودًا وديمقراطيًا. يبدو أنه أراد أن يكون محبوبًا. وكانت الطريقة التي اتبعها في الأمر هي تذكيرنا باستمرار بأنه أعطانا المصنع. لم نستطع أن نطيقه.

كان جيرالد ستارنز يشغل منصب مدير الإنتاج في الشركة. لم نعرف أبدًا كم كان حجم مكاسبه غير الشرعية – بالأصح حجم الصدقات التي كان يتلقاها- وكان سيتطلب الأمر فريقًا من المحاسبين لمعرفة ذلك، وفريقًا من المهندسين لتتبع الطريقة التي كانت تُستخدم لنقلها، بشكل مباشر أو غير مباشر، إلى مكتبه. ولم يكن من المفترض أن يكون أيًا منها ملكه له، فقد كانت كلها تُدفع

لتغطية نفقات الشركة. كان لديه ثلاث سيارات، وأربع سكرتيرات، وخمسة هواتف، وكان يقيم حفلات الشمبانيا والكافيار التي لم يكن بمقدور أي ملياردير في البلاد يدفع ضرائبه تحمل تكاليفها. لقد أنفق أموالًا في عام واحد أكثر مما جناه والده في العامين الأخيرين من حياته. رأينا ذات مرة كومة من المجلات تزن مائة رطل- نعم لقد وزناها وكانت تزن مائة رطل- في مكتب جيرالد مليئةً بالقصص التي تتحدث عن مصنعنا وخطتنا النبيلة، مع صور كبيرة لجيرالد ستارنز، تصفه بالمناضل الاجتماعي العظيم. كان جيرالد يحب أن يأتي إلى المتاجر ليلًا مرتديًا ملابسه الرسمية، مع أزرار أكمامه الألماسية المشعة التي بحجم النيكل، وناثرًا رماد سيجاره في كل مكان. فأي متباه رخيص ليس لديه شيء يتباهى به سوى نقوده هو رجل يتمتع بالفساد الكافي، غير أنه لا يخفي بأن النقود ملكه، وأنت حر في الوقوف على أمره أو لا، كما يحلو لك، لكنك في الغالب لن تفعل ذلك. ولكن عندما يعمد شخص وغد مثل جيرالد ستارنز إلى التظاهر ويستمر في التفوه بأنه لا يكترث بالثروة المادية، وأنه لا يخدم سوى «العائلة»، وأن كل هذا العناء الذي يكابده ليس من أجله، بل من أجلنا ومن أجل الصالح العام؛ لأنه من الضروري الحفاظ على هيبة الشركة والخطة النبيلة في أعين العامة، عندها تتعلم أن تكره هذا المخلوق كما لو لم تكره أي بشري من قبل.

ولكن أخته آيفي كانت الأسوأ. كانت لا تهتم فعلًا بالثروة

المادية. والصدقات التي تحصل عليها لم تكن أكبر من الصدقات التي نتلقاها. وكانت دائمًا ما تتجول في أحذية مسطحة وقمصان بالية فقط لتظهر شدة ما كانت عليه من الغيرية. كانت مديرة التوزيع في الشركة. وكانت السيدة المسؤولة عن احتياجاتنا، وهي من تمسكنا من رقابنا. بالطبع، كان من المفترض أن يتم التوزيع الصدقات عن طريق التصويت، عن طريق أصوات الناس. ولكن عندما يكون الناس ستة آلاف صوت يعوي في محاولة لاتخاذ قرار بدون معيار أو منطق أو مبرر، وعنما لا توجد قواعد للعبة ويمكن لكل شخص المطالبة بأي شيء ولكن ليس له الحق في أي شيء، وعندما يكون لدى الجميع سلطة على حياة الجميع باستثناء حياته، سيتضح عندها، كما حدث بالفعل، أن صوت الناس هو صوت آيفي ستارنز. بحلول نهاية العام الثاني، أسقطنا ما ندعوه بـ «الاجتماعات العائلية» - تحت ذريعة «توفير الوقت وكفاءة الإنتاج»، والتي كان الاجتماع الواحد فيها يستغرق عشرة أيام- وكانت جميع التماسات الحاجة قد أرسلت ببساطة إلى مكتب الآنسة ستارنز. كلا، لم تُرسل. كان يجب أن يتلوها عليها كل مُلتمس شخصيًا. ومن ثم أعدت قائمة توزيع قرأتها علينا من أجل أن نصوت عليها بالموافقة في اجتماع دام ثلاثة أرباع الساعة. وبالطبع صوتنا بالموافقة. كانت هناك فترة عشر دقائق على جدول الأعمال للمناقشة وتقديم الاعتراضات. لم نتقدم بأي اعتراض. فبحلول ذلك الوقت كنا قد استوعبنا الأمور بصورة أفضل. وهو بما أنه لا أحد يستطيع تقسيم دخل مصنع بين آلاف الأشخاص بدون نوع

من المقياس يعتمد عليه في تحديد القيمة، كان المقياس الذي تعتمد عليه آيفي هو التملق والتذلل. وتدعو نفسها إيثاريّة؟ في زمن والدها، ما كانت كل أمواله لتمنحه فرصة التحدث إلى أهون عامل نظافة بالطريقة التي تتحدث بها هي مع أفضل عمّالنا المهرة وزوجاتهم، والإفلات من ذلك. كانت لها عينين شاحبتين تبدوان مريبة وباردة ومميتة. وإذا ما أردتِ يومًا ما أن تري الشر المحض والخالص، كان عليكِ أن تري الطريقة التي ومضت بها عينيها عندما ردّ عليها رجلًا بوقاحة ذات مرة، والذي كان قد سمع للتو اسمه في قائمة أولئك الذين لا يحصلون على أي شيء فوق الأجر الزهيد الأساسي. فرؤية هذا يجعلكِ ترين الدافع الحقيقي لدى كل شخص سبق أن نادى بشعار: «كلٌ حسب قدرته، وكلٌ حسب حاجته».

كان هذا هو سر الأمر برمته. في البداية، ظللت أتساءل أنّى للمتعلمين والمثقفين والشخصيات المعروفة في العالم أن يرتكبوا خطأ بهذا الحجم، وأن ينادوا، من باب الصلاح والعدل، بمثل هذا النوع من الفظاعة والشناعة، في حين أن خمس دقائق من التفكير كفيلة بإخبارهم بما سيحدث إذا حاول شخص ما ممارسة ما ينادون به. والآن أدرك أنهم لم يقدموا على فعل ذلك بأي شكل من أشكال الخطأ. فأخطاء بهذا الحجم لا تُرتكب عن سذاجة إطلاقًا وعن غير قصد. إذا وقع الرجال في شر من شرور الجنون واللامعقول، فعندما لا يكون لديهم طريقة لتداركه ولا تبرير ممكن يفسر

اختيارهم، فذلك لأن لديهم من الأسباب ما لا يرغبون في إخباره. حتى نحن كنّا نضمر نية خبيثة عندما صوتنا لصالح هذه الخطة في الاجتماع الأول. ولم نفعل ذلك لمجرد أننا ظننا أن الهراء القديم والسيء الذي ألقوه كان قولًا حسنًا. كان لدينا سبب آخر، لكن هرائهم هذا ساعدنا على إخفائه عن جيراننا وعن أنفسنا. وأعطانا فرصة أن نمرر أمرًا كنا لنشعر بالخزي بالاعتراف به على أنه فضيلة. وهي حقيقة أنه لم يكن هناك شخص يصوت لصالح الخطة ولم يفكر أنه في ظل نظام من هذا النوع سيكون قادرًا على الاستفادة من أرباح الشخص الأقدر منه. لم يكن هناك إنسان غني وذكي بما فيه الكفاية غفل عن حقيقة أنه يوجد هناك من يفوقه ثراءً وذكاءً وأن هذه الخطة من شأنها أن تمنحه نصيبًا من ثروة وعقل هذا الأحسن منه. ولكن بينما كان يفكر في أنه سيحصل على أرباح لم يتعب في اكتسابها من الأشخاص الذين أعلى منه، فقد نسي الأشخاص الذين هم أدناه والذين سيحصلون على أرباح غير مُكتسبة أيضًا. لقد نسي بشأن كل من هم أدناه والذين سيسارعون إلى استنزافه تمامًا كما كان يأمل هو في استنزاف من أعلى منه. والعامل الذي أحب فكرة أن حاجته تخول له الحصول على سيارة ليموزين مثل رئيسه، نسي أن كل متشرد ومتسول على وجه الأرض سيأتي صارخًا أن حاجته تخول له الحصول على ثلاجة مثله. كان هذا هو دافعنا الحقيقي عندما صوتنا- كانت هذه هي الحقيقة- لكننا لم نرغب في التفكير في الأمر بهذه الطريقة. لذلك كلما قل إعجابنا بها، صرخنا بصوت أعلى عن حبنا للصالح العام.

حسنًا، حصلنا على ما طلبناه. وبحلول الوقت الذي رأينا فيه ما هو ذاك الذي طلبناه، كان الأوان قد فات. كنا محاصرين ودون مكان نذهب إليه. وكان قد غادر أحسن الأشخاص بيننا المصنع في الأسبوع الأول من الخطة. وخسرنا أفضل المهندسين لدينا والمشرفين والمدراء والعمال من ذوي المهارات العالية. فالشخص الذي يحترم ذاته لا يتحول إلى بقرة حلوب لأي شخص. وقد حاول بعض الرفقاء المقتدرين والأقوياء الصمود والبقاء، لكنهم لم يتمكنوا من التحمل لفترة طويلة. ظللنا نفقد رجالنا لأنهم استمروا في الهروب من المصنع كما لو كانوا يهربون من نوعٍ من الوباء القاتل، حتى لم يتبق لنا سوى أصحاب الحاجة، ولم يتبقَ أحد من أصحاب القدرة.

والقلة منا الذين كانوا ما يزالون خيّرون لكنهم بقوا في المصنع، كانوا من أولئك الذين قضوا فترة طويلة يعملون هناك. ففي الأيام الخوالي، لم يسبق لأحد أن استقال من الشركة قط، وعلى نحو أو آخر لم يكن بوسعنا أن نصدق أن ذاك الوقت الذهبي قد ولى. وبعد مدة لم يكن بوسعنا أن نستقيل لأنه لن يستقبلنا أي صاحب عمل آخر، ولا يمكنني أن ألومه على ذلك. فلن يود أي أحد أن يتعامل معنا بأي شكل من الأشكال، لا أي شخص محترم، ولا أي شركة محترمة. وجميع المتاجر الصغيرة التي كنا نتاجر معها، بدأ أصحابها في الخروج من ستارنسفيل على وجه السرعة، حتى لم يتبق لنا شيء في المدينة سوى الخمارات وحانات القمار والمحتالين الذين أخذوا

يبيعون لنا القمامة بأسعار باهظة. استمرت الصدقات التي نحصل عليها في الانخفاض لكن تكاليف معيشتنا أخذت ترتفع. واستمرت قائمة المحتاجين في المصنع في الاتساع، لكن قائمة عملائه أخذت تضيق. وأصبح هناك دخل أقل وأقل لتقسيمه بين المزيد والمزيد من الناس. في الماضي، كان يُقال إن العلامة التجارية لشركة «توينتث سينتوري موتور» كان لها وزنها الثقيل مثل وزن القيراط في الذهب. لا أدري ما الذي فكر فيه ورثة ستارنز، إذا كانوا أصلًا قد فكروا على الإطلاق، لكنني أفترض أنهم كمثل جميع المخططين الاجتماعيين والهمجيين، ظنوا أن هذه العلامة التجارية كانت بمثابة ختم سحري يعمل عمله من خلال نوع من التعويذات والتمائم، وأنه من شأنها أن تبقيهم أغنياء، كما فعلت مع والدهم. حسنًا، عندما بدأ عملاؤنا يرون أننا لم نسلم البتّة طلبية في الوقت المحدد ولم ننتج محركًا يخلو من أي عيب، بدأ الختم السحري يعمل بطريقة معاكسة، بحيث أن الناس أصبحوا يمتنعون حتى من اتخاذ محركًا كهدية إذا كان علامته «توينتث سينتوري». ووصل الأمر إلى حيث أصبح فئة عملاؤنا الوحيدة من الأشخاص لم يدفعوا فواتيرهم أبدًا ولم يعتزموا فعل ذلك بتاتًا. لكن جيرالد ستارنز، المهووس بشهرته وصيته، استشاط غضبًا وأخذ يراوغ في جو من التفوق الأخلاقي، مطالبًا أصحاب الأعمال بتقديم طلبات الإنتاج لنا، ليس لأن محركاتنا كانت جيدة، ولكن لأننا كنا في «حاجة ماسة» تستدعي منهم أخلاقيًا التعاون معنا.

بحلول ذلك الوقت، كان بوسع نصف سكان البلدة أن يروا ما تظاهرت أجيال من الأساتذة عدم ملاحظته. ما فائدة الحاجة إلى محطة توليد الطاقة عندما تتوقف مولداتها عن العمل بسبب محركاتنا المعيبة؟ أي فائدة سيتلقاها طبيبًا على طاولة العمليات الجراحية عند انقطاع الضوء الكهربائي؟ أي فائدة سيتلقاها ركاب طائرة عند تعطل محركها في الجو؟ وإذا ما ابتاع هؤلاء منتجنا، ليس بسبب جودته ولكن بسبب احتياجنا، فهل هذا هو التصرف الأخلاقي والصحيح والخيّر الذي يجب القيام به مع مالك محطة الطاقة تلك، والجراح في ذلك المستشفى؟ وصانع تلك الطائرة؟

ومع ذلك، كان هذا هو القانون الأخلاقي الذي أراد الأساتذة والقادة والمفكرون ترسيخه في جميع أنحاء العالم. إن كان هذا وقعه على بلدة صغيرة واحدة حيث كنا نعرف جميعًا بعضنا بعضًا، فهل يهمكِ التفكير فيما قد يفعله على نطاق عالمي؟ هل يهمكِ تصور كيف سيكون الحال إذا كان عليكِ العيش والعمل في حين أنكِ مربوطةً بجميع حالات التمارض والكوارث التي تحدث في العالم؟ أن تعملي وكلما فشل أي شخص في أي مكان أنتِ هو من عليه أن يعوض عن ذلك. أن تعملي وبدون أن تحظي بفرصة الارتقاء، بمأكلك وملبسك وسكنك ومتعتك، تبعًا لحدوث أي احتيال وأي مجاعة وأي وباء في أي مكان في العالم. أن تعملي وبدون أن تحظي بفرصة الحصول على حصص مؤن إضافية، إلى أن يُطعم الكمبوديين ويرسل الباتاغونيون إلى الجامعة. أن تعملي بشيك على

بياض يحتفظ به كل مخلوق يولد وأشخاصًا لن تريهم في حياتكِ أبدًا، والذين لن تعرفي احتياجاتهم أبدًا، والذين لا تملكين طريقة تعرفين بها قدرتهم أو كسلهم أو إهمالهم أو احتيالهم، وليس لديكِ الحق في التشكيك بشأنها- العمل والعمل ليس إلا- وأن تتركي الأمر بأيدي الأشخاص من أمثال آيفي وجيرالد الموجودين في العالم ليقرروا من ستستهلك معدته مجهودكِ وأحلامكِ وأيام حياتكِ. هل هذا القانون الأخلاقي الذي ينبغي له قبوله؟ هل هذا مثل أخلاقي أعلى؟

حسنًا، لقد جربناه وتعلمنا. واستمرت معاناتنا أربع سنوات، من اجتماعنا الأول حتى الأخير، وانتهى بالطريقة الوحيدة الممكنة لانتهائه: ألا وهو الإفلاس الكامل. في اجتماعنا الأخير، كانت آيفي ستارنز هي من حاولت أن تنكر ما حصل بوقاحة وإصرار. وألقت خطابًا قصيرًا وبذيئًا وغليظًا ذكرت فيه أن الخطة قد فشلت لأن بقية البلاد لم تقبل العمل وفقها، وأن مجتمعًا واحدًا يستحال أن ينجح تحت ظل عالم أناني وشجع، وأن الخطة كانت مثل أعلى نبيل لكن الطبيعة البشرية لم تكن جيدة بما فيه الكفاية لاحتوائها. حينها نهض شاب صغير- الشخص الذي عوقب بسبب أنه أعطانا فكرة مفيدة في عامنا الأول- بينما كنا جميعا نجلس بصمت، وسار مباشرة نحو أيفي ستارنز الواقفة على المنصة، ولم يقل شيئًا غير أنه بصق في وجهها. كانت تلك نهاية الخطة النبيلة ونهاية شركة «تونتث سينتوري».

الطبيب المنسي تحت ظل الطب المؤمم

هذا هو التفسير الذي قدمه جراح مخ بارع للسبب الذي جعله ينضم إلى الإضراب الذي ترأسه غالت.

«قال الدكتور هندريكس: «لقد استقلت عندما وُضع الطب تحت سيطرة الدولة قبل بضع سنوات. هل تعرف ما الذي يتطلبه إجراء عملية دماغ؟ هل تعرف نوع المهارة التي يتطلبها فعل ذلك والسنوات المؤلمة والقاسية من التفاني التي تمضيها في اكتساب هذه المهارة؟ هذا ما لن أضعه تحت تصرف الأشخاص الذي كانت أهليتهم الوحيدة لبسط حكمهم عليّ هي قدرتهم على إطلاق العموميات المضللة التي كانت سببًا في أن يعطيهم الآخرين إمكانية فرض رغباتهم وتنفيذها تحت تهديد السلاح. ما كنت لأسمح لهم بإملاء الغاية التي قضيت من أجلها سنوات الدراسة، أو شروط عملي، أو اختياري للمرضى، أو مقدار مكافئتي. لقد لاحظت أنه في جميع المناقشات التي سبقت استعباد الطب، ناقش الناس كل شيء باستثناء رغبات الأطباء أنفسهم. واقتصر نظرهم على «رفاهية» المرضى، دون التفكير فيمن سيقدمونها. كانوا يعدونها أنانية ليس لها بمكان أن يكون للطبيب أي حق أو رغبة أو اختيار في الأمر؛ قالوا إنّهُ من غير المسموح له بأن يختار وعليه فقط أن «يخدم». لكن الإنسان المستعد للعمل تحت وطأة الإكراه هو غاشم بالغ الخطورة لا يصلح حتى أن يعمل في حظائر الماشية، ولم يخطر هذا ببال أولئك الذين اقترحوا مساعدة المرضى من خلال جعل

الحياة مستحيلة على الأصحاء. كثيرًا ما تساءلت عن هذا الاعتداد المفرط بالنفس الذي يصر من خلاله الناس على حقهم في استعبادي، والسيطرة على عملي، وإجبار إرادتي، وانتهاك ضميري، وكبح عقلي. ورغم كل هذا، ما الشيء الذي يعولون عليه عندما يستلقون على طاولة العمليات تحت يدي؟ لقد علمتهم مدونتهم الأخلاقية أن يؤمنوا أنه لا ضير من الاعتماد على فضائل ضحاياهم. حسنًا، هذه هي الفضيلة التي تراجعت عن فعلها. ودعهم يكتشفون نوع الأطباء الذين سينتجه نظامهم الآن. ودعهم يكتشفون، في غرف العمليات وأجنحة المستشفى، أنه ليس آمنًا أن يضعوا حياتهم بين يدي رجل ضيقوا خناق العيش عليه. ليس آمنًا إذا كان هذا الرجل من النوع الذي يمقت ما يجري ويرفضه، وما يزال أقل أمانًا إذا كان من النوع الذي لا يفعل ذلك».

في طبيعة الفنان

هذا مقتطف من محادثة بين داكني تاكارت، بطلة القصة، وريتشارد هالي، موسيقي وملحن كبير مشارك في الإضراب.

«آنسة تاكارت، كم عدد الأشخاص الذي يقدّرون عملي بقدر ما تفعلين؟ هذا هو المقابل الذي أطلبه. ولا يستطيع الكثير تقديمه. ولا أعني استمتاعك، ولا أعني مشاعرك- اللعنة على المشاعر! - وإنما أعني معرفتكِ وحقيقة أن استمتاعك كان يتمتع بنفس طبيعة استمتاعي، وأنه جاء من نفس المصدر: من عقلكِ، ومن الحكم

الواعي لعقل قادر على تقييم عملي وفقًا لمعايير نفس القيم التي تجلت في أعمالي. وأعني بكلامي حقيقة أنك شعرتِ بما كنت أتمنى أن تشعري به وليس مجرد أنك شعرتِ، وحقيقة أنكِ أعجبتِ بالأشياء التي كنت أتمنى أن تنال الإعجاب وليس حقيقة أنك أعجبتِ بالعمل... هناك شعور عارم بين معظم الفنانين يفوق رغبتهم في أن ينال عملهم الإعجاب: وهو خوفهم من تحديد طبيعة هذا الإعجاب الذي يتلقونه. لكنه خوف لم أشاركه مع الآخرين قط. أنا لا أخدع تفسي بما يخص عملي أو الاستجابة التي أسعى ورائها، فأنا أقدر كليهما بشدة. ولا يهمني أن أكون محل إعجاب لسبب عاطفي أو بديهي أو غريزي أو أعمى أو غير مبرر. لا أحفل بالتَّعامِي (الجهالة وعدم الإدراك) بأي شكل من الأشكال، فلدي الكثير لأظهره، أو لدي الكثير لأقوله، أمام ما يُمارس من طَرَش. لا يهمني أن أنال الإعجاب بقلب أي أحد، وإنما أن أناله بعقل أحدهم. وعندما أجد عميلاً يتمتع بهذه القدرة النفيسة، فإن أدائي هو تجارة متبادلة من أجل ربح متبادل. فالفنان هو تاجر أيضًا آنسة تاكارت، بل وأكثرهم تشددًا وتطلبًا...

هل ترين لم سأتخلى عن ثلاثين من الفنانين المعاصرين مقابل صاحب عمل واحد حقيقي؟ سواء أ كانت سيمفونية أو منجم فحم، فإن كل عمل هو عمل إبداعي ويأتي من نفس المصدر: من قدرة المرء غير المُنتهكة على الرؤية من خلال عينيه، مما يعني القدرة على أداء الإدراك والتمييز العقلاني، مما يعني القدرة على رؤية ما لم يُرى والتوصل إلى ما لم يُتوصل إليه وصنع ما لم يُصنع من قبل.

وتلك الرؤية المشرقة التي يتحدثون عنها على أنها تنتمي إلى مؤلفي السيمفونيات والروايات، ما برأيهم القوة الدافعة للأشخاص الذين يكتشفون كيفية استخدام النفط وكيفية تشغيل منجم وكيفية صنع محرك كهربائي؟ وتلك النار المقدسة التي يقال إنها تشتعل في نفوس الموسيقيين والشعراء، ما الذي يفترضون أن يدفع الصناعيّ إلى تحدي العالم كله من أجل معدنه الجديد، كما فعل مخترعو الطائرة، وبناة السكك الحديدية، ومكتشفي الجراثيم أو القارات الجديدة عبر كل العصور؟ أهو تفانٍ شديد في السعي وراء الحقيقة يا آنسة تاكارت؟ هل سمعت الأخلاقيين ومحبي الفن عبر القرون يتحدثون عن تفاني الفنان الشديد في السعي وراء الحقيقة؟ أعطيني مثالًا على هذا التفاني أعظم من فعل المرء الذي يقول إن الأرض تدور، أو فعل المرء الذي يقول إن سبيكة من الفولاذ والنحاس لها خصائص محددة تمكنها من القيام بأشياء معينة، أي أن يحدد الشيء ويحدد فعله. دع العالم يقضي على هذا المرء أو يفسده، لكنه لن يكذّب أدلة عقله! هذا يا آنسة تاكارت، هذا النوع من الروح والشجاعة وحب الحقيقة، تأتي في مقابل نوع الفنان المتبطّل التافه والقذر الذي يحوم مؤكدًا بفخر أنه أوشك على بلوغ الكمال في العته، والذي ليس مقيدًا بمفاهيم جِلفة وغليظة مثل «الوجود» أو «المعنى» لأنه ليس لديه أدنى فكرة عما هو عمله الفني أو ما يعنيه، والذي يكون أداة مسخرةً للأسرار الأعلى، ولا يعرف كيف ابتكر عمله أو لماذا، وكل ما في الأمر أنه خرج منه تلقائيًا مثل خروج القيء من فاه السكير، فهو لم يفكر، ولن يتنازل إلى التفكير، بل هو

شعر به وحسب، وكل ما عليه فعله هو أن يشعر، هذا الحقير الإمعة والمتزعزع والنتن والمراوغ والثرثار والمتخاذل! أنا الذي أعرف ما الانضباط والجهد والتوتر الذهني ومشقة الوصول إلى الوضوح الذهني التام الذي يخوضها المرء لإنتاج عمل فني، أنا الذي يعرف أن الأمر يتطلب عملًا شاقًا ومضن يجعل السجن يبدو مكانًا للراحة، ويتطلب شدة وقسوة لا يستطيع أن يفرضها أي رقيب جيش سادي على جنوده. سأتخذ عامل التشغيل في أي منجم للفحم على أي شخص يدعي أنه أداة متحركة للأسرار الأعلى. فهذا العامل يعرف أنه ليست مشاعره هي التي تجعل عربات الفحم تتحرك تحت الأرض، وهو يعرف ما الذي يجعلها تتحرك. المشاعر؟ أوه نعم، نحن نشعر، هو وأنت وأنا، وفي الواقع نحن الوحيدون القادرون على الشعور، ونعرف مصدر مشاعرنا. لكن ما لم نعلمه وتأخرنا في تعلمه لفترة طويلة هو طبيعة أولئك الذين يدّعون أنهم لا يستطيعون توضيح مشاعرهم. لم نكن نعرف ما يشعرون به. ونحن نتعلمه الآن. لكنه كان خطأ مكلفًا. وأولئك الأكثر ذنبًا في هذه المسألة سيدفعون أقسى ثمن، كما يجب عليهم من باب العدالة. كان الفنانون الحقيقيون هم من لهم الذنب الأكبر، وسيرون الآن أنهم أول من سيتعرضون للإبادة وأنهم مهدوا الغلبة لمدمريهم من خلال المساعدة في تدمير حماتهم الوحيدين. فإذا كان هناك أحمق أشد جهلًا من صاحب الأعمال الذي لا يعرف أنه المُمثل عن أعلى روح إبداعية لدى الإنسان، فهو الفنان الذي يظن أن صاحب الأعمال هو عدوه».

جون غالت يتحدث

هذه هي الفلسفة الموضوعية

«سيداتي سادتي» قالها صوت صادر من جهاز الاستقبال الإذاعي، صوت رجل واضح وهادئ وثابت، ذلك النوع من الصوت الذي لم يُسمع على الإذاعة طيلة أعوام، السيد طومسون لن يتحدث معكم الليل، لقد انتهى وقته. وتوليت الأمر من هنا. كنتم على وشك أن تسمعوا تقريرًا عن الأزمة العالمية. وهذا ما ستسمعونه...

طيلة اثني عشر عامًا، كنتم تتساءلون من هو جون غالت؟ إنه جون غالت من يتحدث. أنا المرء الذي يحب حياته. أنا المرء الذي لا يضحي بحبه أو بقيمه. أنا المرء الذي حرمكم من الضحايا وبالتالي دمر عالمكم، وإذا كنت ترغبون في معرفة سبب هلاككم- أنتم يا من تخشون المعرفة- فأنا الرجل الذي سيخبركم بذلك الآن...

لقد سمعتم إننا نشهد عصر أزمة أخلاقية. لقد قتلتموها بأنفسكم، ونصفكم في خوف ونصفكم في أمل أن هذه الكلمات ليس لها أي معنى. لقد صرختم بأن خطايا الإنسان تدمر العالم ولعنتم الطبيعة البشرية لامتناعها عن ممارسة الفضائل التي

طلبتموها. وبما أن الفضيلة بالنسبة إليكم تتكون من التضحية، فقد طالبتم بالمزيد من التضحيات مع توالي الكوارث. وباسم العودة إلى الأخلاق، ضحيتم بكل تلك الشرور التي اعتبرتموها سببًا لمحنتكم. لقد ضحيتم بالعدالة من أجل الرحمة، وضحيتم بالاستقلالية من أجل الوحدة، وضحيتم بالعقل من أجل الدين، وضحيتم بالثروة من أجل الحاجة، وضحيتم بالاعتزاز بالذات من أجل إنكار الذات. وضحيتم بالسعادة من أجل الواجب الأخلاقي.

لقد دمرتم كل ما اعتبرتموه شرًّا وحققتم كل ما اعتبرتموه خيرًا. لماذا إذن تنتفضون مذعورين من منظر العالم من حولكم؟ فهذا العالم ليس نتاج خطاياكم، إنه نتاج فضائلكم وصورتها. إنه نموذجكم الأخلاقي الذي أُحضر إلى الواقع بصورته الكاملة والنهائية. لقد قاتلتم من أجله، وحلمتم به، وتمنيتموه، وأنا، أنا الرجل الذي حقق أمنيتكم.

كان لنموذجكم الأخلاقي عدو لدود، وهو ما كانت مدونتكم الأخلاقية مصممة على تدميره. لكنني سحبت ذلك العدو من أمامكم. وأزحته عن طريقكم وبعيدًا عن متناول أيديكم. وأزلت مصدر كل تلك الشرور التي كنت تضحي بها واحدًا تلو الآخر. وأنهيت معركتكم، وأوقفت محركاتكم عن العمل. لقد حرمت عالمكم من العقل الإنساني.

أتقولون إنّ الأفراد لا يعيشون من خلال العقل؟ لقد عزلت

أولئك الذين يفعلون ذلك. أتقولون إنّ العقل قاصر؟ لقد عزلت أولئك الذين عقولهم ليست كذلك. أتقولون إنّ هناك قيم تفوق العقل؟ لقد عزلت أولئك الذين يخالفون ذلك.

بينما كنتم تجرون أصحاب العدل والاستقلالية والعقل والثروة وتقدير الذات إلى مذابحكم القربانية، سبقتكم ووصلت إليهم أولًا. أخبرتهم عن طبيعة اللعبة التي كنتم تلعبونها وطبيعة مدونتكم الأخلاقية التي تتبنونها، والذين قبلوها بسخاء وعن سلامة نيّة. لقد بينت لهم طريقة العيش وفق مبادئ أخلاقية أخرى، مبادئي أنا. ومدونتي الأخلاقية هي التي اختاروا اتباعها.

إنّ كل الرجال الذين اختفوا من عالمكم، الرجال الذين أكننتم لهم البغض ومع ذلك خشيتم أن تخسروهم، أنا من أخذتهم منكم. لا تحاولوا أن تعثروا علينا. ولا نختار أن يُعثر علينا. ولا تصرخوا بأنه من واجبنا خدمتكم. نحن لا نعترف بمثل هذا الواجب. ولا تصرخوا بأنكم في حاجتنا. نحن لا نعتبر الحاجة حجة ومطلبًا. لا تصرخوا بأننا ملك لكم. أنتم لا تملكوننا. ولا تتوسلوا إلينا بالعودة. نحن مضربون، نحن، أصحاب العقل.

نحن مضربون ضد التضحية بالنفس. نحن مضربون ضد مبدأ المكافآت التي تُمنح دون أن يكتسبها صاحبها والخدمات التي تقدم دون أن يُكافأ عنها. نحن مضربون ضد العقيدة القائلة بأن سعي المرء وراء سعادته هو شر. نحن مضربون ضد المذهب القائل بأن العيش ذنب وخطيئة.

هناك فارق بين إضرابنا وكل ما مارستموه على مدى قرون من الزمن: إضرابنا لا يقوم على تقديم المطالب، بل على منحها. نحن أشرار حسب مبدأكم الأخلاقي. لذا أخترنا ألا نلحق بكم الأذى بعد الآن. نحن عديمو النفع حسب أنظمتكم الاقتصادية. لذا اخترنا عدم استغلالكم بعد الآن. نحن خطرون ويجب أن نكون مكبلين حسب سياستكم. لذا اخترنا ألا نعرضكم للخطر وألا نُكبّل بالأغلال بعد الآن. نحن مجرد وهم حسب فلسفتكم، لذا اخترنا ألا نعميكم بعد الآن وتركنا لكم الحرية في مواجهة الواقع، الواقع الذي تريدونه، والعالم كما تشاهدونه الآن، والذي هو عالم يخلو من العقل.

لقد حققنا لكم كل ما طلبتموه منا، نحن الذين كنا دائمًا المعطاءين، لكننا ما أدركنا ذلك إلا الآن. ليس لدينا مطالب لنقدمها لكم، ولا شروط نتفاوض عليها، ولا تسويات نتوصل إليها. ليس لديكم ما تقدمونه لنا. فنحن لا نحتاجكم.

هل تصيحون الآن (لا)، ألم يكن هذا ما تريدوه؟ ألم يكن إقامة عالم طائش من الخراب هو هدفكم؟ ألم تريدوا منا أن نترككم؟ أنتم أيها المنحلين أخلاقيًا، أعلم أنكم كنتم دائمًا تعرفون ما تريدونه. لكن لعبتكم انتهت، لأننا بتنا نعرفها الآن أيضًا.

عبر قرون من المحن والكوارث التي أحدثتها مدونتكم الأخلاقية، لقد صرختم بأن مدونتكم قد أُنتهكت، وأن الكوارث كانت عقابًا على انتهاكها، وأن الناس كانوا ضعفاء وأنانيون للغاية

بحيث لم يسفكوا كل الدماء اللازمة. لقد لعنتم الإنسان، ولعنتم الوجود، ولعنتم هذه الأرض، لكنكم لم تجرؤا قط على التشكيك في مدونتكم. تحمل ضحاياكم اللوم وكافحوا كفاحًا مريرًا، مع لعناتكم كثواب على استشهادهم، بينما كنتم تنبحون بأن مدونتكم كانت نبيلة لكن الطبيعة البشرية لم تكن جيدة بما يكفي لممارستها. ولم ينهض أحد ليطرح هذ السؤال: هل هي جيدة؟ بأي معيار؟

لقد أردتم أن تعرفوا هوية جون غالت. حسنًا أنا الشخص الذي طرح هذا السؤال.

نعم، هذا عصر أزمة أخلاقية. ونعم، أنتم تعاقبون على شرّكم. لكن ليس الإنسان هو الذي يجب أن يُحاكم الآن وليس الطبيعة البشرية هي التي تتحمل اللوم. إنها مدونتكم الأخلاقية التي انتهت هذه المرة. لقد بلغت مدونتكم الأخلاقية ذروتها، والطريق المسدود في نهاية مسارها. وإذا كنتم ترغبون في الاستمرار في العيش، فإن ما أنتم بحاجته الآن، ليس العودة إلى الأخلاق- أنتم الذين لم تعرفوا أيًا منها على الإطلاق- ولكن اكتشافها.

لم تسمعوا أي مفاهيم أخلاقية سوى المفاهيم الباطنية أو الاجتماعية. لقد تعلمتم أن الأخلاق هي مدونة سلوك فرضتها عليكم رغبة عابرة، رغبة تابعة لقوى خارقة للطبيعة أو رغبة المجتمع، ولخدمة الغاية الإلهية أو رفاهية جيرانكم، ولإرضاء سلطة حاضرة فيما وراء القبر أو حاضرة في الجوار، ولكن ليس لخدمة حياتكم أو سعادتكم. وسعادتكم، كما علّموكم، تتلخص

في انعدام الأخلاق، وأن مصالحكم خادمها الأمين هو الشر، وأن أي مدونة أخلاقية يجب أن تُوضع ليس من أجلك بل ضدك، وليس لتعزيز حياتك بل لاستنزافها.

على مدى قرون، دارت معركة الأخلاق بين أولئك الذين ادّعوا أن حياتك ملك للرب وأولئك الذين ادّعوا أنها ملك لجيرانك، بين أولئك الذين نادوا بأن الخير يكمن في التضحية بالنفس من أجل الأرواح في الجنة وأولئك الذين نادوا بأن الخير يكمن في التضحية بالنفس من أجل القاصرين على الأرض. ولم يأت أحد ليقول لك إن حياتك ملك لك والخير ثم الخير هو أن تعيشها.

اتفق الجانبان على أن الأخلاق تستوجب منك التخلي عن مصلحتك الذاتية وعقلك، وأن السمتان الأخلاقية والعملية هما أمران متضادان، وأن الأخلاق لا تقع في ميدان العقل، بل في ميدان الإيمان والقوة. اتفق الجانبان على عدم إمكانية التوصل إلى أي مبادئ أخلاقية عقلانية، وأن العقل لا يميز بين الصواب أو الخطأ، ولا يستدعي المرء لأن يكون أخلاقيًا.

أيًا كان ما قاتلوا من أجله، كان عقل الإنسان هو ما وقف جميع واضعي الأخلاق متحدين ضده. كان عقل الإنسان هو ما تهدف مخططاتهم وأنظمتهم إلى سلبه وتدميره. والآن حان لكم أن تختاروا ما بين أن تهلكوا أو أن تدركوا أن معاداة العقل تعني معاداة الحياة.

إن عقل الإنسان هو أداته الأساسية للبقاء على قيد الحياة. والحياة تُمنح له، لكن لا يُمنح له البقاء على قيدها. والجسدُ يُمنح له

كلّ شيء باستثناء قوته. والعقل يمنح له، لكن ليس مكنوناته. وحتى يبقى على قيد الحياة، عليه أن يعمل، وقبل أن يعمل لابد أن يعرف طبيعة عمله والغرض منه. فهو ليس بوسعه الحصول على طعامه دون معرفة بالطعام وكيفية الحصول عليه. ولا يستطيع حفر خندقًا- أو بناء المسرّع الدوراني- دون أن يكون على علم بهدفه ووسائل تحقيق هذا الهدف. فحتى يبقى على قيد الحياة عليه أن يفكّر.

لكن التفكير هو فعل اختيار. إن مفتاح ما تطلقون عليه بتهاون «الطبيعة البشرية»، السر المكشوف الذي تعيشون معه ومع ذلك تخشون ذكره، هو حقيقة أن الإنسان كائن ذو وعي إرادي. فالعقل لا يعمل تلقائيًا؛ والتفكير ليس بعملية ميكانيكية، والارتباطات المنطقية لا تتم بالفطرة. وفي حين أن معدتك أو رئتك أو قلبك يعمل بصورة تلقائية، عقلك ليس كذلك. وفي أي ساعة وفي أي شأن من شؤون حياتك، أنت حرٌّ في ممارسة التفكير أو التملص من هذا المجهود. لكنك لست حرًا في الهروب من طبيعتك، ومن حقيقة أن العقل هو وسيلة بقائك على قيد الحياة، بحيث يجب أن يكون السؤال الذي يُطرح عليك بصفتك إنسانًا، هو ليس سؤال «أن تكون أو لا تكون» وإنما «أن تفكر أو لا تفكر».

إن الكائن ذو الوعي الإرادي لا يمتلك مسار سلوك تلقائي. ويحتاج إلى مدونة قيم توجّه أفعاله. و«القيمة» هي التي يعمل المرء على كسبها والحفاظ عليها، و«الفضيلة» هي الفعل المتخذ لكسب

هذه القيمة والحفاظ عليها. كما أن «القيمة» تفترض مسبقًا وجود إجابة على سؤال هي تشكل قيمة لمن؟ وعلى ماذا؟ و«القيمة» تفترض مسبقًا وجود معيارٍ للفعل والغرض منه وما يستدعي أداءه في مواجهة البديل. وفي حالة عدم وجود بدائل، لا توجد قيم ممكنة.

لا يوجد سوى خيار أساسي واحد في الكون: الوجود أو عدم الوجود، وهو يتعلق بفئة واحدة من الكيانات: الكائنات الحية. إن وجود الجمادات غير مشروط، لكن وجود الحياة ليس كذلك: حيث أنه يعتمد على مسار عمل محدد. فالمادة غير قابلة للإتلاف وتظل راسخة، وهي تغير أشكالها، لكن لا يمكن أن تزول من الوجود. لكن الكائن الحي هو وحده من يواجه بديلًا ثابتًا: الحياة أو الموت. الحياة هي عملية ذاتية الدعم وتقوم على الأفعال المحدثة ذاتيًا. إذا فشل الكائن الحي في إداء هذه العملية، فإنه يموت؛ وتبقى عناصره الكيميائية، ولكن روحه تغادر الوجود. إن مفهوم «الحياة» هو وحده الذي يجعل مفهوم «القيمة» ممكنًا. ووحده الكائن الحي من تنقسم الأشياء أمامه إلى الخير أو الشر.

على النبات أن يطعم نفسه حتى يعيش، وضوء الشمس والماء والمواد الكيميائية التي يحتاجها هي القيم التي حددتها طبيعته للسعي وراءها، وحياته هي معيار القيمة الذي يوّجه أفعاله. لكن النبات لا يملك خيار اتخاذ الفعل؛ هناك بدائل في الظروف الذي يواجهها، ولكن لا يوجد بديل في وظيفته: فهو يعمل تلقائيًا من

أجل تعزيز حياته، ولا يمكنه العمل من أجل تدمير نفسه.

إن الحيوان مهيأ للحفاظ على حياته؛ حيث تزوده حواسه بنظام تلقائي للعمل، ومعرفة تلقائية لما هو صالح له أو ضار. وليس لديه القدرة على توسيع معرفته أو التملص من ذلك. وعند التعرض للظروف التي تثبت فيها معرفته عدم كفايتها فإنه يموت. لكن طالما أنه يعيش ويعمل على أساس معرفته، بوجود وظيفة أمانه التلقائية وبدون قدرة الاختيار، فهو غير قادر على تجاهل مصلحته، وغير قادر على اختيار الشر والتصرف كمدمر لنفسه.

يفتقر الإنسان إلى وجود نظام تلقائي للبقاء على قيد الحياة. وما يميزه تحديدًا عن جميع الأنواع الحية الأخرى هو ضرورة اتخاذ فعل في مواجهة البدائل عن طريق الاختيار الإرادي. كما أنه يفتقر إلى المعرفة التلقائية بما هو صالح له أو ضار، وبالقيم التي تعتمد عليها حياته، ومسار العمل الذي تتطلبه. هل تثرثرون حول غريزة الحفاظ على النفس؟ لكن غريزة الحفاظ على النفس هي بالتحديد ما لا يمتلكها الإنسان. و«الغريزة» هي شكل من أشكال المعرفة التلقائية والمعصومة. والرغبة ليست بغريزة. فالرغبة في العيش لا تمنحك المعرفة المطلوبة للعيش. وحتى رغبة الإنسان في العيش ليست رغبة تلقائية، وافتقاركم إلى هذه الرغبة هو شركم الذي تخفونه اليوم. إن خوفكم من الموت ليس حبًا في الحياة ولن يمنحكم المعرفة اللازمة لصونها. ولابد للإنسان أن يكتسب معرفته ويختار أفعاله من خلال عملية التفكير التي لن تجبره طبيعته

على القيام بها. كما أنّ هذا الإنسان يتمتع بالقدرة على التصرف كمدمر لنفسه، وهذه هي الطريقة التي تصرف بها خلال معظم تاريخه.

إنّ الكائن الحي الذي ينظر إلى وسائل بقائه باعتبارها شرًا، لن يُكتب له البقاء على قيد الحياة. والنبات الذي يجاهد من أجل نزع جذوره، والطائر الذي يناضل من أجل كسر جناحيه، لن يعيش طويلًا في الوجود الذي تحدّاه واستحقره. لكن تاريخ الإنسان كان كفاحًا من أجل إنكار العقل وتدميره.

لقد أُطلق على الإنسان كائنًا عقلانيًا، لكن العقلانية مسألة اختيار، والبديل الذي تقدمه له طبيعته هو الكائن العقلاني أو الحيوان الانتحاري. على الإنسان أن يكون إنسانًا باختياره، وعليه أن يقدرّ حياته باختياره، وعليه أن يتعلم الحفاظ عليها باختياره، وعليه أن يتعلّم القيم التي تتطلبها ويمارس فضائله باختياره.

ومدونة القيم التي يقبلها المرء باختياره تُعد مدونة أخلاقية.

أيًا من تكونوا أنتم، أنتم الذين تسمعونني الآن، أتحدث إلى أي شيء تبقى بدواخلكم دون أن يُدنس أو يُفسد بعد، إلى بقايا الإنسان، وإلى عقولكم، لأقول إنّ هناك أخلاق تقوم على العقل، وأخلاق لائقة لوجود الإنسان، وأن حياة الإنسان هي معيار قيمتها.

إنّ كل ما هو صالح لحياة الكائن العقلاني هو الخير، وكل ما

يدمرها هو الشر.

حياة الإنسان، بحسب ما تقتضي طبيعته، ليست حياة وحشيٍّ عديم العقل، أو بلطجي سارق أو باطنيّ انتهازي، وإنما حياة كائن مفكّر. وليست حياة تقوم على البطش أو الاحتيال، بل الإنجاز. وليست حياة تعيشها بأي ثمن، بما أن الثمن الوحيد الذي يدفعه المرء مقابل بقائه هو العقل.

حياة الإنسان هي معيار الأخلاق، ولكن هدفها هو حياتك. فإذا كان العيش على الأرض هو غايتك، فعليك أن تختار أفعالك وقيمك وفقًا لمعيار ما هو صالح للإنسان، بغرض الحفاظ على القيمة التي لا غنى عنها وتحقيقها والتمتع بها، والتي هي حياتك.

بما أنّ الحياة تتطلب مسار عمل محدد، فإن أي مسار آخر من شأنه أن يدمرها. والكائن الذي لا يجعل حياته هو الدافع وراء أفعاله وهدفها، فإنه يعمل بدافع الهلاك ووفق معياره. ومثل هذا الكائن هو بشاعة ميتافيزيقية، يناضل من أجل اعتراض حقيقة وجوده، ونفيها ومناقضتها، راكضًا كالمسعور على غير هدى في درب من الخراب والدمار، وغير قادر على أي شيء سوى الشعور بالمعاناة والألم.

السعادة هي حالة تمثل النجاح في العيش، والألم سبيل من سبل الهلاك والموت. السعادة هي تلك الحالة من الوعي التي تنشأ عن تحقيق المرء لمجموعة قيّمه. والأخلاق التي تجرؤ على إخبارك بأن تجد السعادة في التخلي عن سعادتك- أي أن تقدّر الفشل في تحقيق

قيمك- ما هي إلا انتفاء وقح للأخلاق. والمذهب الذي يمنحك، كمثل أعلى، دور الأضحية التي تسعى لأن تلقى حتفها على مذابح الآخرين، فهو يقدم لك الهلاك معيارًا لحياتك. وبفضل الواقع وطبيعة الحياة، فإن الإنسان- كل إنسان- هو غاية في ذاته، وهو موجود من أجل نفسه، وتحقيق سعادته هو أسمى أهدافه الأخلاقية.

لكنّ لا العيش ولا السعادة يمكن تحقيقهما من خلال ملاحقة الأهواء اللاعقلانية. وكما أن الإنسان حر في محاولة البقاء بأي وسيلة عشوائية، ولكنه سيهلك ما لم يعش بحسب ما تقتضيه طبيعته، فهو حر كذلك في السعي وراء سعادته بأي وسيلة احتيالية غير عقلانية، لكن ألم الخيبة والإحباط هو كل ما سيجده، ما لم يسعى إلى تحقيق السعادة الملائمة للإنسان. إن الغرض من الأخلاق يتلخص في تعليمكم، ليست المعاناة والهلاك، بل كيف تعيشوا وتمتعوا أنفسكم.

تخلّصوا من الطفيليين في الفئات المُعانة، الذين يعيشون على منافع عقول الآخرين ويعلنون بأن الإنسان لا يحتاج إلى أخلاق ولا قيم ولا قواعد سلوك. إنّ الذين يتظاهرون بأنهم علماء ويزعمون أن الإنسان مجرد حيوان، لا يدرجون الإنسان ضمن قانون الوجود الذي منحوه لأدنى حشرة حية. ومع أنهم يدركون أن كل نوع حي لديه وسيلة للبقاء تقتضيها طبيعته، ولا يدّعون أن السمكة تستطيع أن تعيش خارج الماء أو أن الكلب يستطيع العيش

بدون حاسة الشم، لكنهم يزعمون أن الإنسان، الكائن الأكثر تعقيدًا بين الكائنات، قادر على أن يعيش بأي شكل كان، وليس له هوية ولا طبيعة، ولا يوجد سبب عملي يمنعه من العيش مع تدمير وسائل بقائه، ومع التضييق على عقله ووضعه تحت تصرف أي أوامر قد يبالون بإصدارها.

تخلصوا من هؤلاء الباطنيين الذين تأكلهم الكراهية، والذين يتظاهرون بأنهم أصدقاء للبشرية وينادون بأن أعلى فضيلة يمكن للإنسان أن يمارسها هي أن يرى حياته خالية من كلّ قيمة. هل يقولون لك إنّ الغرض من الأخلاق هو كبح غريزة الإنسان في الحفاظ على النفس؟ إنه من أجل الحفاظ على النفس يحتاج الإنسان إلى مدونة أخلاقية. والإنسان الوحيد الذي يرغب في أن يكون أخلاقيًا هو الشخص الذي لديه رغبة العيش.

كلّا، ليس لزامًا عليك أن تعيش، فهو اختيار واختيار أساسي، ولكن إذا اخترت أن تعيش، فلا بدّ أن تعيش كإنسان، أي من خلال العمل وتحكيم العقل.

كلّا، ليس لزامًا عليك أن تعيش كإنسان؛ فهو اختيار أخلاقي. ولكن لا يمكنك أن تعيش كأي شيء آخر، والبديل هو حالة الموت البطيء التي تراها الآن في داخلك ومن حولك، حالة شيء غير صالح للوجود، شيء لم يُعد بشريًا وأقل من حيوان، شيء لا يعرف شيئًا سوى الألم، ويجر نفسه خلال سنوات حياته إلى خوض معاناة ناتجة عما يمارسه من تدمير ذاتي مجانبٍ للعقل.

كلا، ليس لزامًا عليك أن تفكر؛ فهو اختيار أخلاقي. لكن كان على أحدهم أن يفكر من أجل أن يبقيك على قيد الحياة، وإذا اخترت التخلف، فأنت تتخلف عن الوجود وتضع حمل هذا التخلف على عاتق أحد الأشخاص الأخلاقيين، وتتوقع منه التضحية بمصلحته من أجل أن يدعك تعيش من خلال ممارسة شرورك.

كلّا، ليس عليك أن تكون إنسانًا، لكن هؤلاء الذين هم كذلك لم يعودوا موجودين اليوم. وهذا لأني أزلت وسائل بقائكم: ضحاياكم.

إذا كنتم ترغبون في معرفة كيف فعلت ذلك وما أخبرتهم به لجعلهم ينسحبون، فأنتم تسمعونه الآن. وجوهر ما أخبرتهم به هو القول الذي أدلي به الليلة. لقد كانوا من الأشخاص الذين عاشوا وفقًا لمدوّنتي، لكنهم لم يدركوا مدى عظمة فضيلتها، وجعلتهم يفعلون ذلك. وجعلتهم يحدّدونَ ماهية قيمهم لا إعادة تقييمها.

نحن، أصحاب العقل، مضربون ضدكم باسم مسلّمة واحدة، والتي هي أصل مدونتنا الأخلاقية، مثلما أصل مدونتكم هو الرغبة في الهروب من هذه المسلّمة: مسلّمة أن الوجود موجود وقائم.

الوجود موجود، وفهم هذا تنطوي عليه مسلمتين حتميتين: أن هناك شيئًا موجود يدركه المرء وأن هذا المرء يملك الوعي، والوعي هو القدرة على إدراك ما هو موجود.

إذا لم يكن هناك شيء موجود، فلن يكون هناك وعي: حيث أن وجود وعي بدون وجود شيء لإدراكه يعد تناقضًا. إن الوعي غير المُدرك لشيء سوى نفسه يعد نوعًا من التناقض: فالوعي قبل أن يتمكن من تحديد نفسه على أنه وعي، لابد وأن يكون مدركًا لشيء ما. إذا كان ما تدعي إدراكه غير موجود، فإن ما تمتلكه ليس وعيًا.

ومهما بلغت بك المعرفة مبلغًا، فإن هذين الاثنين- أي الوجود والوعي- هما مسلمتان لا يمكنك التملص منهما، ومن الأساسيات التي يتعذر إنقاصها والتي هي موجودة ضمنًا في أي فعل تتخذه، وفي أي جزء من معرفتك وفي مجموعها، من أول شعاع ضوئي تراه في بداية حياتك إلى أوسع معرفة قد تكتسبها على مشارف نهايتها. فسواء كنت تعرف شكل الحصى أو بنية النظام الشمسي، فإن المسلمات تظل كما هي: وهي أنها موجودة وأنك تعرف ذلك.

أن تكون موجودًا يعني أن تكون شيئًا حتى تخرج من عدمية اللاوجود، ويعني أن تكون كيانًا ذا طبيعة معينة مصنوعة من سمات معينة. منذ قرون، وضع الشخص الذي كان أعظم فلاسفتكم- بغض النظر عن الأخطاء التي ارتكبها- الصيغة التي تحدد مفهوم الوجود وقاعدة جميع المعارف: وهي أن (أ) هو (أ). أي أن الشيء هو نفسه. لم تفهموا البتّة معنى بيانه الذي أنا هنا لاستكماله: وهو أن الوجود هوية، والوعي هو فعل تحديد هذه الهوية.

وأيًا كان ما تختار أن تفكر فيه: سواء أكان شيئًا أو سمةً أو فعلًا، فإن قانون الهوية يظل هو نفسه. فليس لورقة الشجر أن تكون حجرًا في نفس الوقت، وليس لها أن تكون كلها حمراء وكلها خضراء في نفس الوقت، وليس لها أن تتجمد وتحترق في ذات الوقت. (أ) هو (أ). أو إن كنت ترغب في التعبير عن الأمر بلغة أبسط: إما أن تحتفظ بكعكتك أو أن تتناولها، وليس لك خيار التنعم بالأمرين (أي لا يمكن الجمع بين خيارين متناقضين).

هل تسعون لمعرفة ما خطب العالم؟ إن كل الكوارث التي دمرت عالمكم جاءت من محاولة قادتكم في تجنب حقيقة أن (أ) هو(أ). إن كل الشر الخفي الذين تخشون مواجهته في دواخلكم وكل الألم الذي عانيتم منه، جاء من محاولتكم للتهرب من حقيقة أن (أ) هو (أ). وكانت غاية أولئك الذين علموكم التهرّب منها هو جعلكم تنسون أن الإنسان إنسانٌ.

لا يستطيع الإنسان أن يبقى إلا باكتساب المعرفة، والعقل هو وسيلته الوحيدة لاكتسابها. العقل هو الملكَة التي تدرك المواد (المحسوسات) التي توفرها حواسه وتحددها وتدمجها مع بعضها. فمهمة حواسه تتمثل في إعطائه البرهان على الوجود، لكن مهمة التعرّف على هذا الوجود تعود إلى عقله، ومهمة حواسه تقتصر على إخباره بأن هناك شيئًا موجود وقائم، ولكن ماهيته يجب أن يتعلّمها بعقله.

إن كل التفكير هو عبارة عن عملية تحديد هوية وإدماج

للمعرفة. فعندما يرى الإنسان كتلة ملونة، فإنه من خلال إدماج الأدلة التي يوفرها له بصره ولمسه يتعلم تمييزها كجسم صلب، ويتعلم تمييز هذا الجسم كطاولة، ويتعلم أن الطاولة مصنوعة من الخشب، ويتعلم أن الخشب يتكون من خلايا، وأن الخلايا تتكون من جزيئات، وأن الجزيئات تتكون من ذرات. وطوال هذه العملية، يقوم عمل عقله على إجابة سؤال واحد: ما هو؟ ووسيلته لإثبات صحة إجابته هي المنطق، والمنطق يستند إلى بديهية مفادها أن الوجود موجود. المنطق هو فن تحديد الهوية الخالي من التناقضات. بل ويستحال وجود أي تناقض في الواقع. الذرة هي نفسها وكذلك الكون، لا يمكن لأي منهما أن يناقض هويته، ولا يمكن لجزء منهما أن يناقض الكل. لا يصح أي مفهوم يشكله الإنسان إلا إذا دمجه دون تناقض في المجموع الكلي لمعرفته. والوقوع على أي تناقض هو دليلًا على وقوع خطأ في تفكير المرء، والحفاظ على هذا التناقض يعني أن المرء يتنازل عن عقله ويطرد نفسه من عالم الواقع.

الواقع هو ذلك الموجود؛ وما ليس ينتمي للواقع هو ليس موجود، ومجرد شكل من أشكال نفي الكينونة التي هي مضمون الوعي البشري عندما يحاول هذا الوعي التخلي عن العقل. الحقيقة هي الاعتراف بالواقع، والعقل الذي هو وسيلة الإنسان الوحيدة للمعرفة، هو معياره الوحيد للحقيقة.

الجملة الأكثر فظاعة التي يمكنك نطقها الآن هي أن تسأل:

عقل من؟ الجواب هو عقلك أنت. بغض النظر عن شساعة معرفتك أو تواضعها، فإن عقلك هو الذي يجب أن يكتسب هذه المعرفة. وحدها معرفتك هي ما تمكّنك من التعامل مع الأمور. وحدها معرفتك هي ما يمكنك أن تدعي حيازتها أو أن تطلب من الآخرين النظر فيها. وعقلك هو القاضي الوحيد للحقيقة، وإذا عارض الآخرون حكمه، فالواقع هو محكمة الاستئناف النهائية. لا شيء سوى عقل الإنسان بإمكانه أن يؤدي عملية التمييز المعقدة والدقيقة والحاسمة والتي هي التفكير. ولا شيء سوى حُكمه بإمكانه توجيه تلك العملية. ولا شيء سوى نزاهته الأخلاقية بإمكانها أن توجه حُكمه.

أنت يا من تتحدث عن «الغريزة الأخلاقية» كما لو كانت هبةً منفصلة عن العقل ومعارضة له، يجدر بك أن تعرف أن عقل الإنسان هي ملكَته الأخلاقية. فعملية التفكير التي يقوم بها هذا العقل هي عملية اختيار مستمر في الإجابة على سؤال: صحيح أم لا؟ صواب أم خطأ؟ هل زرع البذرة في التربة لتنمو صواب أم خطأ؟ هل تطهير الجرح حفاظًا على حياة المرء صواب أم خطأ؟ هل تحويل طبيعة الكهرباء الجوية إلى طاقة حركية صواب أم خطأ؟ إن الإجابات على مثل هذه الأسئلة هي التي أعطتك كل ما لديك، وقد جاءت من عقل إنسان ما، عقل ذو تفان شديد لما هو صائب.

أي عملية تقوم على العقل هي عملية أخلاقية. قد ترتكب خطأ في أي خطوة منها، دون أن يكون هناك ما يحميك سوى التزامك

وصرامتك، أو قد تحاول الغش لتزوير الأدلة وتجنب مجهود السعي والبحث، لكن إن كان الإخلاص للحق هو السمة المميزة للأخلاق، إذن لا يوجد شكل من أشكال الإخلاص أعظم وأنبل وأكثر بطولية من فعل الشخص الذي يتولى مسؤولية التفكير.

إنّ ما تسميه روحك أو نفسك ما هو إلا وعيك، وما تسميه «الإرادة الحرة» ما هو إلا حرية عقلك في التفكير أو الامتناع عنه، وهو الإرادة الوحيدة التي تتمتع بها، وحريتك الوحيدة، والخيار الذي يتحكم في جميع الخيارات التي تتخذها، ويحدد حياتك وشخصيتك.

التفكير هو الفضيلة الأساسية الوحيدة لدى الإنسان التي تنطلق منها جميع الفضائل الأخرى. وما يشكل رذيلته الأساسية، ومصدر كل شروره، هو ذلك الفعل غير المُسمى الذي تمارسونه جميعكم، لكنكم تكافحون من أجل عدم الاعتراف به أبدًا: فعل طمس الحقائق، والتعليق المتعمد لوعي المرء، ورفض التفكير، ورفض الرؤية وليس الإصابة بالعمى، ورفض المعرفة وليس الجهل. وهو الفعل المتمثل في تشتيت ذهنك وإحداث تشوّش داخلي للهروب من مسؤولية اتخاذ الأحكام، على أساس فرضية لم تصرحوا بها وهو أن الشيء لن يكون موجودًا إذا أقدمت على رفض تمييزه وحسب، وأن (أ) لن يكون (أ) طالما أنك لا تنطق بحكم «إنه هو، وهو موجود». إن عدم التفكير هو فعل إهلاك وإبادة، ورغبة في نفي الوجود، ومحاولة لمحو الواقع. لكن الوجود موجود وقائم، ولا

نستطيع أن نمحي الواقع، وإنما سيمحي هو من يحاول محيه ليس إلا. حين ترفض أن تقول عن شيء «إنه هو، وهو موجود»، فأنت بذلك ترفض أن تقول «هذا أنا، وأنا موجود». وبعدم إصدار أحكامك أنت تنكر شخصك. فعندما يقول المرء «من أنا لأعرف؟» فإنه بكلمات أخرى يقول «من أنا لأعيش؟».

هذا هو خيارك الأخلاقي الأساسي في كل ساعة وكل مسألة: وهو التفكير أو عدم التفكير، الوجود أو عدم الوجود، (أ) أو ليس (أ)، كيان قائم أو حالة عدم.

وبقدر ما يكون الإنسان عقلانيًا، فإن العيش هو الأساس الذي يوجه أفعاله. وبقدر ما يكون غير عقلاني، فإن الموت هو الأساس الذي يوجه أفعاله.

أنتم يا من تثرثرون بأن الأخلاق مسألة اجتماعية وأن هذا الإنسان لن يحتاجها في جزيرة مهجورة، بل أنه في الجزيرة المهجورة هي ما يحتاجها أكثر من غيرها. دعه يحاول أن يدّعي، عندما لا يكون هناك ضحايا يدفعون ثمن ذلك، أن الصخرة هي منزل، وأن الرمال ملابس، وأن الطعام سيسقط في فمه دون سبب أو جهد، وأنه سيجمع الحصاد غدًا عن طريق التهام مخزونه من البذور اليوم، وسترى كيف أن الواقع سيمحي أثره كما يستحق؛ سيثبت له الواقع أن الحياة قيمة لابد من شراؤها وأن التفكير هو العملة الوحيدة النبيلة بما يكفي لشراء هذه القيمة.

لو كنت سأتحدث نوع لغتك، فسأقول إن الأمر الأخلاقي

الوحيد الذي «سأفرضه» على الإنسان هو أن يفكّر. لكن مفهوم «الأوامِرِ الأخلاقية» يشكل تناقضًا في المعنى. فالسلوك الأخلاقي هو المُختار وليس القسري، المفهوم وليس المُطاع. والسلوك الأخلاقي لا ينبع إلا من عقلانية، والعقل لا يقبل الأوامِرِ.

تتلخص أخلاقياتي، الأخلاق العقلانية، في بديهية واحدة وهي أن الوجود موجود، وفي خيار واحد وهو العيش. والبقية تنطلق من هاتين النقطتين. لكي يعيش الإنسان عليه أن يعتبر هذه الثلاثة أشياء على أنها القيم العليا والحاكمة في حياته: العقل والغاية والاعتزاز بالنفس. العقل بحكم أنه أداة معرفته الوحيدة، والغاية بحكم أنها تمثل اختياره للسعادة التي يجب أن تحققها هذه الأداة، والاعتزاز بالنفس بحكم أنه يمثل يقينه الراسخ بأن عقله مؤهل للتفكير وأن شخصه جدير بالسعادة، مما يعني جدير بالعيش. هذه القيم الثلاث تتضمن وتستدعي ممارسة كل فضائل الإنسان، والذي جميع فضائله تمس العلاقة القائمة بين الوجود والوعي: وهي العقلانية والاستقلالية والنزاهة والصدق والعدل والإنتاجية والفخر.

العقلانية هي الاعتراف بحقيقة وجود الوجود، وأنه لا شيء يمكن أن يغير الحقيقة ولا شيء قد يكتسب الأسبقية على فعل إدراكها، وهو التفكير، وأن العقل هو الحَكَم الوحيد على القيم والموّجه الوحيد للأفعال، وأن العقل هو مطلق يتعذر المساس به، وأن التنازل إلى حدّ اللاعقلانية من شأنه إبطال وعي المرء وتحويل

مهمته من إدراك الواقع إلى تزويره، وأن الطريق المختصر المزعوم لاكتساب المعرفة، وهو الإيمان، ليس سوى تضييق على العقل يؤدي إلى تدميره، وأن الارتضاء بما يأتي به أهل الباطن من اختلاق وتلفيقات هو رغبة في القضاء على الوجود، وبصورة صحيحة، القضاء على وعي المرء.

الاستقلالية هي الاعتراف بحقيقة أن من مسؤوليتك إصدار الأحكام ولا شيء يمكنه مساعدتك في التملص من ذلك، وأنه لا يمكن لأي بديل أن يقوم بعملية التفكير عنك، كما لا يمكن لأي بديل أن يعيش حياتك، وأن أبشع أشكال التحقير الذاتي وتدمير الذات هو إتباع عقلك بعقل شخص آخر، وقبول وجود سلطة ما على عقلك، وقبول مزاعمه على أنها حقائق، وقوله على أنه حقيقة، وأوامره كوسيط بين وعيك ووجودك.

النزاهة هي الاعتراف بحقيقة أنه لا يمكنك تزييف وعيك، تمامًا مثلما أن الصدق هو الاعتراف بحقيقة أنه لا يمكنك تزييف الوجود. والاعتراف بأن الإنسان كيان لا يتجزأ، بل هو وحدة متكاملة من سمتين: المادة والوعي، وأنه لا يجوز له السماح بحدوث فجوة بين الجسد والعقل، وبين الفعل والفكر، وبين حياته وقناعاته، وأنه، شأنه شأن قاض منيع لا يتأثر بالرأي العام، لا يجوز له التضحية بقناعاته لرغبات الآخرين، سواء كان جميع البشر يصرخون المناشدات منه أو يطلقون التهديدات ضده، وأن الشجاعة والثقة هما ضرورتين عمليّتين، وأن الشجاعة هي الشكل

العملي لكونك صادقًا مع الوجود وصادقًا مع الحقيقة كما تراها، وأن الثقة هي الشكل العملي لكون المرء صادقًا مع وعيه.

الصدق هو الاعتراف بحقيقة أن غير الواقعي هو وهمي وليس له أي قيمة، وأنه لا الحب ولا الشهرة ولا النقود تشكل قيمةً إذا أُكتسبت من خلال الاحتيال، وأن محاولة كسب قيمة ما من خلال خداع عقول الآخرين هو فعل من شأنه رفع ضحاياك إلى مكانة أعلى من الواقع، حيثما تصبح أنت لعبة لحماقتهم، وعبدًا لعدم تفكيرهم ومراوغتهم، في حين أن ذكائهم وعقلانيتهم وإدراكهم يغدون أعداء يتعين عليك الخشية والفرار منهم، وأن لا تسعى وراء العيش كتابع وعالة، ناهيك عن الاعتماد على غباء الآخرين، أو كأحمق يستمد قيمه من الحمقى الذي ينجح في استغبائهم، والاعتراف بأن الصدق ليس واجبًا اجتماعيًا وليس تضحية من أجل مصلحة الآخرين، ولكنه الفضيلة الأشد أنانيةً التي يمكن للإنسان ممارستها، والذي يستدعي رفض المرء للتضحية بواقع وجوده من أجل الوعي المُضلل للآخرين.

العدل هو الاعتراف بحقيقة أنه يتعذر عليك تزييف شخصية الآخرين مثلما يتعذر عليك تزييف طبيعتهم، وأنه يجب عليك الحكم على جميع الناس بنفس القدر من الإخلاص والدقة التي تلتمسها عند الحكم على الجمادات، وبنفس القدر من الاحترام للحقيقة، وبنفس القدر من الرؤية النزيهة، ومن خلال عملية تمييز نقية وعقلانية، وأنه يجب الحكم على كل شخص لما هو عليه

ومعاملته وفقًا لذلك، وأنه مثلما أنك لا تدفع ثمنًا أعلى مقابل قطعة صدئة من الخردة مقارنة بقطعة من المعدن اللامع، فأنت كذلك لا ترفع من قيمة الفاسد الوضيع أمام البطل. ومن العدل كذلك الاعتراف بأن تقييمك الأخلاقي هو العملة التي تدفعها للأفراد مقابل فضائلهم أو رذائلهم، وتحديد قدرها يتطلب منك مقدار الأمانة والصرامة التي تتعامل بها مع المعاملات المالية، وأن الامتناع عن إبداء ازدرائك نحو رذائل الرجال هو عمل من أعمال التزوير الأخلاقي، وأن الامتناع عن إبداء إعجابك بفضائلهم هو عمل من أعمال الاحتيال الأخلاقي، وأن إعلاء أي شأن آخر فوق العدل يعني التقليل من قيمة عُملتك الأخلاقية والاحتيال على الخير لصالح الشر، بما أن الخير وحده هو الذي يمكن أن يخسر عند التقصير في تحقيق العدل والشر وحده هو من يستفيد، وأن قعر الهوّة في نهاية ذلك الطريق، وهو فعل الإفلاس الأخلاقي، هو لمعاقبة الأفراد على فضائلهم ومكافأتهم على رذائلهم، وأن هذا هو طريق الانهيار نحو الفساد الكامل، والقداس الأسود لعبادة الموت، ووسيلة تكريس الوعي لتدمير الوجود.

الإنتاجية هي قبولك للأخلاق، واعترافك بحقيقة أنك تختار العيش، وأن العمل المُنتج هو العملية التي من خلالها يتحكم وعي الإنسان في وجوده، وهي عملية مستمرة لاكتساب المعرفة وتشكيل المادة بما يتلاءم مع أغراض المرء، ولترجمة الأفكار إلى أشكال مادية، ولإعادة تشكيل الأرض في صورة قيم المرء.

والاعتراف بأن كل عمل هو عمل إبداعي إذا قام به عقل مفكّر، ولا يكون أي عمل إبداعيًا إذا قام به شخصٌ طائش يجترُّ في حالة من الفتور الذهني وعدم التبصر روتينًا تعلّمه من الآخرين. وأن عملك أنت من تختاره، ومجال الاختيار واسع بقدر اتساع عقلك، بحيث أنك لا تعمل فيما يفوق قدرتك الذهنية ولا فيما دون إنسانيتك. وأن الاحتيال للحصول على وظيفة أكبر مما يستطيع عقلك التعامل معها سيجعلك مُقلدًا تُضعفه شدة الخوف ويعيش على حركات مستعارة ولوقت لن يدوم طويلًا، وأن الاستقرار في وظيفة تتطلب أقل من قدرة عقلك الكاملة هو إيقاف لمحركك والحكم على نفسك بالاستعانة بنوع آخر من الحركة: وهي الانحلال والتدهور. والاعتراف بأن عملك هو عملية تحقيق قيمك، وفقدان طموحك في تحقيق القيم يعني فقدان طموحك في العيش. وأن جسدك هو آلة لكن عقلك هو سائقها، وعليك أن تقود إلى أبعد ما سيأخذك عقلك، مع وجود الإنجاز كهدف لطريقك. وأن المرء الذي ليس له هدف هو بمثابة آلة تنحدر نزولًا تحت رحمة أي صخرة ستقدم على تحطيمها في أول فرصة للخلاص منها، وأن المرء الذي يخنق عقله هو آلة متعطلة تصدأ ببطء، وأن المرء الذي يترك لقائد ما تحديد مسلكه هو حُطام يجر إلى كومة الخردة، والمرء الذي يجعل امرأً آخر هدفه هو متطفل لا ينبغي لأي سائق أن يلتقطه. وأن عملك هو الغاية من حياتك، وعليك أن تتجاوز مسرعًا أي قاتل يرى أنّ لهُ الحق في إيقاف سيرك، وأن أي قيمة قد تجدها خارج نطاق عملك، وأي ولاء أو حب، قد يكون

مسافرًا تختاره ليشاركك رحلتك، ويجب أن يكون مسافرًا يسيرُ معتمدًا على طاقتهِ في نفس الاتجاه.

الشعور بالفخر هو الاعتراف بحقيقة أنك تمثل أعلى قيمك، وكما هو الحال مع كل قيم الإنسان هي قيمة لابد من اكتسابها. والاعتراف بأنه أمام أي إنجازات متاحة لك، فإن ما يجعل تحقيق كل الإنجازات الأخرى ممكنًا هو خلق شخصيتك. وأن شخصيتك وأفعالك ورغباتك وعواطفك هي نتاج المنطلقات التي يحتفظ بها عقلك، وأن بما أنه يتعين على المرء إنتاج القيم المادية التي يحتاجها للحفاظ على حياته، فلابد له أيضًا أن يكتسب القيم الشخصية التي تجعل حياته جديرة بالحفاظ عليها، وأنه انطلاقًا من أن الإنسان كائن يصنع ثروته بذاته فهو إذن كائن يصنع روحه بذاته، وأنه رغم أن العيش يتطلب إحساسًا بقيمة الذات، لكن الإنسان- الذي بطبيعته لا يمتلك قيمًا تلقائية- ليس لديه إحساس تلقائي بتقدير الذات وعليه أن يكتسبه من خلال تشكيل روحه في صورة مثله الأخلاقي الأعلى، أي في صورة الإنسان، صورة هذا الكائن العقلاني الذي ولد وهو قادرٌ على خلقه، ولكن يجب أن يخلقه باختياره. والاعتراف بأن الشرط الأول المسبق لتحقيق تقدير الذات هو الاتصاف بالأنانية الزاهية في الروح التي تجعلها راغبة في تحقيق الأحسن في كل شيء، في القيم المادية والروحية، تلك الروح التي تسعى قبل كل شيء إلى تحقيق كمالها الأخلاقي، ولا تعطي أي شيء تقديرًا أعلى من تقديرها لنفسها. والاعتراف بأن البرهان على

تحقيقك لتقدير الذات هو ارتعاد روحك ازدراءً واعتراضًا على دور الأضاحي القربانية التي تُعطى للبشر، وعلى الوقاحة الدنيئة لأي مذهب يقترح التضحية بالقيمة النفيسة لوعيك والمجد الذي لا يُضاهى لوجودك من أجل التملصات العمياء والانحطاط الراكد للآخرين.

هل بدأتم ترون من هو جون غالت؟ أنا الرجل الذي اكتسب الشيء الذي لم تقاتلوا من أجله، الشيء الذي نبذتموه وخنتموه وأفسدتموه، ومع ذلك كنت غير قادرين على تدميره بالكامل (العقل)، والآن تختبئون مثل سركم الآثم وتمضون حياتكم في الاعتذار لكل ممتهني الوحشية، خشية أن تكتشفون أنه في مكان ما بدواخلكم، ما تزالون بحاجة قول ما أقوله الآن على أسماع البشرية جمعاء: أنا فخور بقيمتي وبحقيقة أنني أرغب في العيش.

هذه الرغبة- التي تحملونها ولكن تطمسونها على أنها من الشرور- هي الأثر الوحيد الباقي من الخير بدواخلكم، ولكنها رغبة على المرء أن يتعلم استحقاقها. سعادة المرء هي غايته الأخلاقية الوحيدة، ولكن فضيلته هي وحدها القادرة على تحقيق هذه الغاية. والفضيلة ليست غاية في حد ذاتها، وليست ثوابًا في حد ذاتها أو طعم قرباني يقدم كجزاء عن الشر. وإنما الحياة هي ثواب الفضيلة، والسعادة هي غاية العيش وثوابه.

ومثلما لجسدك إحساسين أساسين، اللذة والألم، كعلامات على رفاهه أو إصابته، وكمقياسين لبديلهم الأساسي، الحياة أو الموت،

فإن لوعيك كذلك عاطفتان أساسيتان، السعادة والمعاناة، في استجابة لنفس البديل. عواطفك هي تقديرات تشير إلى ما يعزز حياتك أو يهددها، وآلات حساب جيدة تمنحك مجموع أرباحك أو خسارتك. أنت لا تتمتع بالخيار عندما يتعلق الأمر بقدرتك على الشعور بأن شيئًا ما هو خير لك أو شر، ولكن ما ستعدّه خير أو شر، وما سيمنحك السعادة أو الألم، وما ستحبه أو تكرهه، تريده أو تخافه، يعتمد على معيارك للقيمة. إن العواطف متأصلة في طبيعتك، لكن محتواها يمليه عقلك. ومقدرتك العاطفية بمثابة محرك فارغ، وقيمك هي الوقود الذي تملأ به عقلك. وإذا اخترت أن تملئه بمزيجٍ من التناقضات، فسوف ينشأ عن هذا حدوث انسداد فِي المحرك، ويؤدي إلى تآكل جهاز ناقل الحركة، وسيحطمك في أول محاولة تتخذها للتحرك باستخدام آلة أفسدتها أنت السائق.

إذا اتخذت اللاعقلانية كمعيار للقيمة، والمستحيل والمُمتنع كمفهومك للخير، وإذا كنت تتوق إلى مكافآت لم تكتسبها، وثروة أو حب لم تستحقه، وثغرة في قانون السببية، وأن تصبح (أ) ليست (أ) بحسب رغبتك، وإذا كنت ترغب في نقيض الوجود، فسوف تصل لذلك. لكن لا تبكي حينها بأن الحياة محبطه وأن السعادة مستحيلة للإنسان، وتحقق من ماهية وقودك الذي أوصلك إلى حيثما أردت.

السعادة لا تتحقق تحت هيمنة النزوات العاطفية. السعادة

ليست إشباعًا لأي رغبات غير عقلانية قد تحاول الانغماس فيها بشكل أعمى. السعادة هي حالة من البهجة غير المتناقضة، بهجة بدون عقاب أو شعور بالذنب، بهجة لا تتعارض مع أي من قيمك ولا تعمل على تدميرك، بهجة استخدامك القوة الكاملة لعقلك وليس الهروب من عقلك، بهجة تحقيق القيم الحقيقية وليس تزييف الواقع، بهجة المنتج وليس بهجة السكير. السعادة ممكنة فقط للإنسان العقلاني، الإنسان الذي لا يرغب في شيء سوى تحقيق الأهداف العقلانية، ولا يسعى إلا وراء القيم العقلانية، ولا يجد سعادته إلا في الأفعال العقلانية.

ومثلما أدعم معيشتي، لا بالسرقة ولا الصدقات، ولكن بجهدي، فإنني لا أسعى كذلك إلى استمداد سعادتي من معاناة الآخرين أو معروفهم، ولكنني أكتسبها من إنجازي. وكما أنني لا أضع سعادة الآخرين هدفاً لحياتي، كذلك لا أضع سعادتي هدفًا لحيوات الآخرين. وكما أنه لا توجد تناقضات في قيمي ولا تضارب بين رغباتي، كذلك لا يوجد ضحايا ولا تضارب في المصالح بين الأشخاص العقلانيين، أولئك الأشخاص الذين يأبون الشيء غير المُكتسب وغير المُستحق، ولا ينظرون إلى بعضهم بعضًا بشهوة آكلي لحوم البشر، أولئك الأشخاص الذين لا يقدمون التضحيات ولا يقبلونها.

التاجر هو رمز كل العلاقات بين هؤلاء الأفراد، والرمز الأخلاقي لاحترام الإنسان. نحن، الذين نعيش على اكتساب القيم

وليس النهب، تجار في المادة والروح. فالتاجر هو الذي يأخذ ما يكتسبه ولا يأخذ غير المُستحق أو يعطيه. ولا يطلب أن يتقاضى أجرًا عن إخفاقاته، ولا يطلب أن يتلقى الحب عن عيوبه. التاجر لا يهدر جسده كغذاء ولا روحه كصدقة. وكما أنه لا يعطي نتاج عمله إلا من خلال التبادل في القيم المادية، فهو كذلك لا يعطي قيمه الروحانية- حبه وصداقته وتقديره- إلا من خلال التبادل في الفضائل الإنسانية وفي مقابلها، وفي مقابل سعادته الأنانية التي يحصل عليها من أشخاص يحترمهم. إن الطفيليين الباطنيين الذين لعنوا التجار على مر العصور واحتقروهم، بينما كانوا يرفعون من قدر المتسولين واللصوص، كانوا قد عرفوا الدافع الخفي وراء ازدراءهم وتهكمهم: وهو أن التاجر هو الكائن الذين يخشونه، لأنه إنسان العدل.

هل تسألون ما الالتزام الأخلاقي الذي أُدين به لأخوتي من البشر؟ لا شيء، باستثناء الالتزام الأخلاقي الذي أُدين به لنفسي وللأشياء المادية وللوجود بأكمله: وهو العقلانية. أتعامل مع الأفراد بحسب ما تقتضيه طبيعتي وطبيعتهم: أي عن طريق العقل. ولا أسعى أو أريد أي شيء منهم باستثناء العلاقات التي يهتمون بالدخول فيها باختيارهم الطوعي. لا أتعامل إلا مع عقولهم وفقط من أجل مصلحتي الشخصية، عندما يرون أن مصلحتي تتوافق مع مصالحهم. وإن حدث خلاف هذا، فلا أدخل في علاقة معهم، واترك الذين لا يوافقونني يمضون في طريقهم ولا

أنحرف عن طريقي. لا أفوز إلا بالمنطق ولا أستسلم إلا للمنطق. لا أتخلى عن عقلي أو أتعامل مع أشخاص تخلوا عن عقولهم. ليس لدي ما أكسبه من الحمقى أو الجبناء، ليس لدي أي منافع أسعى إلى الحصول عليها من رذائل البشر: من الغباء أو الكذب أو الخوف. والقيمة الوحيدة التي بوسع الأفراد تقديمها لي هي إعمال عقولهم. وعندما أختلف مع الإنسان العقلاني، أجعل الواقع هو الحكم النهائي، وإذا كنت محقًا فسوف يتعلم هو، وإذا كنت مخطئًا أنا من سيتعلم، وسوف يفوز أحدنا لكن كلانا سنستفيد.

وأيًا كان موضوع الخلاف، لكن هناك فعل واحد شرير لا خلاف فيه، الفعل الذي لا يجوز لأي شخص أن يرتكبه ضد الآخرين ولا يجوز لأي شخص أن يقرّه أو يغفره. وطالما أن الأفراد يرغبون في العيش معًا، فلا يجوز لأي شخص أن يقدم على فعله، هل تسمعونني؟ لا يجوز لأي شخص أن يُقدم على استخدام القوة الجسدية ضد الآخرين.

إن إدخال التهديد بالتدمير المادي في حياة المرء ليحول بينه وإدراكه للواقع، يُعد نفيًا لوسائل بقائه وإبطال لها، وإجبارًا له على التصرف ضد حكم عقله، وهذا أشبه بإرغامه على التصرف ضد ما يراه ويبصره. إن أي شخص يشرع باستخدام القوة، مهما كان الغرض من ذلك أو إلى أي حد، هو قاتل يتصرف على أساس منطلق مميت يعظم عن جرم القتل: منطلق تدمير قدرة الإنسان على العيش.

لا تفتح فاهك لتخبرني أن عقلك قد أقنعك بحقك في إكراه عقلي. القوة والعقل متضادان، إذ تنتهي الأخلاقي حيثما يبدأ استخدام السلاح. عندما تقول إن الرجال حيوانات غير عقلانية وتقترح معاملتهم على هذا النحو، فأنت بذلك تحدد شخصيتك ولا يمكنك بعد الآن المطالبة بإقرار العقل، كما لا يمكن لأي من يدعم وجود التناقضات المطالبة بذلك. يُستحال وجود «حق» في تدمير مصدر الحقوق كلها، والوسيلة الوحيدة للحكم على الصواب والخطأ: وهو العقل.

إنّ إجبار المرء على التخلي عن عقله وقبول إرادتك كبديل عنه، مع وجود السلاح بديلًا عن الاستدلال، والترهيب بديلًا عن البرهان، والموت كحجة نهائية، هو محاولة العيش في حالة عصيان ضد الواقع. حيث يتطلب الواقع من الإنسان أن يعمل من أجل مصلحته العقلانية، وسلاحك يطلب منه أنه يعمل ضدها. يهدد الواقع الإنسان بالموت إذا لم يتصرف بناءً على حكمه العقلاني، وأنت تهدده بالموت إذا فعل ذلك. أنت تضعه في عالم حيث يكون ثمن حياته هو التنازل عن جميع الفضائل المطلوبة للعيش. وسيكون الموت والهلاك الناتج عن عملية من التدمير التدريجي هو كل ما ستحققونه أنتم ونظامكم، عندما يكون الموت هو السلطة الحاكمة، والحجة الفائزة في مجتمع إنساني.

سواء أكان قاطع طريق يتعرّض لمسافر بإنذار أخير «أموالك أو حياتك»، أو سياسيًا يضع بلده أمام إنذار أخير «تعليم أولادكم أو

حياتكم»، فإن ما يعنيه هذا الإنذار هو «عقلك أو حياتك»، ولا أحد منهما ممكنٌ للمرء دون الآخر.

إذا كانت هناك درجات من الشر، فمن الصعب أن نجزم من هو الأكثر وضاعة: الغاشم الذي يفترض الحق في إكراه عقول الآخرين أو المنحط أخلاقيًا الذي يمنح للآخرين الحق في إكراه عقله. هذا هو المُطلق الأخلاقي غير المُطروح للنقاش. أنا لا أمنح أحكام العقل للأفراد الذين يقترحون حرماني من العقل. ولا أدخل في مناقشات مع الأقران الذين يظنون أن باستطاعتهم منعي من التفكير. ولا أقدم موافقتي الأخلاقية على رغبة مجرم في قتلي. وعندما يحاول إنسان التعامل معي بالقوة؛ أجيب عليه بالقوة.

لا يجوز استخدام القوة إلا على سبيل الانتقام، وليس إلا ضد الشخص الذي يبدأ في استخدامها. كلا، أنا لا أشاركه في شره أو أهبط إلى مستوى مفهومه الأخلاقي، وإنما فقط أمنحه اختياره، وهو التدمير. والتدمير الوحيد الذي كان له الحق في اختياره هو تدمير نفسه. وبينما هو يستخدم القوة للاستيلاء على قيمة ما، فأنا لا أستخدمها إلا لتدمير ما من شأنه أن يجلب الدمار. وفي حين أن الإنسان المتعطل يسعى إلى كسب الثروة عن طريق القضاء علي، لكنني لا أزداد ثراءً بقتل شخص متعطل. ولا أسعى وراء الحصول على أية قيمة عن طريق الشر، ولا أسلم قيميّ للشر.

باسم جميع المنتجين الذين أبقوكم على قيد الحياة وتلقوا تهديداتكم لهم بالموت كمقابل، سأجيبكم الآن بإنذارنا الأخير

الوحيد: عملنا أم أسلحتكم. يمكنكم اختيار إحداهما، ولكن لا تستطيعون الحصول على كليهما. نحن لا نقدم على استخدام القوة ضد الآخرين أو نخضع للقوة التي بين أيديهم. وإذا كنتم ترغبون في العيش في مجتمع صناعي مرة أخرى، فسيكون هذا وفقًا لشروطنا الأخلاقية. وشروطنا وقوتنا المحركة يمثلان النقيض لشروطكم. لقد كنتم تستخدمون الترهيب سلاحًا لكم وتقتلون الإنسان عقوبةً على رفضه لمبادئكم الأخلاقية. لكننا نقدم له الحياة كثواب على قبوله لأخلاقياتنا.

أنتم عبدة العَدَم، لم تكتشفوا البتّة أن تحقيق العيش لا يعادل تجنب الموت. وأن السعادة ليست «غياب الألم»، والذكاء ليس «غياب الغباء»، والنور ليس «غياب الظلام»، والكينونة ليست «غياب العَدَم». فالبناء لا يتم بالامتناع عن الهدم؛ ذلك إن إمضاء قرونًا من الجلوس والانتظار بمثل هذا الامتناع لن يرفع لك عارضة واحدة حتى تمتنع عن فعل الهدم، والآن لم يعد بوسعكم أن تخبروني، أنا البنّاء، «أنتج سلعتك وأطعمنا في مقابل عدم تدمير إنتاجك». بل وسأجيبكم باسم كل ضحاياكم: أهلكوا مع خوائكم وفيه. فكما أخبرتكم الوجود ليس كفيلًا بنفي العَدَم. والشر، وليس القيمة، معدوم ولا وجود له، الشر عاجز ولا يملك أي قوة باستثناء تلك إلا القوة التي تركناها تُنتزع منا. أذهبوا للهلاك لأننا تعلمنا أن القيمة الصفرية (حالة العَدَم) لا تمنحك الحياة.

أنتم تسعون إلى الهروب من المعاناة والألم، ونحن نسعى إلى

تحقيق السعادة. أنتم تعيشون من أجل تجنب العقاب، ونحن نعيش من أجل كسب الثواب. التهديدات لن تجعلنا نعمل، والترويع ليس ما يحفزنا. والموت ليس هو ما نرغب في تجنبه، ولكن الحياة هي التي نرغب في أن نعيشها.

أنت يا من فقدت مفهوم الاختلاف، أنت يا من تدعي أن الخوف والسعادة هما حافزان لهما نفس القوة- وتضيف سرّا أن مشاعر الخوف هي الأكثر «عمليّة»- أنت لا ترغب في العيش، ووحده الخوف من الموت ما يزال يلزمك بالوجود الذي تلعنه. أنت تندفع في حالة من الذعر بين فخاخ أيامك، باحثًا عن المخرج الذي أغلقته، وهاربًا من مطارد لا تجرؤ على ذكر اسمه، حتى ترتمي في أحضان خوف لا تجرؤ على الاعتراف به، وكلما زاد خوفك زادت خشيتك من الفعل الوحيد الذي بإمكانه تخليصك: وهو التفكير. والغرض من كفاحكم هو ألا تعرفون ما سأفصحه الآن على أسماعكم وألا تفهمونه أو تسمعونه أو تسمّونه: وهو أن أخلاقكم هي أخلاقيات الموت، وليس العيش.

الموت هو معيار قيمكم، والموت هو هدفكم المختار، وعليكم أن تستمروا في الركض لأنه لا مفر من المُطارد الذي يقف بالخارج لتدميركم، أو من معرفة أن ذلك المُطارد هو أنت. توقفوا عن الركض لمرة واحدة- لم يعد هناك مكانًا للركض- وقفوا عراة، كيفما تخشون فعل ذلك لكنه كيفما أراكم الآن، وألقوا نظرة على ما تجرأتم على تسميته مدونة أخلاقية.

اللعنة هي بداية أخلاقياتكم، والتدمير هدفها ووسيلتها ونهايتها. حيث تبدأ مدونتكم الأخلاقية بلعن الإنسان باعتباره شرًّا، ثم تطلب منه أن يمارس خيرًا حكمت عليه باستحالة أن يمارسه. وتطالبه، كبرهان أول على فضيلته، بقبول فساده دون أي إثبات أو دليل. وتطالبه بأن يبدأ مع معيار للشر وليس معيار القيمة، والذي هو هذا المرء نفسه، من خلال القبول بما سيحدده بعدئذ أنه من مصلحته: وهو أنّ الخير صورة المرء الأخرى.

لا يهم من يغدو بعد ذلك المستفيد من المجد الذي تركه هذا الإنسان ومن روحه المعذبة، أ كان إلهًا باطنيًا له مراد مبهم أو أي عابر سبيل يتخذ جروحه المتعفنة سببًا لادعاء حقه الغامض في هذا المرء، لا يهم، وليس من مصلحته أن يفهم، وواجبه هو العيش متعثرًا خلال سنوات من التكفير، التكفير عن ذنب وجوده لأي جابٍ تائه يجول لجمع جِزى مبهمة، ومفهومه الوحيد للقيمة هو العَدَم، والخير هو كل ما هو غير إنساني.

اسم هذه العبثية الرهيبة هو (الخطيئة الأصلية).

الخطيئة التي تُرتكب بدون إرادة محضة هي صفعة على الأخلاق وتناقض صارخ في المعنى: ذلك أن ما يقع خارج إمكانية الاختيار هو خارج نطاق الأخلاق. فإذا كان الإنسان شريرًا بالولادة، فليس لديه إرادة ولا قدرة على تغيير ذلك، وإذا لم تكن لديه إرادة فليس بوسعه أن يكون صالحًا ولا شريرًا، ويصبح حينها إنسانًا آليًّا لا تطوله الأخلاق. إن النظر في أي حقيقة قائمة تتعلق بالإنسان

وليست مفتوحة لاختياره على أنها خطيئة ارتكبها، هو استهزاء بالأخلاق. والنظر في طبيعة الإنسان على أنه خطيئة ارتكبها هو استهزاء بالطبيعة. ومعاقبته على جريمة ارتكبها قبل ولادته هو استهزاء بالعدل. وإدانته في مسألة تخلو من البراءة هو استهزاء بالعقل. وإن تدمير الأخلاق والطبيعة والعدل والعقل من خلال مفهوم واحد هو فعل شرير لا يمكن مضاهاته. ولكن هذا هو جذر مدونتكم الأخلاقية.

لا تتوارى وراء التهرّب الجبان بأن الإنسان يولد بإرادة حرة ولكن مع نزعة إلى الشر. فالإرادة الحرة المقيدة بنزعة ما أشبه بلعب لعبة مع قطعة نرد مغشوشة. إنه يجبر الإنسان على الكفاح من خلال الجهد المبذول في اللعب، وأن يتحمل المسؤولية وثمن اللعبة، لكن القرار مرجح لصالح نزعة لا يتمتع بالقدرة على الهروب منها. وفي حال كانت النزعة من اختياره، فهو لا يستطيع أن يمتلك الإرادة في الحالتين، وإذا لم يكن من اختياره فلن تكون إرادته حرة.

ما طبيعة الذنب الذي يسميه معلميكم «الخطيئة الأصلية؟» ما الشرور التي اكتسبها الإنسان عندما سقط من مكانة اعتبروها كمالًا؟ تقول أسطورتهم إنّه أكل ثمرة شجرة المعرفة حتى أنه اكتسب عقلًا وأصبح كائنًا عقلانيًا، وإنّ معرفة الخير والشر هي ما جعلته كائنًا أخلاقيًا، وإنّه عندما حُكم عليه كرهًا بكسب قوته من عمله أصبح كائنًا منتجًا. وعندما حُكم عليه كرهًا بالشعور

بالشهوة اكتسب قدرة التمتع الجنسي. والشرور التي يلعنونه بسببها هي العقل والأخلاق والابتكار والسعادة، كل القيم الأساسية لوجوده. وليست رذائله هي ما أُخترعت هذه الأسطورة لتفسيرها وإدانتها، وليست أخطائه هي التي يعتبرونها ذنبه، ولكن جوهر طبيعته كإنسان. مهما كانت ماهيته- ذلك الروبوت في جنة عدن، الذي كان موجودًا بلا عقل وبلا قيم وبلا عمل وبلا حب- فهو لم يكن إنسانًا.

كان سقوط الإنسان وانحطاطه، وفقًا لرؤية معلميكم، متمثّلة في اكتسابهِ للفضائل المطلوبة للعيش. وهذه الفضائل، بحسب معاييرهم، هي خطيئته. ويجادلون بأن شرّه هو أنه إنسان. ويجادلون أن ذنبه هو أنه يعيش.

ويسمونها أخلاق الرحمة، وعقيدة حب الإنسان.

ينفون أنهم ينادون بأن الإنسان شر، وأن الشر فقط هو ذلك الشيء الغريب: جسده. يقولون إنهم لا يريدون قتله وإنما يريدون أن يفقدوه جسده وحسب. ويزعمون أنهم يسعون إلى مساعدته في التغلب على آلامه، وهم في ذات الوقت يشيرون إلى مخلعة التعذيب التي ربطوه بها، المخلعة ذو العجلتين اللتين تسحبانهِ في اتجاهين متعاكسين، مخلعة مذهبهم الذي يفصل روحه عن جسده.

لقد شقوا الإنسان إلى نصفين، ووضعوا نصفًا ضد الآخر. لقد علّموه أن جسده ووعيه عدوان متورطان في صراع مميت أبدي، وخصمانِ من طبيعتين متعارضتين، ومطلبين متناقضين، واحتياجين

غير متوافقين. وأن الإقدام على نفع أحدهما من شأنه أن يتسبب في إيذاء الآخر، وأن روحه تنتمي إلى عالم خارق للطبيعة، ولكن جسده سجن شرير يقيده بهذه الأرض، وأن الخير يتحقق بالتغلب على جسده، وإضعافه من خلال خوض سنوات من النضال الصبور، ليشق طريقه إلى الهروب العظيم من هذا السجن الذي يؤدي إلى حرية القبر.

لقد علّموا الإنسان أنه ناشز (لا يستقيم مع بيئته) ميؤوس منه، ومكوّن من عنصرين كلاهما يرمزان للموت، بحيث أن عنصر الجسد بدون روح ما هو إلا جيفة، والروح بدون جسد هي شبح. وهذه هي صورتهم عن طبيعة الإنسان: ساحة صراع بين جيفة وشبح، جيفة تتمتع ببعض الإرادة الشريرة من تلقاء نفسها، وشبح وُهبت له معرفة بأن كل ما هو معلوم لدى الإنسان ليس له وجود، وأنه لا يوجد سوى ما لا يمكن معرفته (المجهول).

هل تلاحظ ما الملكَة البشرية التي صُممت هذه العقيدة لنبذها؟ كان عقل الإنسان هو ما تعين إبطاله من أجل جعل هذا الإنسان ينهار. وبمجرد ما تخلى هذا الإنسان عن العقل، تُرك تحت رحمة وحشين لم يستطع فهمهما أو السيطرة عليهما: جسد تحركه غرائز طليقة، وروح تحركها ما يأتي به أهل الباطن من ادعاءات الوحي والإلهام، وتُرك ضحية ساكنة ومنكوبة في معركة دارت بين روبرت

مكتبة
t.me/soramnqraa

ومَملاة[16].

وبينما يزحف هذا المرء الآن عبر الحطام، ملتمسًا بصورة عمياء طريقة للعيش، يعرض عليه معلّميكم مساعدة مبدأ أخلاقي يخبره بأنه لن يجد أي حل ويجب ألا يسعى إلى تحقيق أي شيء على الأرض. يقولون له إن الوجود الحقيقي هو ما لا يستطيع إدراكه، وأن الوعي الحقيقي هو القدرة على إدراك اللاوجود، وإذا كان غير قادر على فهم ذلك، فهذا دليل على أن وجوده شر وأن وعيه قاصر وعاجز.

كنِتيجة لفصل روح الإنسان عن جسده، ظهر نوعان من معلمي أخلاقيات الموت: الباطنيون في الروح والباطنيون في الجسد، الذين تدعونهم بالروحانيين والماديين، أولئك الذين يؤمنون بالوعي دون الوجود وأولئك الذين يؤمنون بالوجود دون الوعي. وكل منهما يطالب بتسليم عقلك، أحدهما لإيحاءاتهم والآخر لانفعالاتهم اللاإرادية. وبغض النظر عن مدى صخب موقفيهما كعدوين لدودين، فإن مدونتيهما الأخلاقية متشابهة، وكذلك أهدافهما المتمثلة في هدف مادي وهو استعباد جسد الإنسان، وهدف روحاني وهو تدمير عقله.

الخير، كما يقول الباطنيون في الروح، متمثل في الرب، الكائن الذي تعريفه الوحيد هو أنه يفوق قدرة الإنسان على إدراكه، وهو

(16) أداة ميكانيكية تسجل ما يُملى عليها من كلام بحيث يكون في الإمكان سماعه بعد ذلك وتدوينه على الورق. (المترجم)

تعريف يبطل وعي الإنسان ويلغي مفاهيم وجوده. والخير، في نظر الباطنيون في الجسد، متمثل في المجتمع، الشيء الذي يعرّفونه بأنه كائن لا يمتلك أي شكل مادي، وكائن خارق لا يتجسد في أي شخص بعينه، ويتجسد في الجميع بشكل عام، باستثناء نفسك. يقول الباطنيون في الروح إنّ عقل الإنسان يجب أن يخضع لإرادة الرب. ويقول الباطنيون في الجسد إنّ عقل الإنسان يجب أن يخضع لإرادة المجتمع. ويقول الباطنيون في الروح إنّ معيار القيمة لدى الإنسان هو رضا الرب، الذي تتجاوز معاييره قدرة الإنسان على الفهم ويجب أن يقبلها من باب الإيمان. بينما يقول الباطنيون في الجسد إنّ معيار القيمة لدى الإنسان هو رضا المجتمع، الذي تتجاوز معاييره حق الإنسان في الحكم والتقييم، ويجب أن تُطاع باعتبارها مُطلق أولي. والغرض من حياة الإنسان، على سبيل قولهما، هو أن يصبح مُغيّبًا متذلّلًا وبائسًا يخدم غاية لا يعرفها، لأسباب لا يجوز له التشكيك فيها. وعليه يقول الباطنيون في الروح إنّ ثوابه سيُمنح له ما بعد منزلة القبر، بينما يقول الباطنيون في الجسد إنّه ثوابه سيُمنح له على الأرض، لأحفاد أحفاده.

يقول كلاهما إنّ الأنانية شر من شرور الإنسان، وإنّ صلاح المرء يكمن في التخلي عن رغباته الشخصية وإنكار نفسه والتخلي عنها وتسليمها، ومن صلاحه أيضًا أن ينفي الحياة التي يعيشها. ويصرخ كلاهما بأن التضحية هي جوهر الأخلاق، وهي الفضيلة الأسمى في متناول الإنسان.

أيًّا كان من يصله صوتي، وأيًّا كان الإنسان الضحية، وليس الإنسان القاتل، فأنا أتحدث بصوت عقلك الذي على وشك الموت، ومن شفا الظلام الذي تغرق فيه، لأقول لك إنّه إذا بقيت لديك القدرة على النضال من أجل الحفاظ على آخر شرارة لذاتك والآخذة في التلاشي، فقم بذلك الآن. الكلمة التي دمرتك هي «التضحية». استخدم ما تبقى من قوتك لفهم معناها. فأنت ما تزال حيًا. ولديك الفرصة.

«التضحية» لا تعني نبذ ما لا قيمة له، بل نبذ الثمين والقيم. «التضحية» لا تعني نبذ الشر من أجل الخير، بل نبذ الخير من أجل الشر. «التضحية» هي التنازل عما تقدّره لصالح ما لا يحظى بأي قيمة لديك.

إذا استبدلت بنسًا واحدًا بالدولار، فهذا ليس بتضحية، لكن إذا استبدلت دولارًا ببنس واحد فهو كذلك. إذا حققت المهنة التي تريدها بعد سنوات من الكفاح، فهذا ليس بتضحية، لكن إذا تخليت عنها من أجل منافس آخر فهو كذلك. إذا كنت تملك زجاجة من الحليب وأعطيتها لطفلك الجائع، فهذه ليست بتضحية، ولكن إذا أعطيتها لابن جارك وتركت طفلك يموت، فهو كذلك.

إذا أعطيت المال لمساعدة صديق، فهذا ليس بفعل تضحية، ولكن إذا أعطيته لشخص غريب لا قيمة له عندك، فهو كذلك. وإذا أعطيت صديقك مبلغًا بوسعك توفيره، فهذا ليس بتضحية، ولكن إذا أعطيته المال على حساب تنقيص معيشتك، فهو مجرد

فضيلة جزئية وفقًا لهذا النوع من المعايير الأخلاقية، وإذا أعطيته المال على حساب التسبب بالنكبات لنفسك، فقد حققت كامل فضيلة التضحية.

وإذا نبذت كل الرغبات الشخصية وكرست حياتك لمن تحب، فإنك لا تحقق الفضيلة الكاملة: إذ ما زلت تحتفظ بقيمة لك، وهي حبك. لكن إذا كرست حياتك لغرباء عشوائيين، فهذا فعل ذو فضيلة أسمى. وإذا كرست حياتك لخدمة أشخاص تكن لهم البغض، فهذه هي أعظم الفضائل التي بوسعك ممارستها.

التضحية هي التنازل عن قيمة ما. والتضحية الكاملة هي التنازل الكامل عن جميع القيم. وإذا كنت ترغب في تحقيق الفضيلة الكاملة، يجب ألا تسعى وراء أي عرفان وامتنان مقابل تضحيتك، ولا الثناء ولا الحب ولا الإعجاب ولا تقدير الذات، ولا حتى الاعتزاز بكونك إنسانًا فاضلًا، فأدنى أثر لأي انتفاع يؤدي إلى إضعاف فضيلتك. وإذا كنت تتبع مسار عمل لا يفسد حياتك بأي سعادة، ولا يجلب لك أي قيمة في المادة، ولا قيمة في الروح، ولا منفعة، ولا ربح، ولا مكافأة، إذا حققت هذه الحالة من العَدَم الكلي، فقد حققت نموذج الكمال الأخلاقي.

لقد قيل لكم إنّ الكمال الأخلاقي أمر يتعذر تحقيقه على الإنسان، وهو كذلك وفق هذا المعيار. حيث لا يمكنك تحقيقه ما دمت على قيد الحياة، ولكن قيمة حياتك وشخصك تُقاس بمدى نجاحك في الاقتراب من حالة العَدَم المثالية وهي الموت.

ومع ذلك إذا بدأت مسار عملك وأنت فارغ الوعي والأحاسيس، كخضار تسعى إلى أن يلتهمها أحدهم، بدون قيم ترفضها ولا رغبات تتخلى عنها، فلن تفوز بتاج التضحية. لأنه ليس من التضحية التخلي عن غير المرغوب. ليس من التضحية أن تعطي حياتك للآخرين إذا كان الموت هو رغبتك الشخصية. فحتى تحقق فضيلة التضحية لابد أن تكون لديك رغبة العيش وحب الحياة، ولابد أن تلتهب نفسك شغفًا بهذه الأرض وبكل الروعة التي يمكن أن تمنحك إياها، ولابد أن تشعر بغرسة كل سكين ينتزع رغباتك بعيدًا عنك ويستنزف حبك من جسدك. ليس مجرد الموت هو ما تقدمه لك أخلاقيات التضحية كمثل أعلى، ولكن الموت بالتعذيب البطيء.

لا تذكّرني بأن الأمر يقتصر على هذه الحياة على الأرض وحسب. فلا أنا يهمني شيء آخر غير هذا. ولا أنت كذلك.

إذا كنت ترغب في الحفاظ على ما تبقى من كرامتك، فلا تسمي أفضل أفعالك «تضحية»: فهذا المصطلح يصفك بأنك غير أخلاقي وفاسد. ودعني أوضح لك هذا، إذا ابتاعت الأم طعامًا لطفلها الجائع بدلًا من قبعة لنفسها، فهذه ليست تضحية، وإنما هي تقدّر الطفل أكثر من القبعة، لكنها تغدو تضحية لنوع الأم التي تحظى عندها القبعة بقيمة أعلى، والتي تفضل أن يتضور ولدها جوعًا، ولا تطعمه إلا من منطلق الإحساس بالواجب. إذا مات المرء وهو يقاتل من أجل حريته، فهذه ليست تضحية، ذلك أنه لا يرغب في

العيش عبدًا، لكنها تضحية لنوع الإنسان الذي مستعد للعيش هكذا. وإذا رفض المرء بيع قناعاته، فهذه ليست تضحية، إلا إذا كان من النوع الذي لا يحمل أي قناعة.

لا يمكن للتضحية أن تكون مناسبة إلا لأولئك الذين ليس لديهم ما يضحون به- لا قيم ولا معايير ولا حُكم- أولئك الذين رغباتهم هي أهواء غير عقلانية، يدركونها بصورة عمياء ويتخلون عنها بسهولة. لكن في حالة المرء الأخلاقي، الذي ولدت رغباته من قيم عقلانية، فإن ما تمثله التضحية هو التنازل عن الصواب من أجل الخطأ، والخير من أجل الشر.

مذهب التضحية هو المذهب الأخلاقي الذي يتبناه غير الأخلاقي، وهي أخلاق تعلن إفلاسها من خلال الاعتراف بعجزها عن منح الرجال أي مصلحة شخصية في الفضائل أو القيم، وأن أرواحهم مجارير فساد لابد أن يتعلموا التضحية بها. وتعترف أيضًا أنها عاجزة عن تعليم الرجال أن يكونوا صالحين ولا تستطيع إلا أن تُخضعهم للعقاب الدائم.

هل تظن، في حالة من الضبابية والسبات، أن القيم المادية هي وحدها ما تتطلب منك أخلاقكم التضحية بها؟ وما هي القيم المادية برأيك؟ لا قيمة للمادة إلا إن كانت وسيلةً لإشباع الرغبات البشرية. والمادة ليست سوى أداة لتحقيق القيم الإنسانية. لخدمة ماذا يُطلب منك منح الأدوات المادية التي أنتجتها فضيلتك؟ لخدمة ما تعتبره شرًا: لمبدأ لا تؤمن به، ولشخص لا تحترمه،

ولتحقيق غاية تتعارض مع غايتك، وما عدا ذلك لا يجعل من هبتك تضحية.

تخبركم أخلاقكم بالتخلي عن العالم المادي وفصل قيمكم عن المادة. لكن الإنسان الذي لا تُجسد قيمه في شكل مادي، والذي لا يرتبط وجوده بمُثله العليا، والذي تتعارض أفعاله مع قناعاته، هو منافق صغير دنيء. وهذه هي سمات الإنسان الذي ينصاع لأخلاقياتكم ويفصل قيّمه عن عالم المادة. إن المرء الذي يحب امرأة ولكنه ينام مع أخرى، والمرء الذي يقدّر موهبة عامل ما ولكنه يوظف آخر، والمرء الذي يرى قضية عادلة تستحق دعمه ولكنه يتبرع بماله لدعم قضية أخرى، والمرء الذي يحمل معايير صَنعَة عالية ولكنه يكرس جهوده لإنتاج القُمامة، هؤلاء هم الأشخاص الذين تخلوا عن المادة، الأشخاص الذين يظنون أن قيمهم الروحيّة لا يمكن أن تتحول إلى واقع مادي.

هل تقول إنّها الروح هي التي نبذها هؤلاء الرجال؟ هذا صحيح. فلا يمكنك أن تحظى بواحد دون الآخر. فأنت كيان لا يتجزأ من المادة والوعي. تخلّ عن وعيك وستصبح حينها همجيًّا غاشمًا. وتخل عن جسدك وتصبح حينها مُقلدًا زائفًا. وتخل عن العالم المادي وبذلك أنت تسلمه للشر.

وهذا هو بالضبط هدف أخلاقياتكم، والواجب الأخلاقي الذي تطالبه بكم مدونتكم. أن تعطي فيما لا تنعم به، وتخدم ما لا يعجبك، وتخضع لما تعتبره شرًا، وأن تسلم العالم لقيّم الآخرين

وتنكر وترفض وتتخلى عن نفسك. لكن نفسك هي عقلك، تخل عنها وستصبح قطعة من اللحم جاهزة لأي آكل من آكلي لحوم البشر.

إنّ عقلك هو ما يريدونك أن تتنازل عنه لكلّ أولئك الذين ينادون بمذهب التضحية، أيًّا كانت شعاراتهم أو دوافعهم، وسواء كانوا يطالبون بتحقيقه في روحك أو جسدك، وسواء كانوا يعدونك بحياة أخرى في الجنة أو معدة ممتلئة على الأرض. وأولئك الذين يبدؤون بالقول «من الأنانية أن تسعى وراء رغباتك وعليك أن تضحي بها لرغبات الآخرين» ينتهي بهم الحال إلى قول «من الأنانية التمسك بقناعاتك وعليك أن تضحي بها لقناعات الآخرين».

وهذه حقيقة، فأكثر الأشياء أنانية هو عقل مستقل لا يعترف بأي سلطة أعلى من سلطته ولا قيمة أعلى من حكمه على الحقيقة. وهم يطلبون منك التضحية بنزاهتك الفكرية ومنطقك وعقلك ومعيارك للحقيقة، من أجل أن تصبح عاهرة معيارها هو تحقيق أكبر قدر من المتعة لأكبر عدد من الناس.

إن بحثتم في مدونتكم الأخلاقية للحصول على توجيه وإجابة بشأن سؤال: «ما هو الخير؟» الإجابة الوحيدة التي ستجدونها هي «مصلحة الآخرين». الخير لديكم هو أيًا كان ما يرغب فيه الآخرين، أو أيًا كان ما تشعر أنهم يشعرون بالرغبة فيه، أو أيًا كان ما تشعر أنهم يجب أن يشعروا به. وكأن «مصلحة الآخرين» صيغة

سحرية تحول أي شيء إلى شيء ثمين أو فائق الحسن، وصيغة تُتلى كتأكيد على تحقيق الرفعة الأخلاقية، وتطهيرًا لأي فعل من السوء، حتى لو كان هذا الفعل هو ذبح عفيف مُستعصم. كما أن معياركم للفضيلة ليس شيئًا، وليس فعلًا، وليس مبدأ، بل نية وقصد. فلا تحتاج دليلًا ولا أسبابًا ولا إنجازات، ولا تحتاج في الواقع إلى تحقيق مصلحة الآخرين، كل ما تحتاج معرفته هو أن دافعك كان تحقيق مصلحة الآخرين وليس مصلحتك. وتعريفكم الوحيد للخير يقوم على النفي: الخير هو «ما ليس فيه خير وصلاح لي».

إنّ مدوّنتكم الأخلاقية- التي تتفاخرون بأنها تدعم القيم الأخلاقية الخالدة والمطلقة والموضوعية وتحتقر تلك المشروطة والنسبية والذاتيّة- تقدّم نسختها المُطلقة في شكل قاعدة السلوك الأخلاقي التالية: إن كنت ترغب في الشيء فهو شر، وإذا رغب الآخرون فيه فهو خير، وإن كان الدافع وراء فعلتك هو مصلحتك فلا تقدم عليه، وإن كان الدافع هو مصلحة الآخرين، فكل شيء مباح.

وكما أن الازدواجية في هذه الأخلاقيات ومعاييرها تقسمك إلى نصفين، فهي تقسم البشرية أيضًا إلى فريقين معادين: الأول هو أنت والآخر هم بقية البشرية. أنت المنبوذ الوحيد الذي ليس لديه الحق في الإرادة أو العيش. أنت الخادم الوحيد والبقية هم السادة، أنت وحدك من تعطي والبقية هم من يأخذون، أنت المَدين الأبدي والبقية هم الدائنون الذين لا تستطيع أن تستوفي دينهم أبدًا. ويجب

ألا تشكك في حقهم في الحصول على تضحيتك، أو طبيعة رغباتهم واحتياجاتهم: فحقهم يُمنح لهم من خلال «النفي»، من خلال حقيقة أنهم «ليسوا أنت».

لأولئك الذين قد يطرحون أسئلة، إن مدونتكم تقدم لكم ما من شأنه أن يواسيكم وفي ذات الوقت فيه استغفال وخداع لكم: وهو أنها تخبركم أنه من أجل سعادتكم عليكم أن تخدموا سعادة الآخرين، وأن السبيل الوحيد لتحقيق بهجتكم هو بالتنازل عنها للآخرين، والسبيل الوحيد لتحقيق ازدهاركم ورخائكم هو تسليم ثرواتكم للآخرين، والسبيل الوحيد لحماية حيواتكم هي حماية جميع الناس باستثناء أنفسكم، وإذا لم تجدوا السعادة في هذه السبّل فهذا خطأكم ودليل على شرّكم. وإذا كنتم صالحين ستجدون سعادتكم في إقامة ولائم للآخرين، وستجدون رِفعَتكم في العيش على ما تبقى من الفتات إذا ما اهتموا بإلقائها عليكم.

أنتم يا من تفتقرون إلى معيارٍ لتقدير الذات، تقبلون الذنب المُلقى عليكم ولا تجرؤن على طرح الأسئلة. لكنكم تعرفون الإجابة غير المُعلن عنها، وترفضون الاعتراف بما تبصره أعينكم، وبالمنطلقات الخفية التي تحرك عالمكم. أنتم تعرفون ذلك، ليس في شكل بيان صريح، ولكن في شكل جَزَع مظلم بدواخلكم، بينما تتخبطون بين الوقوع في ذنب الخداع وذنب الممارسة قسرًا لمبدأ أبشع من أن يُسمى.

أنا، الذي أرفض أخذ ما لم أكتسبه لا في القيم ولا في الذنب، أنا

هنا لطرح الأسئلة التي طالما تهربتم منها. لماذا من الأخلاقي خدمة سعادة الآخرين ولكن ليس سعادتك؟ إن كان التمتع يشكل قيمة، فلماذا يكون أخلاقيًا عندما يختبره الآخرون، ولكنه غير أخلاقي عندما تختبره أنت؟ وإن كان التلذذ بمذاق الكعكة هو قيمة، فلماذا يُعد تدليلًا فاسدًا عندما تدخل معدتك ولكنه هدف أخلاقي عليك تحقيقه عندما يتعلق الأمر بمعدات الآخرين؟ لماذا من غير الأخلاقي أن تكون لديك رغبة، ولكن من الأخلاقي أن تكون لدى الآخرين؟ لماذا من غير الأخلاقي إنتاج قيمة ما والاحتفاظ بها ولكن من الأخلاقي التخلي عنها؟ وإذا لم يكن من الأخلاقي أن تحتفظ بقيمة ما، فلماذا من الأخلاقي أن يتقبلها الآخرون؟ وإذا كنتَ إيثاريًّا وفاضلًا عندما تقدّمها إلى الآخرين، أفلا يكونون أنانيين وآثمين عندما يأخذونها؟ هل تتكون الفضيلة من خدمة الرذيلة؟ هل الغاية الأخلاقية للأخيار هي التضحية بالنفس من أجل الأشرار؟

الجواب الذي تتهربون منه، والجواب الفظيع هو: كلا، من يأخذون ليسوا أشرارًا، شريطة أنهم لم يكتسبوا بأنفسهم القيمة التي أعطيتها أنت لهم. وليس من الفساد أن يقبلوها، شريطة أن يكونوا عاجزين عن إنتاجها، وعاجزين عن استحقاقها، وعاجزين عن إعطائك أي قيمة في المقابل. وليس من الفساد أن يتمتعوا بها، شريطة ألا يحصلوا عليها بالحق.

هذا هو الجوهر الخفي لعقيدتكم، والنصف الآخر من معاييركم

المزدوجة: وهو أنه من غير الأخلاقي أن تعيش بجهدك ولكن من الأخلاقي أن تعيش على جهود الآخرين، ومن غير الأخلاقي أن تستهلك منتجك ولكن من الأخلاقي أن تستهلك ما ينتجه الآخرين، ومن غير الأخلاقي أن تستحصل رزقك ولكن من الأخلاقي أن تستجدي وتتسول. وأن الأشخاص الطفيليين هم الذين يشكلون المبرر الأخلاقي لوجود المنتجين، ولكن وجود الطفيليين هو في حد ذاته غاية. وأنه من الشر الانتفاع من خلال الإنجاز ولكن من الخير الانتفاع من خلال التضحية. ومن الشر أن تخلق سعادتك ولكن من الخير التمتع بها على حساب دماء الآخرين.

تقسم مدونتكم الأخلاقية البشرية إلى طبقتين وتوجب عليهم العيش وفقًا لقواعد معاكسة: أولئك الذين لهم أن يرغبوا في أي شيء وأولئك الذين ليس لهم أن يرغبوا في أي شيء إطلاقًا، المختارون والملعونون، والمحمولون والحاملون، والآكلون والمأكولون. ما المعيار الذي يحدد طبقتك؟ ما مفتاح المرور الذي ينقلك للصفوة الأخلاقية؟ هو الافتقار إلى القيمة.

وأيًّا كانت القيمة التي ينطوي عليها الأمر، فإن افتقارك إليها هو ما يعطيك الحق في مطالبة هؤلاء الذين يمتلكونها. وحاجتك هي التي تمنحك حق المطالبة بالمكافآت. فإذا كنت قادرًا على تلبية حاجتك فإن قدرتك هذه تلغي حقك في إشباعها. لكن الحاجة التي لا تستطيع إشباعها هي ما تمنحك الحق الأول في حياة

البشرية.

وفي حال نجحت، فإن أي شخص يفشل هو سيدك. وفي حال فشلت فإن أي شخص ينجح هو عبدك. وسواء كان فشلك عادلًا أم لا، وسواء كانت رغباتك عقلانية أم لا، وسواء كان شقائك نتيجةً لرذائلك أو لم تجنيه بيديك، فإن شقائك هو ما يمنحك الحق في الحصول على المكافآت. وأن الألم، بغض النظر عن طبيعته أو سببه وإنما باعتباره مطلقًا أساسيًا، هو ما يمنحك رهنًا على الوجود كله.

وإن أقدمت على معالجة آلامك بجهودك أنت، فلن تحصل على أي تقدير أخلاقي: ذلكَ أن مدونتكم الأخلاقية تنظر إليه بازدراء على أنه فعل لخدمة المصلحة الذاتية. ومهما كانت القيمة التي تسعى إلى اكتسابها، سواء كانت ثروةً أو طعامًا أو حبًا أو حقًا من الحقوق، فإن حصلت عليها عن طريق ممارسة فضائلك، فإن مدونتكم لا تعده حيازة أخلاقية: هذا أنك لم تتسبب بالخسارة لأي شخص، ولأنها تجارة وليست صدقة، وبمقابل وليس تضحية. إن الذين يكتسبون القيم بوجه حق هم من ينتمون إلى عالم الاتجار الأناني الذي يقوم على تحقيق الربح المتبادل، ووحدهم من لا يكتسبونها بوجه حق يدعون إلى ذلك النوع من التعامل الأخلاقي الذي يقوم على تحقيق الانتفاع لأحدهم على حساب تحقيق الكارثة للآخر. كما أنهم يرون المطالبة بثواب فضيلتك هو أمر أناني وغير أخلاقي، ذلك أن افتقارك للفضيلة هو ما يحوّل مطلبك إلى حق أخلاقي.

إنّ الأخلاقيات التي تجعل الحاجة بابًا لادعاء المطالب، والفراغ- اللاوجود- معيارها للقيمة، فهي تثيب على التغيّب والتخلف والضعف والعجز والقصور والمعاناة والمرض والمصيبة والنقص والعيب والخلل، أي حالة العَدَم.

وعلى حساب من تُدفع قيمة هذه المطالب؟ أولئك الذين لُعنوا لكونهم بعيدين من حالة العَدَم، كل واحد منهم على قدر بعده عن هذا المثل الأعلى. وبما أن جميع القيم هي نتاج الفضائل، فإن درجة فضيلتك تُستخدم مقياسًا لعقوبتك، ودرجة أثمك مقياس لمكسبك. وتعلن مدونتك أن المرء العقلاني يجب أن يضحي بنفسه لغير العقلاني، والمرء المستقل للطفيلي، والصادق للكذاب، والعادل للظالم، والمنتج للمتسكع السارق، والنزيه للمحتال المذنب، والمقدّر ذاته للمضطرب البكّاء. هل تتساءل عن دناءة النفس في أولئك الذين تراهم من حولك؟ فالمرء الذي يحقق هذه الفضائل لن يقبل مدونتك الأخلاقية، والمرء الذي يقبل مدونتك الأخلاقية لن يحقق هذه الفضائل.

في ظل أخلاقيات التضحية، فإن القيمة الأولى التي تضحون بها هي الأخلاق، وبعدها تقدير الذات. عندما تكون الحاجة هي المعيار، يكون كل شخص ضحية وطفيليًا في آن. يقع ضحية لأنه يتعين عليه أن يعمل لسد احتياجات الآخرين، ويترك نفسه في موقف طفيلي لأنه يتعيّنُ عليه إشباع احتياجاته من خلال عمل الآخرين. بحيث أنه لا يستطيع أن يتعامل مع إخوته البشر إلا في

أحد هذين الدورين المهينين: متسوّل ومُستلب.

أنتم تخشون الشخص الذي لديه دولار أقل منكم، حيث يكون قد اكتسبه بحق، ويجعلكم هذا تشعرون أنكم محتالون أخلاقيًا. وتكنون الكره والبغض للشخص الذي لديه دولار أكثر منكم، حيث يكون هذا الدولار ملك مستحقًا لكم، ويجعلكم هذا تشعرون بأنكم تعرضتم للاحتيال الأخلاقي. المرء الأدنى منكم هو مصدرًا لشعوركم بالذنب، والمرء الأعلى منكم هو مصدرًا لإحباطكم. لا تعرفون ما يجب التخلي عنه أو المطالبة به، متى تعطون ومتى تأخذون، ما متعة الحياة التي هي حق لكم، وما الديون التي ما تزال غير مدفوعة للآخرين. وتناضلون في سبيل التهرب نظريًا من معرفة بأنكم، من خلال المعيار الأخلاقي الذي قبلتم به، مذنبون في كل لحظة من لحظات حياتكم، وأنه لا توجد قضمه طعام تبتلعها لا يحتاجها شخص ما في مكان ما على الأرض. وتستسلمون في غضب واستياء أعمى، وتستخلصون أن الكمال الأخلاقي لا يجب تحقيقه أو الرغبة فيه، وأنكم ستتدبرون أمركم من خلال الانتزاع مثلما يفعل السارق ومن خلال تجنب نظرات الشباب، نظرات أولئك الذين ينظرون إليك كما لو كان تقدير الذات أمرًا ممكنًا ويتوقعون منك الاتصاف به. الشعور بالذنب هو كل ما تحتفظ به أرواحكم، وكذلك روح كل شخص آخر، يمر أمامكم وهو يتجنّبُ النظر في أعينكم. هل تتساءلون لماذا لم تحقق أخلاقياتكم الأخوّة على الأرض أو النوايا الحسنة بين الإنسان

وأخيه؟

تبرير فعل التضحية، الذي تروج له أخلاقياتكم، هو أكثر فسادًا من الفساد الذي تدعي تبريره. حيث تخبركم أن الدافع وراء تضحيتكم يجب أن يكون الحب، الحب الذي يتعين عليكم أن تشعروا به تجاه كل شخص. إن الأخلاقيات التي تعلن بأن القيم الروحية أنفس وأثمن من القيم المادية، والأخلاقيات التي تعلّمك أن تحتقر عاهرة تمنح جسدها لجميع الرجال بلا تمييز، هي الأخلاقيات نفسها التي تستوجب منك أن تسلم روحك من أجل حب جميع القادمين بلا تمييز.

وكما أنه يُستحال أن توجد ثروة بلا مسبب، فإنه يستحال أن يوجد حب بلا مسبب أو أي نوع من المشاعر التي لا مسبب لها. فالعاطفة هي استجابة لحقيقة واقعية، لتقدير تمليه معاييرك. أن تحب شيئًا يعني أنك تقدّره. والمرء الذي يخبرك أنه من الممكن أن تقدر الأشياء بدون وجود قيم، وأن تحب أولئك الذين لا يمثلون لديك قيمة، هو ذات المرء الذي يخبرك أنه من الممكن أن تصبح ثريًا من خلال الاستهلاك وبدون الإنتاج، وأن النقود الورقية لها نفس قيمة الذهب.

لاحظ أنه لا يتوقع منك أن تشعر بخوف لا مبرر له. فعندما يصل هذا النوع من الرجال إلى السلطة، يكونون خبراء في اختلاق وسائل الترويع والترهيب، وفي منحك سببًا كافيًا للشعور بالخوف الذي يرغبون في أن يحكموك من خلاله. ولكن عندما يتعلق الأمر

بالحب، أسمى المشاعر وأثمنها، فأنت تسمح لهم بالصراخ في وجهك متهمينك بالجنوح الأخلاقي إن كنت عاجزًا عن الشعور بالحب غير المُبرر. وعندما يشعر أحدهم بالخوف دون سبب، فإنكم تضعونه تحت انتباه الطبيب النفساني، لكنكم لستم حريصين على حماية معنى الحب وطبيعته وكرامته.

الحبُّ هو شكل من أشكال التعبير عن قيم المرء، وأعظم ثواب تجنيه عن السمات الأخلاقية التي حققتها في شخصيتك وشخصك، والثمن العاطفي الذي يدفعه المرء مقابل السعادة التي يحصل عليها من فضائل الآخر. لكن ما تستوجبه أخلاقياتكم هو فصل حبك عن القيم وتسليمه إلى أي عابر، ليس كاستجابة لما يمثله من قيمة ولكن كاستجابة لحاجته، وليس كمكافأة ولكن كحَسَنَة، وليس كمقابل لفضائله ولكن كشيك فارغ عن رذائله. تخبركم أخلاقياتكم أن الغرض من الحب هو تحريركم من قيود الأخلاق، وأنّ الحب أسمى من الحكم الأخلاقي، وأن الحب الحقيقي يتفوق على كل ما هو شرّ في هدفه وينجو منه ويغفره، وكلما عظم الحب عظم حجم الفساد الذي يُباح للمحبوب. كما تخبركم أن حب المرء لفضائله هو أمر بائس وتافه وبشري، وأن تحبه لعيوبه هو أمر روحيٌّ وإلهي. وأن إعطاء الحب لمن يستحقه هو خدمة للمصلحة الذاتية، وأن تعطيه لمن لا يستحقه هو تضحية. فأنت تدين بحبك لأولئك الذين لا يستحقونه، وكلما قل استحقاقهم له، زاد مقدار الحب الذي تدين لهم به، وكلما كان

الشخص المستهدف أكثر بغضًا كان حبك أكثر نبلاً، وكلما كان حبك أكثر صلابةً عظم مقدار فضيلتك. وإذا استطعت جعل روحك كومة نفايات ترحب باستقبال أي شيء على قدم المساواة، وإذا استطعت أن تكف عن تقدير القيم الأخلاقية، فقد تمكنت من تحقيق حالة الكمال الأخلاقي.

هذه هي أخلاقياتكم التي تقوم على التضحية، وهذا هو الزوج من المُثل العليا الذي تقدمه: إعادة تشكيل حياة جسدك في صورة حظيرة بشرية، وحياة روحك في صورة مكب نفايات.

كان هذا هو هدفكم، ووصلتم إليه. لمَ تتذمرون الآن من عجز الإنسان وإخفاق طموحاته؟ هل لأنكم كنتم غير قادرين على الازدهار من خلال السعي إلى التدمير؟ هل لأنكم كنتم غير قادرين على الشعور بالسعادة من خلال تقديس الألم؟ هل لأنكم كنتم غير قادرين على العيش من خلال جعل الهلاك معياركم للقيمة؟

كان مدى قدرتك على تحقيق النجاح في العيش يحدد مدى انتهاكك لمدونتكم الأخلاقية، ومع ذلك تظن أن أولئك الذين يدعون إليها هم أصدقاء للبشرية، وتلعن نفسك ولا تجرؤ على التشكيك في دوافعهم أو أهدافهم. ألق نظرة على هؤلاء الآن، عندما تواجه خيارك الأخير، وإن اخترت الموت والهلاك، فافعل هذا بمعرفة تامّة بمدى ضآلة حجم العدو الذي أودى بحياتك وبخس الثمن الذي دفعه مقابل ذلك.

إنّ أهل الباطن من كلتا المدرستين، الذين ينادون باتباع مذهب التضحية، هم جراثيم تهاجمك من خلال جرح واحد: وهو خوفك من الاعتماد على عقلك. يخبرونك أنهم يمتلكون وسيلة معرفة أعلى من العقل، ونمط وعي يتفوق على العقل، مثل تأثير ما خاص يستمدونه من أحد بيروقراطيين الكون الذي يقدم لهم نصائح سرية محجوبة عن الآخرين. إذ يعلن الباطنيون في الروح أنهم يمتلكون حاسة إضافية تفتقر إليها، وتعمل هذه الحاسة السادسة الخاصة على تقويض كامل المعرفة المكتسبة من حواسك الخمس. بينما لا يكلف الباطنيون في الجسد أنفسهم عناء تأكيد أي ادعاء بوجود إدراك خارج عن الحواس، وما يعلنونه فقط هو أن حواسك غير صالحة، وأن معرفتهم تكمن في إدراك جهلك من خلال وسائل غير محددة. وكلا النوعين يطلبون منك إبطال وعيك وتسليم نفسك لسلطتهم. ويعرضون عليك حقيقة أنهم يزعمون عكس كل ما تعرفه كدليل على معرفتهم المتفوقة، وحقيقة أنهم يقودونك إلى البؤس والتضحية بالنفس والمجاعة والتدمير كدليل على قدرتهم المتفوقة على التعامل مع الوجود.

يزعمون أنهم يعرفون نمط كينونة يفوق وجودك على هذه الأرض. يسميها الباطنيون في الروح «بعدًا آخر»، والذي يتكون من إنكار الأبعاد الواقعية. ويسميها الباطنيون في الجسد «المستقبل»، والذي يتكون من إنكار الحاضر. لكن الوجود هو الذي يمنح الشيء هوية. فما الهوية التي يستطيعون منحها لعالمهم

المتفوّق؟ كل ما يستمرون في إخبارك به هو ما ليس عليه عالمهم، لكن لا يخبرونك أبدًا بما هو عليه. كل تعريفاتهم للهوية تتم من خلال النفي والتقويض: يقولون إن الرب هو ما ليس بوسع العقل البشري معرفته- ويواصلون مطالبتك بأن تعد ذلك معرفةً- وأن الرب ليس إنسانًا، والسماء ليست أرضًا، والروح ليست جسدًا، والفضيلة ليست ما تستهدف الانتفاع، وأن (أ) ليس (أ)، وأن الإدراك ليس له صلة بالحواس، وأن المعرفة لا تتم عن طريق العقل. تعريفاتهم ليس أفعال تعريف وتحديد، بل أفعال محو وطمس.

إن ميتافيزيقيا العَلَقة (الطفيلي والمستغل) وحدها هي التي تتشبث بفكرة كون يكون فيه العَدَم معيارًا لتحديد الهوية. حيث تريد العلقة الهروب من ضرورة تسمية طبيعتها الخاصة، والهروب من ضرورة معرفة أن المادة التي تبني منها عالمها هي الدم.

ما طبيعة ذلك العالم المتفوّق الذي يضحون من أجله بالعالم الموجود؟ يلعن الباطنيون في الروح المادة، ويعلن الباطنيون في الجسد الانتفاع والربح. يرغب الصنف الأول في أن ينتفع البشر من خلال التخلي عن الأرض، والثاني أن يرث البشر الأرض بالتخلي عن كل أشكال الانتفاع. عوالمهم غير المادية وغير النفعية هي عوالم تجري فيها أنهار من الحليب والقهوة، وينفجر فيها النبيذ من الصخور بأمر منهم، وتتساقط الفطائر والمعجنات عليهم من الغيوم مقابل فتح أفواههم. لكن على هذه الأرض المادية التي

يسعى فيها البشر إلى تحقيق الانتفاع والربح، هناك حاجة لإنفاق استثمار هائل في الفضيلة- الذكاء والنزاهة والطاقة والمهارة- لبناء سكة حديدية تحملهم مسافة ميل واحد، وليس كعالمهم غير المادي وغير النفعي الذي يريدون أن يسافروا فيه من كوكب إلى كوكب على حساب التمنيّ. وإن سألهم شخص صادق «كيف؟» فإنهم يجيبون بسخط شديد بأن «كيف» هي مفهوم الواقعيين المبتذلين، وأن مفهوم الأرواح السامية هو «بطريقة ما». وعلى هذه الأرض المقيدة بالمادة والربح، تتحقق المكافآت بالفكر، وفي عالم خالٍ من هذه القيود تتحقق المكافآت بالتمني.

ذلك هو جوهر سرّهم الدنيء. فالسر وراء كل فلسفاتهم المبطّنة، وكل جدليّاتهم وما يدّعون امتلاكه من حواس خارقة، وعيونهم المراوغة وكلماتهم المزمجرة، السر الذي من أجله دمروا الحضارة واللغة والصناعات والحيوات، السر الذي خرقوا من أجله أعينهم وطبول أذانهم، وعصوا حواسهم، وطمسوا أذهانهم، والغرض الذي من أجله يلغون مطلقات العقل والمنطق والمادة والوجود والواقع، هو أن يبنوا على تلك الأرض الضبابية والبلاستيكية مطلقة واحدة مقدسة: أمانيهم.

إنّ التقييد الذي يسعون إلى الهروب منه هو قانون الهوية. والحرية التي يسعون إليها هي التحرر من حقيقة أن (أ) ستظل (أ)، مهما ذرفوا من دموع أو شعروا بالغضب، وأن النهر لن يجلب لهم الحليب مهما بلغ بهم من جوع، وأن الماء لن يجري صعودًا مهما

كانت كمية التنعم التي يمكن أن يستحصلوا عليها إذا فعل ذلك، وإن أرادوه أن يصعد إلى سطح ناطحة سحاب، فينبغي لهم القيام بذلك من خلال التفكير والعمل، حيثما تؤثر طبيعة إنش واحد من سعة الأنابيب على البناء بأكمله، وحيثما ليس لمشاعرهم بمكان، وتكون عاجزة عن تغيير مسار ذرة واحدة من الغبار في الفضاء، أو تغيير طبيعة أي فعل قاموا به.

«إن أولئك الذين يخبرونك أن الإنسان غير قادر على إدراك واقع غير مشوه بفعل حواسه، هذا يعني أنهم غير راغبين في إدراك واقع غير مشوه بفعل مشاعرهم. و«الأشياء كما هي» هي الأشياء كما يدركها عقلك، وإذا ما فصلتهم عن العقل يصبحون «أشياء تحدد ماهيتها رغبتك».

لا يوجد اعتراض صادق ضد العقل، وعندما تقبل أي جزء من مذهبهم، فإن دافعك يكون هو الإفلات بشيء لن يسمح لك عقلك بمحاولة القيام به. الحرية التي تسعون إليها هي التحرر من حقيقة أنكم إذا جمعتم ثرواتكم بالسرقة فأنتم أوغاد وسفلة مهما بلغت قيمة ما تقدمونه للأعمال الخيرية أو عدد الصلوات التي تتلونها، وأنكم إذا نمتم مع عاهرات فأنتم أزواجًا غير جديرين بالتقدير مهما كنتم متلهفون لممارسة الحب مع زوجاتكم في صباح اليوم التالي، وأنكم كيانات، ولستم سلسلة من القطع العشوائية المتناثرة في عالم لا تلتصق فيه الأشياء ولا شيء فيه يلزمك بأي شيء، عالم يمثل كابوسًا للأطفال حيثما تتغير الهويات وتسبح،

وحيثما يتبدل دوريّ الفاسد والبطل بصورة تعسفية حسب الرغبة، والتحرر من حقيقة أنك إنسان، وأنك كيان، وأنك هو أنت.

ومهما كنت تدعي بحماس بأن هدف رغبتك الباطنية هو نمط حياة أسمى، فإن الاعتراض على الهوية هو الرغبة في عدم الوجود. والرغبة في ألا تكون شيئًا هي الرغبة في ألا تكون موجودًا.

لقد أقدم معلّموك، أهل الباطن من كلتا المدرستين، على عكس مسار العلاقة السببية في وعيهم، ثم سعوا إلى عكسها في الوجود. فهم يتخذون عواطفهم مسببًا، وعقولهم نتيجة غير مفتعلة. ويجعلون عواطفهم أداتهم المستخدمة في إدراك الواقع. ويعدون رغباتهم أساس لا يمكن تقنينه، وحقيقة تحل محل كل الحقائق. لكن المرء الصادق لا تواتيه الرغبة إلا بعد أن يحدد موضوع رغبته. وفي حين أنه يقول «هذا هو، لذلك أريده»، يقولون هم «أريد ذلك، لذلك هذا هو».

ما يريدون فعله هو الاحتيال على بديهية الوجود والوعي، وأن يكون وعيهم أداة ليس لإدراك الوجود بل لخلقه، وأن يكون الوجود ليس موضوع وعيهم بل تابع له. يريدون أن يكونوا ذلك الإله الذي خلقوه على طريقتهم وحسب رغباتهم، الذي يخلق الكون من فراغ من خلال نزوة تعسفية. لكن لا يستطيع المرء أن يحتال على الواقع. وما حققوه كان يخالف رغباتهم. فهم يريدون سلطة مطلقة على الوجود، لكن بدلًا من ذلك يفقدون السيطرة على وعيهم. وبرفضهم المعرفة فهم يحكمون على أنفسهم بالذعر

من مجهول أبدّي.

إن تلك الرغبات اللاعقلانية التي تجذبك إلى اتباع مذهبهم، وتلك المشاعر التي تتخذها معبودًا مقدسًا وعلى مذبحها تضحي بالأرض، وذلك الإحساس المظلم والمشوش بداخلك والذي تأخذه كنداء من الرب أو غددك، ليس أكثر من صوت احتضار عقلك. والعاطفة التي تتعارض مع عقلك، العاطفة التي يتعذر عليك تفسيرها أو التحكم فيها، ما هي إلا جيفة هذا التفكير البال والمتهالك الذي منعت عقلك من إعادة النظر فيه.

كلما ارتكبت الشر المتمثل في رفض التفكير والتبصر، واستثناء رغبة واحدة صغيرة لك من مطلق الواقع، وكلما اخترت أن تقول: دعوني أُخرج من الحكم العقليّ إيماني الكبير بوجود الله وخطاياي الصغيرة كسرقتي للكعك، ودعوني أمتلك نزوة غير عقلانية واحدة وسأكون شخص عقلانيًا بشأن كل شيء آخر، ما كان هذا إلا تقويضًا لوعيك وإفسادًا لعقلك. ومن ثم يصبح عقلك مثل مُحكّم مقيد يتلقى أوامره من عالم سفلي سري، ويعمل حكمه على تشويه الأدلة بحيث تتناسب مع مطلق لا يجرؤ على لمسه، والنتيجة هي واقع مبتور، وواقع مشروخ حيثما تطفو الأجزاء التي اخترت رؤيتها بين شروخ تلك التي لم تختر رؤيتها، والتي يبقيها متماسكة معًا سائل التحنيط للعقل والذي يكون عبارة عن عاطفة استثنيتها من الفكّر.

الترابط الذي تسعون جاهدين لإغراقه هو الترابط السببي.

والعدو الذي تسعون إلى هزيمته هو قانون السببية الذي يغلق أمامكم باب المعجزات. قانون السببية هو قانون الهوية الذي يُطبق على الفعل. إن جميع الأفعال من يسببها هم كيانات. وطبيعة الفعل تنشأ وتُحدد بفعل طبيعة الكيانات التي قامت به؛ فلا يمكن لشيء أن يتعارض مع طبيعته. الفعل الذي لا يسببه كيان ما يكون ناجمًا عن عَدَم، وهو ما يعني أن حالة عَدَم تتحكم في شيء ما، ومعدوم يتحكم بكيان قائم، واللاوجود يتحكم بالوجود، وهو العالم الذي يجسد رغبة معلميك. إن سبب قيام مذاهبهم التي تتلخّصُ في الأفعال غير المُبررة، وسبب تمردهم ضد العقل، وهدف أخلاقياتهم وأنظمتهم السياسية والاقتصادية، والمثل الأعلى الذي يسعون من أجله: هو فرض حُكم العَدَم.

قانون الهوية لا يسمح لك بالاحتفاظ بكعكتك وتناولها في ذات الوقت، إما هذه الحالة أو تلك. وقانون السببية لا يسمح لك بتناول كعكتك قبل الحصول عليها. لكن إن طمست كلا القانونين في عقلك، وإن خدعت نفسك والآخرين بأنك لا ترى هذا، حينها يمكنك محاولة أن تنادي بحقك في تناول كعكتك اليوم وكعكتي غدًا، ويمكنك أن تقول بأن طريقة الحصول على كعكة هي أن تتناولها أولًا قبل أن تخبزها، وأن وسيلة إنتاج الأشياء هي أن تبدأ باستهلاكها، وأن جميع من يعيشون بالتمني لديهم حق متساوي في كل الأشياء، بما أنه لا يوجد شيء ناتج عن أي شيء. والنتيجة الطبيعية المترتبة على انعدام السبب في المادة هي انعدام الاستحقاق

في الروح.

عندما تتمرد ضد قانون السببية، فإن دافعك يتلخص في رغبة الاحتيال، وليس من أجل الهروب من هذا القانون، وإنما الأسوأ، وهو عكس اتجاهه. فأنت تريد الحب غير المُستحق، كما لو أن الحب (النتيجة) يمكن أن يمنحك قيمة شخصية (المسبب)، وتريد الإعجاب غير المُستحق، كما لو أن الإعجاب (النتيجة) يمكن أن يمنحك الفضيلة (المسبب)، وتريد الثروة غير المُكتسبة، كما لو كانت الثروة (النتيجة) يمكن أن تمنحك القدرة (المسبب)، وتناشد الرحمة، الرحمة وليس العدالة، كما لو أن المغفرة غير المستحقة قد تؤدي إلى محو «سبب» مناشدتك لها. وحتى تنغمس في أكاذيبك الصغيرة القبيحة، تذهب وراء دعم مذاهب معلميك بينما يركضون بهمجية معلنين أن الإنفاق (النتيجة) يخلق الثروات (المسبب)، وأن الآلات (النتيجة) تخلق الذكاء (المسبب)، وأن رغباتك الجنسية (النتيجة) تخلق قيمك الفلسفية (المسبب).

من يدفع ثمن هذا اللهو المعربد؟ من الذي يسبب ما يدّعون أنه يفتقر إلى المسبب؟ من هم الضحايا المحكوم عليهم بالبقاء مجهولين وأن يموتوا في صمت، خشية أن ينّغص وجعهم تظاهرك بأنهم غير موجودين؟ نحن، نحن أصحاب العقل.

نحن المسببين لكل القيم التي تبتغونها وتطمعون فيها، نحن الذين نقوم بعملية التفكير، والتي هي عملية تحديد الهوية واكتشاف العلاقات السببية. نحن من علمناكم أن تكتسبوا المعرفة

وتتحدثوا وتنتجوا وترغبوا وتحبوا. وأنتم يا من تخليتم عن العقل فلولا أننا نحافظ عليه وإلا لما كنتم قادرين على تلبية رغباتكم أو حتى تمييزها. ولما كنتم قادرين على الرغبة في الملابس التي لم تُصنع، والمركبات التي لم تُخترع، والمال الذي لم يُستحدث، بصفته مقابلًا للسلع غير الموجودة، والإعجاب الذي لا يُكنُّ تجاه الأشخاص الذين لم يحققوا أي شيء، والحب الذي ينتمي ويتعلق فقط بأولئك الذين يحتفظون بقدرتهم على التفكير والاختيار وامتلاك القيم.

أنتم، يا من تثبون مثل حيوانات همجية خارج غابة مشاعركم نحو الجادة الخامسة في مدينة نيويورك وتقولون إنكم تريدون الاحتفاظ بالأضواء الكهربائية ولكنكم تريدون تدمير المولدات الكهربائية، إنها ثروتنا التي تستخدمونها لتدميرنا، وقيمنا التي تستخدمونها لإدانتنا ولعننا، ولغتنا التي تستخدمونها لإنكار العقل.

وتمامًا كما اخترع أصحابكم من ذوي النزعة الباطنية في الروح جنتهم في صورة أرضنا، متجاهلين وجودنا، مقدّمين وعودًا بمكافآت خلقتها معجزة روحانية غير متصلة بالمادة، فكذلك أصحابكم من ذوي النزعة الباطنية الحديثة في الجسد يتجاهلون وجودنا ويعدونكم بجنة حيثما تشكل المادة نفسها وفق إرادتها غير المُبررة في جميع أشكال المكافآت التي يتمناها كل شيء فيك ما عدا عقلك.

لقرون من الزمن، كان الباطنيون في الروح يعيشون من خلال

ممارسة الابتزاز مقابل عدم التعدي والحماية من أعمالهم الإجرامية، من خلال جعل الحياة على الأرض لا تطاق وثم إلزامك بدفع ثمن مواساتك والتفريج عنك، ومن خلال تحريم كل الفضائل التي تجعل العيش ممكنًا وثم الركوب على أكتاف ذنبك، ومن خلال المناداة بأن الإنتاج والسعادة من الخطايا ثم سلبها عن طريق التهديد من المذنبين بارتكابها. نحن، أصحاب العقل، كنا الضحايا المجهولين لمذهبهم، نحن الذين كنا على استعداد لانتهاك مدونتهم الأخلاقية وتحمل اللعن على ارتكاب خطيئة التفكير، نحن الذين فكرنا وعملنا بينما كانوا هم يتمنون ويصلون، نحن الذين كنا منبوذين أخلاقيًا، نحن الذين كنا نروج للعيش عندما كان العيش يعتبر جريمة، في حين كانوا ينعمون بالمجد الأخلاقي لفضيلة تجاوز الجشع المادي وفضيلة توزيع السلع المادية المُنتجة من الفراغ من باب الخير الإيثاري.

والآن نحن مقيدين ومأمورين بأن ننتج بأمر همجيين لا يمنحوننا حتى تحديدًا لهوية المذنبين، همجيين يعلنون أننا غير موجودين، وثم يهددون بحرماننا من الحياة التي لا نمتلكها إن فشلنا في تزويدهم بالسلع التي لا ننتجها. والآن يتوقعون منّا أن نستمر في تشغيل خطوط السكك الحديدية ومعرفة وقت وصول القطار بعد عبور القارة، ويتوقعون منّا أن نواصل تشغيل مصانع الصلب ومعرفة التركيب الجزيئي لكل قطرة من المعادن في كابلات جسوركم وفي أجسام الطائرات التي تنقلكم جوًّا، بينما يتقاتل

الباطنيون الفظيعين منكم على جثمان عالمنا، وهم يهمهمون بأصوات غامضة بأنه لا توجد مبادئ ولا مطلق ولا معرفة ولا عقل.

وما هو أدنى من الهمجية التي تجعلهم يعتقدون أن الكلمات السحرية التي ينطقون بها تتمتع بالقدرة على تغيير الواقع، هو اعتقادهم بأنه يمكن تغيير الواقع من خلال قوة الكلمات التي لا ينطقون بها، وأن أداتهم السحرية هي «الطمس»، التظاهر بأنه لا شيء قد يأتي إلى الوجود بعد إلقاء تعويذتهم المتمثلة في رفض تمييزه وتحديد هويته.

وكما أنهم يتغذون على الثروة المسروقة في الجسد، فهم يتغذون أيضًا على المفاهيم المسروقة في العقل، ويعلنون أن الصدق يقوم على رفض معرفة بأن هذا المرء يسرق. وكما أنهم يستخدمون النتائج مع إنكار الأسباب، فهم يستخدمون مفاهيمنا مع إنكار وجود هذه المفاهيم التي يستخدمونها وجذورها. وكما أنهم يسعون إلى السيطرة على المصانع وليس بناءها، فهم يسعون إلى السيطرة على الفكر الإنساني وليس ممارسة التفكير.

وكما أنهم يزعمون بأن المطلب الوحيد لتشغيل مصنع هو القدرة على إدارة أذرع الآلات، ويطمسون سؤال من أنشأ المصنع، فهم كذلك يزعمون بأنه لا توجد كيانات ولا يوجد شيء سوى الحركة، ويطمسون حقيقة أن الحركة تفترض مسبقًا وجود الشيء الذي يتحرك، وأنه بدون مفهوم الكيان يستحال وجود مفهوم مثل

«الحركة». وكما أنهم يزعمون حقهم في استهلاك ما لم يكتسبوه، وطمس سؤال من الذي أنتجه، فكذلك يزعمون بأنه لا يوجد قانون للهوية، وأنه لا يوجد شيء سوى التغيير، ويطمسون حقيقة أن فعل التغيير يفترض مسبقًا معرفة طبيعة التغيير، من ماذا وإلى ماذا، وأنه يستحال وجود مفهوم مثل «التغيير» في غياب قانون الهوية. وكما أنهم يسرقون صناعيًا وينكرون قيمته، فإنهم كذلك يسعون لتولي السلطة على كل الوجود مع إنكار وجوده.

يثرثرون قائلين «نحن نعلم أننا لا نعرف شيئًا» طامسين حقيقة أنهم بقولهم هذا يتذرعون بمفهوم «المعرفة». ويثرثرون قائلين «لا يوجد ما هو مطلق» طامسين حقيقة أنهم ينطقون بشيء «مطلق». ويثرثرون قائلين «لا يمكنك إثبات أنك موجود أو على وعي» طامسين حقيقة أن «الإثبات» يفترض مسبقًا وجودًا ووعيًا وسلسلة معقدة من المعرفة: وهو وجود شيء يمكن معرفته، ووجود وعي قادر على معرفته، ووجود معرفة تم اكتسابها للتمييز بين مفاهيم مثل المُثبت وغير المُثبت.

عندما يقول همجي لم يتعلم كيفية الكلام إنّه يجب إثبات الوجود، فإنه يطلب منك إثباته عن طريق العَدَم. وعندما يقول إنه يجب إثبات وعيك، فإنه يطلب منك إثباته عن طريق اللاوعي (الجَهَالة)، ويطلب منك أن تخطو إلى فراغ خارج الوجود والوعي لإعطائه برهانًا على كليهما، ويطلب منك ألا تكتسب أي معرفة بشأن أي شيء.

حين يقول إن المسلّمات هي مسألة اختيار تعسفي وأنه يختار عدم قبول المسلّمة التي تنصّ على وجوده، فإنه بذلك يطمس حقيقة أنه قد قبلها من خلال نطق تلك الجملة، وأن الوسيلة الوحيدة لرفضها هي إغلاق فمه، وعدم تقديم أي نظريات والموت في صمت.

المسلّمة هي بيان يحدد قاعدة المعرفة وأي بيان آخر يتعلق بتلك المعرفة، وهو بيان وارد بالضرورة في جميع المسلّمات الأخرى، سواء اختار أي متحدث معين تحديده أم لا. المسلّمة هي مقترح يتغلب على معارضيه من خلال حقيقة أنه يتعين عليهم قبوله واستخدامه في أي عملية محاولة لإنكاره. دع الإنسان البدائي الذي يختار ألا يقبل بمسلّمة الهوية أن يحاول أن يقدم نظريته دون استخدام مفهوم الهوية أو أي مفهوم مشتق منه، ودع الشبيه بالإنسان الذي يختار ألا يقبل بوجود الأسماء أن يحاول ابتكار لغة بدون أسماء أو صفات أو أفعال، ودع «الحالم» الذي يختار عدم القبول بصلاحية الإدراك الحسي أن يحاول إثبات ذلك دون استخدام المعلومات التي حصل عليها عن طريق الإدراك الحسي، ودع الهمجي الذي اختار عدم قبول صلاحية المنطق أن يحاول إثبات ذلك دون استخدام المنطق، ودع القزم الضئيل الذي يدعي أن ناطحة السحاب لا تحتاج إلى أي أساس بعد أن تصل إلى طابقها الخمسين أن ينتزع القاعدة من تحت بنايته وليس بنايتك، ودع آكل اللحم البشري الذي يزمجر أن حرية العقل كانت ضرورية لإنشاء حضارة صناعية ولكن ليس هناك

حاجة للحفاظ عليها، أن يُعطى رأس سهم وفرو دب، وليس كرسيًا جامعيًا في دراسة الأنظمة الاقتصادية.

هل تظن أنهم يعيدونك إلى العصور المظلمة؟ بل إنهم يعيدونك إلى عصور أشدّ ظلمةً مما عرفها تاريخك. هدفهم ليس العودة إلى عصر ما قبل العلم، ولكن عصر ما قبل اللغة. هدفهم هو حرمانك من المفهوم الذي يعتمد عليه عقل المرء وحياته وثقافته: وهو مفهوم الواقع الموضوعي. حدد مراحل تطور الوعي البشري وستدرك الغاية من مذهبهم.

الهمجي البدائي هو كائن لم يدرك أن (أ) هو (أ)، وأن الواقع حقيقي. لقد أوقف عقله عند مستوى عقلية الطفل، في المرحلة التي يكتسب فيها الوعي مدركاته الحسية الأولية ولم يتعلم بعد تمييز الأشياء الثابتة. الطفل هو من يبدو له العالم بصورة ضبابية، بدون أشياء تتحرك، وولادة عقله تحدث في اليوم الذي يدرك فيه أن العنصر الذي يستمر في التردد أمامه هو والدته وأن ما يتحرك خلفها هي ستارة، وأن الأثنان كيانان ثابتان ولا يمكن لأي منهما أن يتحول إلى الآخر، وأنهما ما هما عليه، وأنهما موجودان. واليوم الذي يدرك فيه أن المادة ليس لها إرادة هو اليوم الذي يدرك فيه أنه يتمتع بالإرادة، وهذا هو مولده كإنسان. واليوم الذي يدرك فيه أن الانعكاس الذي يراه في المرآة ليس وهمًا، بل حقيقة لكنه ليس هو نفسه، وأن السراب الذي يراه في الصحراء ليس وهمًا، وأن الهواء وأشعة الضوء هما ما يجعلانه حقيقة، ولكنه ليس جزءًا من مدينة بل

انعكاسًا له، واليوم الذي يدرك فيه أنه ليس متلقيًا سلبيًا للأحاسيس التي تراوده في أي لحظة معينة، وأن حواسه لا تزوده بالمعرفة التلقائية في صورة أجزاء منفصلة ومستقلة عن السياق، ولكن تزوده بمادة المعرفة وحسب، التي ينبغي لعقله أن يتعلم دمجها، واليوم الذي يدرك فيه أن حواسه لا تستطيع خداعه، وأن الأشياء المادية يُستحال أن تعمل بدون مسبب، وأن أعضاء الإدراك لديه (أعضائه الحسية) هي مادية وليس لها إرادة ولا قدرة على الاختراع أو التشويه، وأن الأدلة التي تقدمها له هي أدلة مطلقة، ولكن على عقله أن يتعلم فهمها، وعليه أن يكتشف طبيعة المادة الحسية المُدركة وأسبابها وسياقها الكامل، وأن على عقله أن يميز الأشياء التي يدركها، فهذا هو يوم مولده كمفكر وعالم.

ونحن الأشخاص الذين نصل إلى ذلك اليوم، وأنتم الأشخاص الذين يختارون الوصول إليه جزئيًا، والهمجي البدائي هو من لا يفعل ذلك أبدًا.

فبالنسبة إلى الهمجي البدائي، العالم هو مكان لحدوث المعجزات غير المفهومة، حيث كل شيء ممكن للجمادات ولا يوجد شيء ممكن له. ليس علّة عالمه أنه مجهول، ولكن اتسامه بنوع من الذعر غير العقلاني: وهو أنه لا سبيل لمعرفته ويستعصي على العقل فعل ذلك. فهو يعتقد أن الأجسام المادية تتمتع بإرادة غامضة، تحركها نزوات غير مُبررة ولا يمكن التنبؤ بها، بينما هو حجر شطرنج عاجز يقع تحت رحمة قوى خارجة عن إرادته. ويعتقد أن الطبيعة يحكمها

شياطين يملكون قوة كلية وأن الواقع في أيديهم مثل لعبة تشكيل مرنة، حيث يمكنهم تحويل وعاء وجبته إلى ثعبان وزوجته إلى خنفساء في أي لحظة، وحيثما الـ(أ) الذي لم يكتشفه على الإطلاق يمكن أن يكون أي شيء يختارون أنه ليس (أ)، وحيث المعرفة الوحيدة التي يمتلكها هي أنه يجب ألا يحاول أن يعرف. ليس لديه ما يركن إليه، وليس له إلا أن يتمنى ويقضي حياته في التمني وفي التوسل إلى شياطينه لمنحه أمنياته من خلال القوة التعسفية لإرادتهم، ويشكرهم عندما يفعلون ذلك، ويتحمل الملامة عندما لا يفعلون، ويقدم الأضاحي لهم تعبيرًا عن امتنانه وتعبيرًا عن ذنبه، ويزحف على بطنه خوفًا ويعبد الشمس والقمر والرياح والمطر وأي معتد يعلن نفسه متحدثًا باسمهم، شريطة أن تكون كلماته مبهمة وقناعه مخيفًا بما فيه الكفاية. فهو يتمنى ويتوسل ويزحف ويموت، تاركًا لك المسوخ الصنمية التي يعبدونها، والتي تكون نصف إنسان ونصف حيوان ونصف عنكبوت، وتجسيد لعالم مغاير للـ(أ)، بصفته سجلًا لنظرته للوجود.

حالته الفكرية هي الحالة الفكرية لمعلميك المعاصرين وعالمه هو العالم الذي يريدون أن يأتوا به إليك.

وإن كنتم تتساءلون بأي وسيلة يعتزمون فعل ذلك، فاذهبوا إلى أي صف جامعي وستسمعون أساتذتكم يعلّمون أبناءكم أنه يتعذر على الإنسان أن يكون متيقنًا من أي شيء، وأن ليس لوعيه أي مصداقية على الإطلاق، وأنه يتعذر على الإنسان تعلم أي حقائق أو

قوانين تتعلق بالوجود، وأنه عاجز عن معرفة أي واقعٍ موضوعي. إذن ما معيارهم للمعرفة أو الحقيقة؟ جوابهم هو أيًا كان ما يعتقده الآخرون. يعلّمون الناس أنه لا توجد معرفة وإنما الإيمان وحسب: حيث أن اعتقادك بوجودك هو فعل من أفعال الإيمان، وليس أكثر صوابًا من إيمان شخص آخر بحقه في قتلك، وأن مسلّمات العلم هي فعل إيمان وليس أكثر صوابًا من إيمان الباطنيّ في الإلهام والوحي، والاعتقاد بأن الضوء الكهربائي يمكن إنتاجه بواسطة مولد كهربائي هو فعل إيمان، وليس أكثر صوابًا من الاعتقاد الناجم عن قدم أرنب قُبّلت ووضعت تحت السلّم في أول يوم من الشهر القمري استجلابًا للحظ. فوفق لهم الحقيقة هي كل ما يريده الناس أن يكون، والناس هم الجميع ما عدا نفسك، والواقع هو كل ما يختار الناس أن يقولوا إنه واقع، ولا توجد حقائق موضوعية، ولا توجد سوى رغبات الناس التعسفية. والشخص الذي يبحث عن المعرفة في المختبر بالاعتماد على المنطق وأنابيب الاختبار هو أحمق قديم الطراز يؤمن بالخرافات، بينما العالِم الحقيقي هو الإنسان الذي يحوم في الأرجاء لإجراء استطلاعات الرأي العامة. ولولا الجشع الأناني لمصنعيّ العوارض الفولاذية الذين لديهم مصلحة ذاتية في إعاقة تقدم العلم، لعلمت أن مدينة نيويورك ليست موجودة، بسبب أن أي استطلاع يُجرى لجميع سكان العالم من شأنه أن يخبرك بأغلبية ساحقة أن معتقداتهم تحرّم وجودها.

مكتبة
t.me/soramnqraa

لقرونٍ من الزمن، أعلن الباطنيون في الروح أن الإيمان أسمى من العقل، ولكنهم لم يجرؤوا على إنكار وجود العقل. وأكمل ورثتهم ونتاجهم من الباطنيون في الجسد العمل نيابة عنهم وحققوا حلمهم: بإعلانهم أن كل شيء يقوم على الإيمان، وأطلقوا على ذلك تمردًا ضد الافتراض والاعتقاد. وفي تمردهم ضد المزاعم غير المُثبتة أعلنوا أنه لا يوجد ما يمكن إثباته، وفي تمردهم ضد المعرفة الخارقة للطبيعة أعلنوا أنه لا توجد معرفة ممكنة، وفي تمردهم ضد أعداء العلم أعلنوا أن العلم خرافة، وفي تمردهم ضد ما يُطلق عليه استعباد العقل أعلنوا أنه لا يوجد عقل.

إذا تخلّيت عن قدرتك على الإدراك، وإن قبلت تبديل معيارك من الذاتية إلى الجماعيّة، وانتظرت أن تخبرك البشرية بما يجب أن تفكّر، فستبصر تحولًا آخر يحدث أمام عينيك التي تخليت عنهما: ستجد أن معلميك أصبحوا حكام الجماعة، وإن رفضت الانصياع لهم معترضًا أنهم ليسوا البشرية جمعاء، فسوف يجيبونك: بأي وسيلة تعرف أننا لسنا كذلك؟ ألست أنت منّا يا أخي؟ من أين أتيت بهذا المصطلح القديم؟

إذا كان يساورك الشك في أن هذه هي غايتهم، لاحظ ما يسعى الباطنيون في الجسد إلى تحقيقه من ارتباط عاطفي (مفهوم الأخوة) لجعلك تنسى أن مفهومًا مثل «العقل» قد وُجد على الإطلاق. ولاحظ التقلبات والتغيرات التي تكتنف الحشو الكلامي المبهم، والكلمات ذات المعاني المطاطية، والمصطلحات التي تُركت تطفو

عائمة في المنتصف، والتي من خلالها يحاولون التهرب من الاعتراف بمفهوم «التفكير». فهم يقولون لك إنّ وعيك يتكون من «الاستجابات التلقائية» و«ردود الأفعال» و«التجارب» و«الرغبات الملحة» و«الدوافع»، ويرفضون تحديد الوسائل التي اكتسبوا من خلالها تلك المعرفة، وتحديد الفعل الذي يقومون به عندما يقولون ذلك أو الفعل الذي تقوم به عندما تستمع إليهم. يقولون إنّ للكلمات القدرة على «تكييفك»، ويرفضون تحديد السبب وراء قدرة الكلمات على تغيير [...] يمارسون فعل الطمس والحجب هنا، ويأبون قول كلمة «تفكير» أو أي كلمة لها صلة به. ويأبون تحديد العملية التي يفهم من خلالها الطالب كتابًا يقرأه، وتحديد النشاط الذي يمارسه العالم وهو يعمل على اختراع ما، والفعل الذي من خلاله يساعد الطبيب النفسي شخصًا مضطربًا على حل مشكلة ومعضلة، ويأبون قول كلمة «الصناعيّ» لأنه في منظورهم لا يوجد أصلًا مثل هذا الشخص. ويرون المصنع «موردًا طبيعيًّا» مثل الشجرة أو الصخرة أو بركة الطين.

يقولون لك إن مشكلة الإنتاج قد حُلت ولا تستحق الدراسة أو النظر فيها، أما المشكلة الوحيدة المتبقية التي يتعين على «ردودك التلقائية» حلها الآن هي مشكلة التوزيع. من حل مشكلة الإنتاج؟ جوابهم هو الإنسانية. ماذا كان الحل؟ السلع موجودة بالفعل هنا. كيف وصلوا إلى هنا؟ بطريقة ما. ما الذي سبب حدوث ذلك؟ لا سبب وراءه».

يعلنون بأن كل إنسان يولد يحق له العيش دون أن يعمل، ويحق له، على الرغم من قوانين الواقع التي تتعارض مع ذلك، الحصول على «الحدّ الأدنى من القوت» - طعامه وملبسه ومأواه- دون بذل أي جهد من جانبه، باعتباره حقًا مستحقًا له وحق مكتسب بالولادة. ومِمّن يستلمها؟ يحجبون الإجابة. كما يعلنون أن كل فرد يمتلك نصيبًا متساويًا من المنافع التقنية التي أُنشئت في العالم. لكن من الذي أنشأها؟ يحجبون الإجابة. والآن يحدد الجبناء المسعورين الذين يتظاهرون باتخاذ موقف المدافعين عن الصناعيين الغرض من علم الاقتصاد على أنه «التسوية بين الرغبات اللامحدودة للأفراد والسلع التي تورد بكميات محدودة». من الذي يورّدها لهم؟ يحجبون الإجابة. يعمد سفاحو الفكر الذين يدّعون بأنهم أساتذة إلى إزاحة مفكري الماضي بقولهم إن نظرياتهم الاجتماعية كانت مبنية على افتراض غير عملي مفاده أن الإنسان كائنًا عقلانيًا، ولكن بما أن البشر غير عقلانيين، كما يقولون، فهناك حاجة لإنشاء نظام يمكّنهم من الوجود في حالة غير عقلانية، مما يعني: في حالة مقاومة للواقع. حسنًا، من سيجعل هذا ممكنًا؟ يحجبون الإجابة. حيث يندفع أي شخص متوسط القدرة وطائش إلى وضع خطط للسيطرة على إنتاج البشرية، وأيًا كان من يتفق مع إحصاءاته أو يختلف معها، فلا أحد يشكك في حقه في فرض خططه باستعمال السلاح. فرضها على من؟ يحجبون الإجابة. ويحلقن نساء عشوائيات. ذوات تدخلُ في رحلات مجهولة حول العالم ثمّ تعودُ لإيصال رسالة مفادها أن شعوب العالم المتخلفة تطالب بمستوى

معيشي أعلى. تطلب مِمّن؟ يحجبون الإجابة.

وللحيلولة دون إجراء أي استقصاء واستيضاح في سبب الاختلاف بين قرى الغاب ومدينة نيويورك، فإنهم يصلون إلى قمة الفحش والقذارة بالقول إنّ التّقدّم الصناعي الذي يحرزه الإنسان- ناطحات السحاب وكوابل الجسور والمحركات الكهربائية وقطارات السكك الحديدية- تفسيره هو أن الإنسان حيوان يحمل «غريزة صنع الأدوات».

هل سبق وتساءلتم ما خطب العالم؟ ما تبصرونه الآن هو ذروة مذهب انعدام السبب وانعدام المُكتسب. كل عصاباتكم من الباطنيين، في الروح أو الجسد، تقاتل فيما بينها من أجل سلطة الحكم عليكم، مزمجرين أن الحب هو الحل لجميع مشاكل أرواحكم وأن السوط هو الحل لجميع مشاكل أجسادكم، لكم أنتم الذين وافقتم على التخلي عن العقل. ومنحوا الإنسان كرامة أدنى مما منحوها للأنعام والماشية، متجاهلين ما قد يقوله مرّوض حيوانات لهم، وهو أنه لا يمكن تدريب أي حيوان باستخدام الخوف، وأن الفيل المُعذب سيثور ويسحق جلّاده، لكنه لن يعمل من أجله أو يحمل عنه أعباءه، وهم يتوقعون من المرء أن يواصل إنتاج الأنابيب الإلكترونية والطائرات الأسرع من الصوت وأجهزة تحطيم الذرة والتلسكوبات الفضائية، مع مؤنته من اللحم كمكافأة له، وجلدةً على ظهره كمحفز له.

لا تخطئ في التعرّف على طباع ذوي النزعة الباطنية. فلطالما كان

تقويض وعيك هو هدفهم الوحيد على مر العصور، ولطالما كانت السلطة التي تحكمك بالقوة هي رغبتهم الوحيدة.

من الطقوس الوحشية «للحالمين»، التي حرّفت الواقع إلى حماقة بشعة، وأوهنت عقول ضحاياهم وأبقتهم في حالة رعب من العالم الغيبي وفي حالة ركود تمتد لقرون من الزمن، إلى المذاهب الغيبية التي سادت العصور الوسطى وأبقت البشر تحت الأسطح الطينية لأكواخهم، في خوف من أن الشيطان قد يسرق الحساء الذي عملوا ثماني عشرة ساعة لاستحصاله، وإلى الأستاذ الصغير القذر المراوغ الذي يؤكد لك أن عقلك ليس لديه المقدرة على التفكير، وأنك تفتقر إلى وسيلة للفهم والإدراك وعليك أن تنصاع بشكل أعمى للإرادة المطلقة التي تتمتع بها هذه القوة الخارقة: المجتمع، فإن جميعها نفس الأداء لنفس الغرض والوحيد: وهو تحويلك إلى عجينة يسهل تشكيلها بجعلك تتخلى عن شرعية وعيك.

لكن يتعذر فعل ذلك دون موافقتك. وإن سمحت بحدوثه فأنت تستحق ذلك.

عندما تستمع إلى خطاب الباطنيّ حول عجز العقل البشري وتبدأ في التشكيك في وعيك، وليس وعيه، وعندما تسمح لحالتك شبه العقلانية الهشة أن تتزعزع بسبب أي ادعاء يطلقه وتقرر أنه من الآمن أن تثق بمعرفته المتفوقة ويقينه الأعلى، فكلاكما يقع ضحية. هذا إن إقرارك هو مصدر اليقين الوحيد لديه. فالقوة الخارقة التي يخشاها الباطني، والروح المجهولة التي يقدسها،

والوعي الذي يعتبره كلي القدرة، هو روحك ووعيك.

الباطنيّ هو إنسان تخلّى عن عقله في أول مواجهة مع عقول الآخرين. وفي مكان ما بعيدًا عن طفولته، عندما اصطدم فهمه للواقع بمزاعم الآخرين، وبأوامرهم التعسفية ومطالبهم المتناقضة، استسلم لخوفه الشديد من الاستقلالية حتى أنه تخلى عن ملكَته العقلانية. وعند الوقوع في مفترق الطريق بين خياري «أنا أعرف» و«هم يقولون»، يُقدم على اختيار سلطة الآخرين، واختيار الإذعان بدلًا من التفهم والتبيّن، والإيمان بدلًا من التفكير. الإيمان بالأمور الخارقة يبدأ بصورة الإيمان بتفوّق الآخرين. واستسلام هذا المرء يتخذ شكل الشعور بأنه يجب أن يخفي افتقاره إلى الفهم، وأن الآخرين يمتلكون بعض المعرفة الغامضة التي حُرم منها هو وحده، وأن الواقع هو أيًا ما يريدون أن يكون عليه، من خلال وسيلة ما حُرم هو منها إلى الأبد.

ومنذ ذلك الحين، وخوفًا من التفكير، فإنه يُترك تحت رحمة مشاعر مجهولة. لتصبح مشاعره هي مرشده الوحيد، وما تبقى له من هويته الشخصية، والتي يتشبث بها بشراسة. ويكرس كل فعل تفكير يقوم به في محاولة أن يخفي عن نفسه حقيقة أن طبيعة مشاعره هي الخوف.

عندما يعلن أحد الباطنيين أنه يشعر بوجود قوة متفوقة على العقل، فإنه على حق، ولكن تلك القوة ليست روحًا كونية خارقة تتسم بالمعرفة التامة، وإنما وعي عابر سلّم له وعيه. فهو تدفعه

الرغبة الملحة في أن يحظى بالإعجاب والتملق والغش والخداع وإجبار وعي الآخرين الذي يتسم بالقدرة الكاملة. هذا يعني أنّ عبارة «هم» هي مفتاحه الوحيد إلى الواقع، فهو يشعر بأنه لا يستطيع أن يعيش إلا من خلال تسخير قوتهم الغامضة وانتزاع موافقتهم غير المحسوبة. و«هم» وسيلته الوحيدة للمعرفة، ومثل الرجل الأعمى الذي يعتمد على نظر كلبه الذي يقوده، فهو يرى أنه يجب أن يوثق لجامهم من أجل أن يعيش. وأصبحت السيطرة على وعي الآخرين شغفه الوحيد، والتعطش للسيطرة هو مثل نبتة ضارة لا تنمو إلا في المساحات الشاغرة لعقل هجره صاحبه.

كل دكتاتور هو باطنيّ، وكل باطنيّ هو دكتاتور محتمل. يلتمس الباطنيّ طاعة الأفراد وليس موافقتهم. يريد منهم أن يسلموا وعيهم لمزاعمه وأوامره ورغباته ونزواته، بما أنه هو أيضًا يسلّم وعيه لهم. ويريد أن يتعامل مع الأفراد عن طريق الإيمان والقوة الغاشمة، ولا يجد الرضا في موافقتهم في حال كان عليه أن يكتسبها عن طريق الحقائق والعقل. فالعقل هو العدو الذي يخشاه وفي نفس الوقت يعتبره هشًا وأقل استقرارًا، والعقل بالنسبة إليه وسيلة للخداع، ويرى أن الأفراد يمتلكون قدرة أكثر قوة من العقل، وليس إلا إيمانهم التعسفي أو طاعتهم القسرية قد يمنحه إحساسًا بالأمان، ودليلًا على أنه قد تمكن من السيطرة على هبة باطنيّة يفتقر إليها. رغبته هي أن يأمر وليس أن يقنع: بيد أن الإقناع يتطلب فعلًا من أفعال الاستقلالية ويستند إلى حتمية وجود واقع موضوعي.

وما يسعى إليه هو السلطة على الواقع وعلى الوسائل التي يستخدمها الأفراد لإدراكه، وهي عقولهم، وأن يقحم إرادته حائلًا بين الوجود والوعي، كما لو أنه بالموافقة على تزييف الواقع الذي يأمرهم بتزييفه، سيتمكن الأفراد من خلقه في الحقيقة.

وكما أن الباطني هو طفيلي في المادة، ينتزع الثروة التي يخلقها الآخرون، وكما أنه طفيلي في الروح، ينهب الأفكار التي يبتكرها الآخرون، فهو كذلك ينحدر من مستوى معتوه يخلق صورته المشوه والمزيفة من الواقع، إلى طفيلي في العتاهة والجنون يسعى إلى اكتساب التزييف والتشويهات التي أنشأها الآخرون.

ثمة حالة واحدة تحقق رغبة الباطنيّ في تحقيق اللانهائيّة واللاسببية واللاهوية: وهي الموت. فمهما كانت المسببات المبهمة التي تُنسب إليها مشاعره المتحفظة، فكل من يرفض الواقع هو يرفض الوجود، وتغدو المشاعر التي تحركه منذ ذلك الحين هي الكراهية لجميع القيم في حياة الإنسان، والتعطش لكل الشرور التي من شأنها أن تدمرها. فالباطني يستمتع ويتلذذ بمشهد المعاناة والفقر والخنوع والخوف، فهي تعطيه شعورًا بالانتصار، وبرهانًا على هزيمة الواقع العقلاني. ولكن لا وجود لواقع آخر.

فمهما كانت المصلحة التي يدّعي أنه يخدمها، سواء أكانت مصلحة الرب أم ذلك الوحش المتجرد من الجسد الذي يصفه بـ «الشعب»، ومهما كان المثل الأعلى الذي ينادي به من حيث بعض الأبعاد الغيبية، ففي الحقيقة وفي الواقع وعلى الأرض، مثله الأعلى

هو الموت، ورغبته هي القتل، ومصدر رضاه الوحيد هو التعذيب.

التدمير هو الغاية الوحيدة التي حققها مذهب الباطنيين على الإطلاق، والغاية الوحيدة التي تراهم يحققونها اليوم. وإن كان التدمير والخراب الذي أحدثته أفعالهم غير كافيًا لجعلهم يشككون في مذاهبهم، وإن كانوا يزعمون بأن دافعهم هو الحب ولم تردعهم بعد أكوام الجثث البشرية، فذلك لأن حقيقة أرواحهم أسوأ من العذر المشين الذي قدموه لك وسمحت به، وهو عذر أن الغاية تبرر الوسيلة وأن الأهوال التي يمارسونها هي وسيلة لتحقيق غايات أسمى. بينما الحقيقة الفعلية هي أن تلك الأهوال والفظائع هي غاياتهم.

أنت يا من تغلل الفساد فيك بما يكفي لتظن أنه بإمكانك أن تأقلم نفسك مع ديكتاتورية الباطنيّ وإرضائه من خلال الانصياع لأوامره، فإنه ما من سبيل لإرضائه؛ فعندما تطيعه سوف ينقض الأوامر التي يصدرها، لأنه لا يسعى إلى إذعان الآخرين إلا من أجل الإذعان ولا يسعى إلى التدمير إلا من أجل التدمير. وأنت يا من أصابك الجبن بما يكفي لتظن أنه بإمكانك أن تتصالح مع الباطنيّ من خلال الاستسلام لابتزازه، فلا سبيل للتخلص من ابتزازه، فالرشوة التي يبتغيها هي حياتك، بقدر استعدادك في التخلي عنها، والوحش الذي يسعى إلى رشوته هو الفراغ الخفي في عقله، الذي يحمله على القتل حتى يتجنب معرفة أن الموت الذي يرغب في تحقيقه هو موته هو.

أنت يا من تطغى البراءة على روحك بما يكفي لتظن بأن القوى التي تُركت اليوم طليقة في عالمكم لا يحرّكها إلا دافع الجشع في النهب المادي، لكن تدافع الباطنيون على الغنائم ليس سوى غطاء يخفي عن عقولهم طبيعة دوافعهم (كراهية الوجود). فمع أن الثروة هي وسيلة حياة الإنسان، لكنهم لا يطالبون بالثروة إلا محاكاةً للكائنات الحية، وليدّعوا أمام أنفسهم أنهم يرغبون في العيش. وانغماسهم الشرّه في الترف المنهوب ليس متعة، بل هو مهرب. فهم لا يريدون امتلاك ثروتك بل يريدونك أن تخسرها، ولا يريدون تحقيق النجاح بل يريدونك أن تفشل، ولا يريدون أن يعيشوا ولكن يريدونك أن تموت. ليس لديهم رغبة لأي شيء، فهم يكرهون الوجود ويستمرون في الهروب منه، وكل واحد منهم يحاول تجنّب معرفة حقيقة أن موضوع كراهيته هو نفسه.

أنت يا من لم تفهم طبيعة الشر قط، وأنت يا من تصفهم بأنهم «مُثل عليا ضلّت سبيلها»، ليغفر لكم ربكم الذي اخترعتموه! فهم جوهر الشر، وهم أولئك المعادين للحياة الذين يسعون لتحقيق حالة العَدَم الإيثارية في نفوسهم من خلال التهام العالم. إنها ليست ثروتك هي ما يسعون وراءها. وإنما يسعون لتطبيق مؤامرة ضد العقل، أي ضد الحياة والإنسان.

إنها مؤامرة بلا قائد أو اتجاه، ولصوص «اللحظة» السفلة والعشوائيين الذين يترّبحون من كارثة جماعة أو أخرى هم حثالة عابرين يركبون التيار الجارف النابع من السد المحطم لمجاري

القرون السابقة، الذي يأتي من حوض الكراهية للعقل والمنطق والقدرة والإنجاز والسعادة، والذي يحتفظ به كل معادٍ للإنسان ينادي بتفوق «القلب» على العقل.

إنها مؤامرة من كل أولئك الذين يسعون، ليس للعيش، وإنما الإفلات من العيش، أولئك الذين يسعون إلى هدم ركن واحد صغير من الواقع وينجذبون، من خلال الشعور، إلى كل الآخرين المنشغلين بهدم أركان أخرى. إنها مؤامرة يوحدها رابط التملص الذي يمارسه كل أولئك الذين يسعون وراء العَدَم كقيمة: فالمعلم الذي لا يمارس التفكير يسعد بإعاقة عقل طلابه، وصاحب الأعمال الذي يرغب في إنقاذ عمله من حالة الركود يسعد بتقييد قدرة منافسيه، والمضطرب نفسيًا من أجل الدفاع عن احتقاره لذاته يسعد بكسر نفوس من يتمتعون بتقدير الذات، والقاصر الذين يسعد بهزم الإنجاز، والعادي الذي يسعد بهدم العظمة، والمخصي الذي يسعد باستئصال كل متعة، وجميع صناع ذخيرتهم الفكرية، وكل أولئك الذين ينادون بأن التضحية بالفضائل من شأنه أن يحول الرذائل إلى فضائل، فإن الموت هو الأساس في جذور نظرياتهم، والموت هو غاية أفعالهم التي يمارسونها، وأنت آخر ضحاياهم.

نحن، من كنا بمثابة الحواجز الحية بينكم وبين طبيعة مذهبكم، لم نعد موجودين لإنقاذكم من النتائج التي خلّفتها معتقداتكم. ولم نعد راغبين في أن ندفع بأرواحنا ثمن الديون التي تكبدتموها أو

العجز الأخلاقي المتراكم بسبب جميع الأجيال التي سبقتكم. لقد كنتم تعيشون على وقت مقترض، وأنا من يطالب باستحصاله.

أنا الرجل الذي كان الغرض من ممارستكم لطمس الحقائق هو تجاهل وجوده. أنا الرجل الذي كنتم لا ترغبون في عيشه أو موته. أنتم لم تريدونني أن أعيش لأنكم كنت تخشون أن أعرف أنني تحملت المسؤولية التي أسقطتموها عن كواهلكم وأن حيواتكم تتوقف عليّ، ولم تريدونني أن أموت لأنكم عرفتم ذلك.

منذ اثني عشر عامًا، عندما كنت أعمل في عالمكم، كنت مخترعًا. كانت مهنتي من بين المهن التي آخر ما أتت في تاريخ البشرية، وستكون أول ما تختفي في طريق العودة إلى الظروف دون الإنسانية وشبه الحيوانية. المخترع هو الإنسان الذي يسأل لماذا؟ فيما يخص الكون، ولا يدع أي شيء يقف بين الإجابة وعقله.

ومثل الإنسان الذي اكتشف استخدام البخار أو الإنسان الذي اكتشف استخدام النفط، فقد اكتشفت مصدرًا للطاقة كان متاحًا منذ ولادة الكرة الأرضية، ولكن البشر لم يعرفوا كيفية استخدامه إلا كأداة لعبادة رب هادر والخوف منه وخلق أساطير عنه. لقد أكملت النموذج التجريبي لمحرك كان من الممكن أن يجني ثروة لي ولمن وظفوني، وهو محرك كان من شأنه أن يرفع كفاءة كل منشأة بشرية تستخدم الطاقة، وكان سيضيف ميزة الإنتاجية الأعلى على كل ساعة تنفقونها في كسب لقمة العيش.

ومن ثمّ، في إحدى الليالي في اجتماع أُقيم في المصنع، سمعت أنه

حُكم عليّ بالإعدام بتهمة ما حققته من إنجاز. سمعت ثلاثة طفيليين يدّعون أن عقلي وحياتي كانت ملكًا لهم، وأن حقي في الوجود كان مشروطًا ويعتمد على إشباع رغباتهم. قالوا إن الغاية من قدرتي على الإنتاج هو تلبية احتياجات أولئك الذين كانوا أقل قدرةً. وقالوا إنه ليس لي حق في العيش بسبب كفاءتي في فعل ذلك، وأن حقهم في العيش غير مشروط جراء عجزهم وعدم تمتعهم بالكفاءة.

ثم أدركت ما خطب العالم، ورأيت ما دمر البشر والأمم، وأين كان يجب أن تُخاض معركة الحياة. أدركت أن العدو كان مبدأ أخلاقي مقلوب ومعكوس، وإن تصديقي عليه كان مصدر قوته الوحيد. أدركت أن الشر كان عاجزًا، وأن الشر كان ما هو غير عقلاني وغامض وغير واقعي، وأن السلاح الوحيد لانتصاره هو استعداد الصالحين لخدمته. وكما كان الطفيليين من حولي يعلنون اعتمادهم اليائس على عقلي ويتوقعون مني أن أقبل طواعية عبودية ليس لديهم القدرة على فرضها، وكما كانوا يعتمدون على تضحيتي بنفسي لتزويدهم بوسائل تُعينهم على تحقيق خطتهم، فإن أصحاب العقل الصالحون والقادرون، في جميع أنحاء العالم وعبر تاريخ الإنسانية، وفي كل نسخة وشكل، بدءًا من ابتزاز الأقارب المتبطلين إلى فظائع البلدان ذات المذهب الجماعيّ، هم كذلك من يعملون على تدمير أنفسهم، وهم الذين ينقلون للشر دماء فضيلتهم ويتركون الشر ينقل إليهم سم الهلاك والدمار، مما يكسب الشر قوة

البقاء، ويكسب قيمهم الشلل المتمثل في الموت. وأدركت أنه سيأتي وقت، في سبيل القضاء على أي صاحب فضيلة، عندما تكون موافقته مطلوبة لكي يكتب للشر النصر، وأنه لن يُلحق به أي شكل من أشكال الأذى من الآخرين إن اختار أن يمتنع عن الموافقة. لقد رأيت أنه باستطاعتي وضع حد لانتهاكاتكم واعتداءاتكم من خلال نطق كلمة واحدة في ذهني. وقد قلتها ونطقت بها. وهي كلمة «لا».

لقد تركت ذاك المصنع، وتركت عالمكم. وأوليت نفسي مهمة تحذير ضحاياكم ومنحهم الوسيلة والسلاح الذي يمكّنهم من محاربتكم. كانت الوسيلة هي رفض ما تقومون به من تحريف في مفاهيم الثواب والعقاب. وكان السلاح هو تحقيق العدالة.

إذا كنتم تريدون أن تعرفوا ما الذي خسرتموه عندما قدّمتُ استقالتي وعندما هجر المضربون معي عالمكم، قفوا على بقعة ممتدة فارغة في برية لم يستكشفها البشر، واسألوا أنفسكم عن طريقة البقاء التي ستحققونها، وإلى متى ستبقون على قيد الحياة إن رفضتم التفكير مع عدم وجود أحد حولكم ليعلّمكم الحركات، أو كم ستكون عقولكم قادرة على الاكتشاف إن اخترتم التفكير. اسأل نفسك عن عدد الاستنتاجات المستقلة التي توصلت إليها خلال حياتك ومقدار الوقت الذي قضيته في أداء الأفعال التي تعلمتها من الآخرين. اسأل نفسك عما إن كنت قادرًا على اكتشاف كيفية حرث التربة وزراعة طعامك، وما إذا كنت ستتمكن من ابتكار

عجلة أو رافعة أو مستحث كهربائي أو مولد أو أنبوب كهربائي، ثم قرر ما إن كان أصحاب القدرة هم المستغلون الذين يعيشون على ثمار عملك ويسلبونك الثروة التي تنتجها، وما إن كنت تجرؤ على الاعتقاد بأنك تمتلك القدرة على استعبادهم. دعوا نسائكم يلقون نظرة على امرأة الغاب بوجهها الذابل المجهد وثدييها المتدليين، وهي جالسة تطحن وجبة العائلة في وعاء، ساعة بعد ساعة، وقرنًا بعد قرن، ثم دعهم يسألون أنفسهم ما إذا كانت «غريزة صنع الأدوات» ستزودهم بالثلاجات الكهربائية والغسالات والمكانس الكهربائية، وإن كان الأمر ليس كذلك، فهل ما يزالون يرغبون في تدمير أولئك الذين قدموا كل هذا، ولكن ليس من خلال «الغريزة».

القوا نظرة حولكم، أيها الهمجيون الذين تتمتمون بأن الأفكار ما أحدثتها إلا وسائل الإنتاج لدى الإنسان، وأن الآلة ليست نتاجًا للفكر البشري ولكنها قوة باطنية غامضة تنتج التفكير البشري. لم تكتشفوا أبدًا العصر الصناعيّ، وتمسكتم بأخلاقيات العصور البربرية عندما كان يُقدم للإنسان معيشة بائسة ناتجة عن الاستعباد الجسدي. لطالما كان كل باطنيّ يرغب بشدة في الحصول على العبيد لحمايته من الواقع المادي الذي يخشاه. لكن أنتم، أيها الرجعيون البشعون، تحدقون بشكل أعمى في ناطحات السحاب والمداخن من حولكم وتحلمون باستعباد موردي المواد والمعدات من العلماء والمخترعين والصناعيين. وعندما تقدمون على المطالبة بالحصول

على الملكية العامة لوسائل الإنتاج، فأنتم تطالبون بالحصول على الملكية العامة للعقل. لقد علّمت المضربين معي أن الإجابة الوحيدة التي تستحقونها هي: «حاول بنفسك واحصل على ما تريده».

أنت تدّعي عجزك عن تسخير قوى الجمادات، ومع ذلك تقترح تسخير عقول الرجال القادرين على تحقيق الإنجازات والمآثر التي لا يمكنك أن تضاهيها. وتدّعي أنك لا تستطيع العيش من دوننا، ومع ذلك تقترح أن تملي شروط بقائنا. وتدّعي أنك بحاجتنا، ومع ذلك تنغمس في سفاهة تأكيد حقكم في حكمنا بالقوة، وتتوقعون أننا، نحن من لا نخاف من تلك الطبيعة المادية التي تملئكم رعبًا، سنشعر بالجبن عند رؤية أي مغفل حدّثكم بمنحه فرصة بسط السلطة علينا.

أنتم تقترحون تأسيس نظام اجتماعي يقوم على المبادئ التالية: أنكم غير أكفاء لتولي زمام أمور حيواتكم لكنكم مؤهلون لتولي زمام حيوات الآخرين، وأنه لا يلائمكم العيش بحرية لكنكم تصلحون لأن تكونوا حكامًا مطلقين، وأنكم عاجزون عن كسب عيشكم باستخدام عقولكم، ولكنكم قادرون على أن تحكموا على من يستحقون أن يكونوا ساسة وتضعونهم في وظائف ذات سلطة كاملة على الفنون التي لم يسبق لكم أن رأيتموها قط، وعلى العلوم التي لم يسبق لكم أن درستموها قط، وعلى إنجازات ليس لديكم أي معرفة بها، وعلى الصناعات العملاقة حيث، وفقًا لتحديدكم

لمدى قدرتكم، لن تتمكنوا من شغل وظيفة مساعد شحّام.

ما تعبدونه جزء من حالة العَدَم، ورمز للعجز الإنساني- اعتمادكم على الصورة التي وُلد بها الإنسان- هو صورتكم للإنسان ومعياركم للقيمة، الذي تسعون لإعادة تشكيل أرواحكم في شكلها. وتصرخون دفاعًا عن أي فساد أنه «من شيم الإنسان الخِلقية»، بحيث تصلون إلى مرحلة من الاستحقار الذاتي تسعون فيها إلى جعل مفهوم «الإنسان» يعني الضعيف والجاهل والفاسد والكاذب والفاشل والجبان والمحتال، وتنفون عن الجنس البشري شيم البطولة والتفكير والإنتاج والاختراع والقوة والعزم والصلاح، كما لو أن «الشعور» سمة بشرية ولكن التفكير ليس كذلك، كما لو أن الفشل سمة بشرية ولكن النجاح ليس كذلك، كما لو أن الفساد سمة بشرية لكن الفضيلة ليست كذلك، وكما لو أن فرضية الموت تليق بوجود الإنسان، لكن فرضية العيش ليست كذلك.

وبهدف حرماننا من الكرامة، ومن ثم حرماننا من ثرواتنا، دائمًا ما نظرتم إلينا كعبيد لا يستحقون أي اعتراف أخلاقي. لقد أشدتم بكل مشروع يُدعى أنه غير هادف للربح، ولعنتم الرجال الذين جنوا الأرباح لجعل إقامة المشروع هذا ممكنًا. وتعدّون أي مشروع يخدم أولئك الذين لا يدفعون المال مشروعًا يصب في «المصلحة العامة»، وأنه ليس من الصالح العام تقديم أي خدمات لأولئك لمن يدفعون ثمنها. وأن «المنفعة العامة» هي أي شيء يُقدم كصدقة،

والانخراط في التجارة هو إيذاء للعامة. وأن «الرفاهية العامة» هي رفاهية أولئك الذين لا يكتسبونها، وأولئك الذين يفعلون ذلك لا يحق لهم الحصول عليها. «العامة» بالنسبة إليكم هم من فشلوا في تحقيق أي فضيلة أو قيمة، وكل من يحققها وكل من يوفر السلع التي تحتاجونها للبقاء، لا يُنظر إليه على أنه جزء من عامة الناس أو كجزء من الجنس البشري.

ما الحقيقة المطموسة التي سمحت لكم بأن تأملوا في أنه بإمكانكم أن تسلموا من هذا الوحل من التناقضات، بل وأن تعدوه مخططًا لمجتمع مثالي، حينما كانت «لا» النابعة عن ضحاياكم كافية لهدم نظامكم برمته؟ ما الذي يجعل أي متسول وقح يلّوح بأوجاعه في وجه من هو أفضل منه وأن يناشد المساعدة في لهجة تهديد؟ فأنتم تنوحون، كما يفعل هو، بأنكم تعوّلون على تعاطفنا، لكن أملكم السري هي المدونة الأخلاقية التي علمتكم أن تعتمدوا على شعورنا بالذنب. إذ تتوقعوا منا أن نشعر بالذنب إزاء فضائلنا في ظل وجود رذائلكم وجروحكم وإخفاقاتكم، أن نشعر بالذنب تجاه نجاحنا في العيش، والتنعم بالحياة التي تلعنونها، ومع ذلك تتوسلون إلينا لمساعدتكم على العيش.

هل أردتم أن تعرفوا من هو جون غالت؟ أنا أول رجل مقتدر رفض اعتبار مقدرته ذنبًا. أنا أول رجل لا يكّفر عن فضائله أو يسمح باستخدامها كأدوات لتدميره. أنا أول رجل لن يستشهد على أيدي من تمنوا لي الموت مقابل إبقائهم على قيد الحياة. أنا أول

رجل أخبرهم أنني لست بحاجتهم، وإلى أن يتعلموا التعامل معي كتاجر، مستبدلين القيمة بقيمة، فعليهم أن يعيشوا بدوني، لأنني سأعيش من غيرهم. وعندها سأجعلهم يعرفون من هم المحتاجين ومن هم المقتدرين، ومن الذي ستمهد شروطه وأحكامه الطريق للبقاء، في حال كان بقاء الإنسان على قيد الحياة هو المعيار.

لقد قمت عن قصد وتخطيط بما تم القيام به عبر التاريخ في شكل تقصير وخَرق صامت. لطالما كان هناك أصحاب فكّر أقدموا على الإضراب، في احتجاج ويأس، لكنهم كانوا لا يعون معنى ما يفعلونه. فالمرء الذي يقرر الانزواء من الحياة العامة من أجل أن يفكر ولكن ليس من أجل أن يشارك أفكاره، والمرء الذي يختار أن يقضي سنين حياته في عتمة وظيفة تافه، محتفظًا لنفسه شمعة عقله، وعدم منحها أي شكل أو تعبير أو واقع، رافضًا إحضارها إلى عالم يحتقره هو، والمرء الذي غلبه الاشمئزاز والنفور، والمرء الذي تنازل قبل أن يبدأ، والمرء الذي أقدم على فعل التخلي بدل الاستسلام والإذعان، والمرء الذي يعمل بجزء ضئيل من مقدرته على إثر توقه لمثلٍ أعلى لم يجده، جميعهم في حالة إضراب، إضراب ضد اللاعقلانية، وضد عالمكم وقيمكم. ولكن مع عدم معرفتهم بقيمتهم الأخلاقية، فقد تخلوا عن السعي وراء المعرفة، في ظلام سخطهم واستنكارهم اليائس، والذي هو فعل صحيح وقويم دون معرفة بالحق، وانفعالي دون معرفة بالرغبة. فيعمدون إلى تسلّيمك سلطة الواقع وحوافز عقولهم، ليُهلكوا في عبث مرير،

كمتمردين لم يعرفوا قط موضوع تمردهم، وكمحبيّن لم يكتشفوا قط حبهما لبعض.

كانت الأزمنة الشائنة التي تسمونها العصور المظلمة حقبة عقول في حالة إضراب، عندما كان أصحاب المقدرة يتوارون تحت الأرض ويعيشون مختبئين، ليدرسوا سرًا ويموتوا وتموت معهم أعمال عقولهم، في حين لم يبق سوى قليل من أشجع الشهداء الذين حافظوا على حياة الجنس البشري. كانت كل فترة حكمها الباطنيون حقبة يسودها الركود والعوز، عندما كان معظم الناس في إضراب ضد الوجود، ويعملون بثمن أبخس من فرصة بقائهم على قيد الحياة، ولا يتركون شيئًا سوى الفضلات لحكامهم لينهبوها، ويرفضون التفكير والمخاطرة والإنتاج، وعندما كان المحصل النهائي لأرباحهم والسلطة العليا على الحقيقة أو الضلال هي نزوة بعض المنحطين المُلمعين الذين مُنحوا تفوقًا على العقل بالحق الإلهي وبموجب حكم طائفة ما. كان طريق التاريخ البشري عبارة عن سلسلة من الفترات المظلمة التي سادت مسافات قاحلة تآكلت بفعل الإيمان والقوة الغاشمة، مع بضع ومضات من الضوء الناتجة عن الطاقة المُحررة لأصحاب العقل التي أدت إلى تنفيذ البدائع والعجائب التي انبهرت أنت بها وأعجبت بها، لكنها سرعان ما اندثرت مرة أخرى.

لكن لن يحصل اندثار هذه المرة. لقد انتهت لعبة أتباع النزعة الباطنية. وستهلكون في بؤرة زيفكم وبسببه. ونحن أصحاب

العصور الوسطى. وفي نفس الوقت، ومن المنطلق نفسه، ولنفس الطفل، تقول إن اللصوص الذين يحكمون الجمهوريات الشعبية سوف يتفوقون على هذا البلد في الإنتاج المادي، بما أنهم ممثلو العلم، ولكنه من الشر أن يهتم المرء بالثروة المادية وعليه أن يتخلى عن تحقيق الازدهار المادي وعيش حياة رغيدة. وتعلن أن المُثل العليا للصوص تتسم بالنبل، لكنهم لا يتوخونها بينما تفعل أنت، وأن غايتك الوحيدة من محاربة اللصوص هو تحقيق أهدافهم التي ليس باستطاعتهم تحقيقها ولكن باستطاعتك أنت، وأن طريقة محاربتهم تتلخص في أن تتغلب عليهم وتهب ثروة أحدهم للغير. ثم تأتي وتتساءل لمَ ينضم أطفالك إلى حثالة الشعب أو يصبحوا جانحين أنصاف مجانين، وتتساءل لمَ تستمر عمليات الاستحواذ التي يمارسها اللصوص في الزحف بالقرب من أبوابك، وتضعون الملامة على غباء الإنسان، قائلين إن الجموع البشرية منيعة ضد العقل.

أنت تطمس المشهد العلني والصريح لما يشنّه اللصوص والفوضويين من حرب ضد العقل، وحقيقة أن أهوالهم الأكثر دمويةً ما تُشن إلا لمعاقبة جرم التفكير. وتطمس حقيقة أن معظم الباطنيون في الجسد بدأوا بنزعة باطنية في الروح، وأنهم يستمرون في التحول من واحد لآخر، وأن الرجال الذين تدعوهم بالماديين والروحانيين هما نصفان ينتميان لنفس هذا الإنسان المُجزأ، يسعون دائمًا إلى الكمال، ولكنهم يسعون إليه بالتأرجح بين تدمير الجسد

وتدمير الروح، والعكس، وأنهم يستمرون في الهروب من جامعاتكم إلى حظائر العبيد في أوروبا وإلى الانهيار الصارخ الذي تشهده أوحال الباطنيّة في الهند، بحثًا عن أي ملجأ يحميهم من الواقع، وأي شكل من أشكال التملص من العقل.

تطمس تلك الحقيقة وتتشبث برياء «الإيمان» من أجل الإفلات من معرفة بأن اللصوص يضيقون الخناق عليك، وفعلهم هذا نابع عن مدونتك الأخلاقية، وأن اللصوص هم الممارسون الفعليون والثابتون للأخلاق التي تتبع نصفها وتتملص من نصفها، وأنهم يمارسونها بالطريقة الوحيدة التي يُمكن ممارستها، وهو تحويل الأرض إلى مذبح قرباني، والإفلات من معرفة بأن أخلاقك تمنعك من معارضتهم بالطريقة الوحيدة التي يمكن معارضتهم بها، وهو أن ترفض أن تصبح أضحيةً وأن تؤكّد بفخر على حقك في الوجود، وأنه من أجل أن تستطيع أن تحاربهم حتى النهاية، وبنزاهة واستقامة تامة، ما عليك أن ترفضه هي أخلاقياتكم.

أنت تطمس تلك الحقيقة، لأن تقديرك لذاتك مرتبط بتلك «الإيثارية» الباطنيّة التي لم تحوزها أو تمارسها من قبل، ولكنك قضيت سنوات عديدة في التظاهر بامتلاكها، هذا أن فكرة استنكارها يُشعرك بالرعب. لا توجد قيمة أعلى من تقدير الذات، لكنك أنفقتها مقابل ضمانات مزيفة، والآن أوقعتك أخلاقك في فخ يرغمك على حماية تقديرك لذاتك من خلال القتال من أجل عقيدة تقوم على تدمير الذات. لذا دعوني أقول إنّ الحال البائسة

منذ الطفولة، وأنت تخفي سرّ ذنبك بأنك لا تشعر برغبة في أن تتصف بالأخلاقية التي ينصُّ عليها مذهبكم، ولا ترغب في السعي إلى التضحية بالنفس، وأنك تخشى مدونتكم الأخلاقية وتكرهها، ولكنك لا تجرؤ على قول ذلك حتى لنفسك، وأنك تفتقر إلى تلك «الغرائز» الأخلاقية التي يدّعي الآخرون الشعور بها. وكلما قل شعورك بها، ناديت بصوت أعلى بحبك الإيثاري للآخرين وخدمتهم، خوفًا من أن تدعهم يكتشفون ذاتك، الذات التي خنتها، الذات التي احتفظت بها في الخفاء مثل هيكل عظمي في خزانة جسدك. وهم، الذين كانوا في يوم ما يمارسون الخداع والتضليل عليك، أصغوا وأعربوا عن موافقتهم الصاخبة، خشية أن تكتشف أنهم كانوا يخفون نفس السر غير المُعلن. إن حالة الوجود بينكم عبارة عن حالة هائلة من التظاهر والادعاء، وهو فعل تقومون به جميعًا تجاه بعضكم بعضًا، وكل واحد منكم يشعر بأنه الوحيد من يقبحه الذنب، وكل واحد منكم يتمثل مرجعه الأخلاقي في «الغيب» الذي لا يعرفه سوى الآخرون، وكل واحد منكم يزيف الواقع الذي يشعر بأن الآخرين يتوقعون منه أن يزيفه، ولا أحد منكم يتمتع بالشجاعة لكسر هذه الحلقة المفرغة.

مهما كان نوع المساومة المخزية التي أجريتموها مع مذهبكم غير العملي، وأيًا كان مستوى الانسجام البائس، الذي نصفه الأول تشاؤمي والآخر خرافيّ (لاعقلاني)، الذي تمكنتم من الاحتفاظ به الآن، فإنكم ما زلتم تحتفظون بالجذر، وهو الاعتقاد المميت بأن

الشأن الأخلاقي والشأن العملي هما طرفين نقيضين. منذ الطفولة، وأنت تهربون من الرعب الناشئ عن اتخاذ خيار لم تجرؤا قط على تحديده تمامًا: إذا كان الشيء العملي، وهو كل ما يجب أن تمارسه حتى تعيش، وكل ما ينفع وينجح ويحقق هدفك، وكل ما يزودك بالطعام والسعادة البهجة، وكل ما يحقق لك النفع، إذا كان من ضروب الشر، وإذا كان من ضروب الخير والأخلاقيّة في المقابل هو الشيء غير العملي، أي كل ما يفشل ويدمر ويحبط، وكل ما يُلحق بك الأذى والخسارة والألم، حينها يصبح الخيار أمامكم هو إما أن تكونوا أخلاقيين أو أن تعيشوا.

كانت النتيجة الوحيدة المترتبة على تطبيق ذلك المذهب المميت هو إزالة الأخلاق من الحياة. لقد نشأتم على الاعتقاد بأن القوانين الأخلاقية لا علاقة لها بمهمة العيش، ما عدا أنها تشكل عائقًا وتهديدًا، وأن وجود الإنسان عبارة عن غابة تخلو من المبادئ الأخلاقية، حيثما كل شيء مباح وكل شيء يجدي نفعًا. وتحت تلك الضبابية من التعاريف والمفاهيم المتغيرة التي تنزل على عقولكم المتجمدة، نسيتم أن الشرور الذي يلعنها مذهبكم هي الفضائل المطلوبة للعيش، وتوصلّتم إلى الاعتقاد بأن أفعال الشر الفعلية هي الوسيلة العملية للوجود. وبسبب أنكم متناسين حقيقة أن مبادئكم تقرّ بفعل «خير» غير عملي والمتمثل في التضحية بالنفس، فأنتم تعتقدون أن تقدير الذات غير عملي. ومتناسين حقيقة أن مبدأكم يحرّم فعل «شر» عملي والمتمثل في الإنتاج، فأنتم تعتقدون أن

السرقة عمليّة.

متأرجحين مثل غصن عاجز تعصف به رياح بريّة أخلاقية مجهولة، فأنتم غير قادرين على أن تكونوا أشرارًا بالكامل أو أن تعيشوا بالكامل. عندما تكون صادقًا ونزيهًا فأنت تشعر بالاستياء والامتعاض من المُستلب المستغل، وعندما تغش وتخدع تشعر بالخوف والخزي. وعندما تكون سعيدًا يضعّف الشعور بالذنب سعادتك. وعندما تعاني يتفاقم ألمك من الشعور بأن الألم هو حالتك الطبيعية. وترثي للرجال الذين ينالون إعجابك لأنك تعتقد أنه محكوم عليهم بالفشل، وتحسد الرجال الذين تكرههم وتعتقد أنهم سادة الوجود. وتشعر أنك ضعيف واهن عندما تواجه أحد الأوغاد السفلة؛ لأنك تؤمن أن الشر مآله أن ينتصر، بما أن الأخلاق هي القاصرة وغير العملية.

الأخلاق بالنسبة إليكم فزاعة وهمية مصنوعة من الواجبات الأخلاقية والسآمة والعقاب والألم، وهجين بين سلالة أول مدّرس في ماضيكم وجامع الضرائب في حاضركم، فزاعة تقف في حقل قاحل، ملوحة بعصا لطرد ملذاتكم، والملذات بالنسبة إليكم هي دماغ مشبعٌ بالخمور، وعاهرة ساذجة، والتخلّف المتمثل في فعل المراهنة بالأموال على سباق الحيوانات، بما أن المتعة بالنسبة لكم لا يمكن أن تكون أخلاقية.

إن تبيّنتم من معتقدكم الفعلي، فستجدون إدانة ثلاثية- ضد أنفسكم والحياة والفضيلة- في الاستنتاج المشين الذي توصلتم

إليه: وهو اعتقادكم بأن الأخلاق شرٌ لا بد منه.

هل تتساءل لمَ تعيش بلا كرامة، وتحب بلا لوعة، وتموت بلا مقاومة؟ هل تتساءل لمَ، أينما نظرت، لا تبصر شيئًا سوى أسئلة غير مُجاب عنها، ولمَ تمزق حياتك صراعات مستحيلة، ولمَ تقضيها ساكنًا بين حواجز غير عقلانية للتهرب من الخيارات المفتعلة والمصطنعة، مثل خيار الروح أم الجسد، العقل أم القلب، الأمان أم الحرية، الربح الخاص أم المنفعة العامة.

هل تتباكى بأنك لا تجد إجابات؟ بأي وسيلة كنت تأمل في العثور عليهم؟ فأنت ترفض أداة الإدراك لديك- عقلك- ثم تشكو من أن الكون لغز غامض ومبهم. وتلقي بمفتاحك وثم تندب بأن جميع الأبواب مغلقة ضدك. وتبدأ في السعي وراء الوجود غير العقلاني ثم تلعن الوجود لافتقاره إلى المعنى.

الحاجز الذي كنت تحاول لمدة ساعتين الجلوس فوقه ساكناً دون النزول إلى أحد الجهتين- أثناء ما تستمع إلى كلماتي وتسعى إلى الهروب منها- يشكّل ذريعة الجبان الواردة في الجملة التالية: «لكن لا يتعين علينا الذهاب إلى أقصى حد!» الحد الأقصى الذي دومًا ما ناضلت لتجنبه هو الاعتراف بأن الواقع حكم نهائي، وأن (أ) هو (أ)، وأن الحقيقة ثابتة وصحيحة. لقد علّمتك هذه المدونة الأخلاقية التي يستعصي على الإنسان العقلاني ممارستها والتي تستوجب النقص في الذات الإنسانية أو الموت، أن تبدد جميع الأفكار في بحر الضبابية، وتمنع وضع التعاريف والمفاهيم الثابتة،

وأن تجعل أي مفهوم، مفهومًا تقريبيًّا، وأن تجعل أي قاعدة سلوك لينة ومرنة، وأن تتملص من أي مبدأ، وأن تتنازل عن أي قيمة، وأن تقف في منتصف أي طريق تسلكه. وبابتزازهم لك بسبب قبولك مُطلق الأشياء الخارقة للطبيعة، أجبرك هذا على رفض مُطلق الطبيعة الثابت. وبجعل إصدار الأحكام الأخلاقية أمرًا مستحيلًا، جعلك هذا عاجزًا عن اتخاذ الحكم العقلاني. ويمنعك هذا القانون الأخلاقي من نطق الأحكام وإلقاء الحجرة الأولى، وقد منعك بالفعل من الاعتراف بهوية الحجارة ومعرفة متى أو ما إذا كانت تُلقى عليك.

المرء الذي يرفض إصدار الأحكام، الذي لا يبدي موافقته ولا اختلافه، والذي يصرّح بأنه لا يوجد ما هو مطلق، ويظن أنه يفلت من مسؤولية ذلك، هو الشخص المسؤول عن كل الدماء التي تُراق في العالم اليوم. إن الواقع مطلق، والوجود مطلق، وذرة من الغبار هي مطلقة، وكذلك حياة الإنسان. وسواء عشت أو مت هو أمر مطلق. وسواء كان لديك رغيف من الخبز أم لا فهو أمر مطلق. وسواء تناولت رغيفك أم رأيته يختفي في معدة سارق، فهو أمر مطلق.

ثمة جانبان لكل مسألة: جانب صحيح وجانب خاطئ، لكن الوسط هو الشر دومًا. بيد أن المرء المخطئ يظل يحتفظ ببعض الاحترام إزاء الحقيقة، وليس إلا عندما يقبل مسؤولية اختياره. لكن المرء الذي يتخذ الوسط هو محتالٌ يطمس الحقيقة من أجل

التظاهر بعدم وجود خيار أو قيم، وهو على استعداد للتنحي جانبًا في خضم غمار أي معركة، وعلى استعداد للاستفادة من دماء الأبرياء أو الزحف على بطنه إذعانًا للمذنبين، وهو الذي يطبق العدل بإدانة كلٍّ من السارق والمسروق بالذنب، والذي يحل النزاعات والصراعات بجعل المفكّر والأحمق يقابلون بعضهما في منتصف الطريق. وفي أي مساومة بين الطعام والسم، فإن الموت وحده ينتصر. وفي أي مساومة بين الخير والشر، فإن الشر وحده يربح. وفي عملية نقل الدم هذه التي تستنزف الخير لإطعام الشر، يكون هذا المساوم هو الأنبوب المطاطي الناقل.

أنتم، يا من يتسم نصفك الأول بالعقلانية ونصفك الآخر بالجبن، تلعب لعبة احتيالية مع الواقع، لكن ضحية احتيالك هو أنت. عندما يحدّ الأفراد فضائلهم إلى المستوى التقريبي، فإن الشر يكتسب قوة المطلق. وعندما يسحب الفاضلون من الناس ولاءهم لغاية ما، سيلتقطها الأوغاد الوضيعين وستحصل على مشهد مشين لأخيار يمارسون الغدر والمساومة والتذلل، وأشرار يمارسون التعنت والتفوق الأخلاقي. وكما استسلمتم للباطنيين في الجسد عندما أخبروكم أن الجهل هو ادّعاء المعرفة، فأنتم تستسلمون الآن لهم وهم ينادون بأن الفجور والفسوق يكمن في النطق بالأحكام الأخلاقية. وعندما ينادون بأنه من الأنانية أن تكون متيقنًا أنك على حق، تسارعون إلى طمأنتهم بأنكم لستم متيقنون من أي شيء. وعندما ينادون بأنه من غير الأخلاقي التمسك بقناعاتكم،

تؤكدون لهم أنه ليس لديكم أي قناعات على الإطلاق. وعندما يزمجر حثالة الجمهوريات الأوروبية الشعبية بأنكم مذنبون بتهمة التعصب، لأنكم لا تعاملون رغبتكم في العيش ورغبتهم في قتلكم على أنه اختلاف في الرأي، تجفلون خوفًا وتتعجلون في طمأنتهم بأنكم لستم متعصبون مع أي نوع من أنواع الذعر والترهيب. وعندما يصرخ عليكم بعض المتشردين حافيي الأقدام الغارقين في مستنقعات آسيا: كيف تجرؤا على أن تكونوا أثرياء، تعتذروا منهم وتسألونهم التحلي بالصبر، وتتعهدوا لهم بأنكم ستتخلون عن ثرواتكم وستمنحونهم إياها.

لقد وصلتم إلى الطريق المسدود المجهول للخيانة التي ارتكبتموها عندما وافقتم على أنه ليس لكم الحق في الوجود. ذات يوم كنتم تعتقدون أن هذا «مجرد تسوية»: سلّمتم بأنه كان من الشر أن تعيشوا لأنفسكم ولكن من الأخلاقي أن تعيشوا من أجل أطفالكم. ثم سلّمتم بأنه كان من الأنانية أن تعيشوا من أجل أطفالكم ولكن من الأخلاقي أن تعيشوا من أجل مجتمعكم. ثم سلّمتم بأنه كان من الأنانية أن تعيشوا من أجل مجتمعكم ولكن من الأخلاقي أن تعيشوا من أجل بلدكم. والآن، أنتم تتركون أعظم بلد (أميركا) عرضةً للالتهام والتبديد على يديّ أي حثالة من أي ركن من أركان الأرض، بينما تسلّمون بأنه من الأنانية أن تعيشوا من أجل بلدكم وأن واجبكم الأخلاقي هو أن تعيشوا من أجل العالم برمته. والإنسان الذي لا يملك حق في العيش، لا يملك حق

في القيم ولن يحتفظ بها.

في نهاية طريقكم من الخيانات المتعاقبة، وأنتم مجردون من السلاح واليقين والشرف، ترتكبون فعل الخيانة الأخير وتوقعون على عريضة الإفلاس الفكري: فبينما يعلن الباطنيون في الجسد في الجمهوريات الشعبية بأنهم أبطال العقل والعلم، أنتم توافقون على ذلك وتتعجلون في القول بأن الإيمان هو مبدأكم الأساسي، وأن العقل يقع في جانب مدمريكم، لكن جانبكم هو جانب الإيمان. وفي إجابة عن الأسئلة التي تطرحها عقول أطفالكم المصابة بالارتباك والتشويه لكنها تقاوم بفضل ما تبقى فيها من صدق عقلاني، تقولون إنه لا يمكنكم تقديم حجة عقلانية تدعم الأفكار التي خلقت هذا البلد، وأنه لا يوجد مبرر عقلاني للحرية والملكية والعدالة والحقوق، وأنها تستند إلى بصيرة باطنية ولا يمكن قبولها إلا بالإيمان، وأنه من حيث العقل والمنطق الخصم على حق، لكن الإيمان متفوق على العقل. فتخبر أطفالك أنه من العقلانية أن تنهب وتعذّب وتقتل وتستعبد وتنتزع ممتلكات الآخرين، لكن عليهم مقاومة إغراءات المنطق والالتزام بالانضباط في البقاء غير عقلانيين، وأن ناطحات السحاب والمصانع وأجهزة الراديو والطائرات كانت نتاج الإيمان والحدس الباطنيّ، في حين أن المجاعات ومعسكرات الاعتقال وفرق الإعدام هي نتاج طريقة معقولة للعيش، وأن الثورة الصناعية كانت ثورة أصحاب الإيمان ضد تلك الحقبة التي ساد فيها العقل والمنطق والتي تعرف باسم

العقل سيكتب لنا العيش.

لقد ناديت الضحايا الذين لم يهجرونكم من قبل. لقد منحتهم السلاح الذي كانوا يفتقرون إليه: وهو المعرفة بقيمتهم الأخلاقية. علّمتهم أن العالم ملكنا متى اخترنا المطالبة به والحصول عليه، بحكم وفضل حقيقة أن أخلاقياتنا هي أخلاقيات العيش. إنهم، هؤلاء الضحايا العظماء الذين أنتجوا كل روائع البشرية في فترة قصيرة، إنهم، هؤلاء الصناعيين وقاهري المادة، لم يكتشفوا طبيعة حقهم. لقد كانوا يعرفون أن حقهم هو السلطة. وعلّمتهم أن حقهم كان المجد.

أنتم يا من تجرؤون على اعتبارنا أدنى أخلاقيًا من أي باطنيّ يتذرع برؤى غيبية، أنتم يا من تتدافعون مثل النسور من أجل بنسات منهوبة، ومع ذلك تكرمون العرّاف فوق صانع الثروة، أنتم يا من تحتقرون صاحب الأعمال باعتباره حقير منحط، لكن تحترمون أي فنان منافق باعتباره مُمجد، فأصل معاييركم هو ذلك المستنقع الباطني الذي يأتي من المستنقعات البدائية التي تقدّس الموت، وتعلن أن صاحب الأعمال غير أخلاقي بسبب حقيقة أنه يبقيك على قيد الحياة. أنتم يا من تتدعون أنك ترغبون في السمو عن شواغل الجسد المبتذلة، وعن مشقة الكدح في تلبية الاحتياجات المادية، من هو الذي تستعبده الاحتياجات المادية؟ الهندوسي الذي يعمل من شروق الشمس إلى غروبها على محراث يدوي من أجل الحصول على وعاء أرز؟ أم الأميركي الذي يقود

جرارًا لحراثة الأرض؟ من هو قاهر الواقع المادي؟ المرء الذي ينام على سرير من المسامير أم الذي ينعم نفسه بالنوم على مرتبة مبطنة؟ ما الصرح الذي يذكرنا بانتصار الروح البشرية على المادة؟ الأكواخ المتآكلة بسبب الجراثيم على سواحل نهر الغانج أو ناطحات السحاب في نيويورك التي يمكن رؤيتها عبر المحيط الأطلسي؟

ما لم تتعلموا إجابات هذه الأسئلة، وتتعلموا أن تقفوا باهتمام توقيري أمام إنجازات عقل الإنسان، فلن تظلوا لفترة أطول على هذه الأرض التي نحبها ولن ندعكم تلعنونها. لن تمضوا في الأمر مع ما تبقى من أعماركم. لقد قصرّت عليكم المسار المعتاد للتاريخ وسمحت لكم باكتشاف طبيعة الثمن الذي كنتم تأملون في تحويل عبئه إلى كاهل الآخرين. إنها آخر قواكم الحية التي ستستنزفونها الآن لتزويد عبدة الموت هؤلاء بما لم يكتسبوه. لا تتظاهروا بأن واقعًا خبيثًا هو ما ألحق بكم الهزيمة، لقد هُزمتم بسبب تملصكم. ولا تتظاهروا بأنكم ستهلكون في سبيل مثل أعلى نبيل، وإنما ستهلكون في صورة علف يقضمه أعداء الإنسانية.

ولكن لأولئك الذين ما يزالون يحتفظون بما تبقى من كرامة، ورغبة في حب حياتهم، فإنني أعرض عليهم فرصة الاختيار. قرروا ما إذا كنتم ترغبون في الهلاك من أجل أخلاقيات لم تؤمنوا بها أو لم تمارسوها من قبل. وتورّعوا عن الوقوف على حافة تدمير الذات وتمعنوا في قيمكم وحيواتكم وتثبتوا منها. لقد عرفتم كيف تجروا تقييمًا وجردًا لثرواتكم. افعلوا الآن المثل مع عقولكم.

انقلبت عليكم: فتلك الحاجة إلى تقدير الذات، التي لا يمكنكم توضيح أو تحديد ماهيتها، تنتمي إلى أخلاقياتي، وليس أخلاقياتكم، إنها السمة الموضوعية لمدونتي، وحجتي داخل أرواحكم.

ومن خلال شعور لم يتعلم تمييزه هذا المرء، غير أنه أستمده من إدراكه الأول للوجود، ومن اكتشافه بأنه يتعين عليه اتخاذ الخيارات، سوف يدرك أن حاجته الماسة إلى تقدير الذات هي مسألة حياة أو موت. وبصفته كائنًا ذا وعي إرادي، فهو يعلم أن عليه معرفة قيمته من أجل الحفاظ على حياته. ويعلم أنه يجب أن يكون على صواب؛ ذلك أن ارتكابه الخطأ في الفعل يسبب الخطر على حياته، وارتكاب الخطأ في شخصه يجعله شريرًا، مما يعني أنه غير صالح للوجود.

كل فعل في حياة الإنسان لا بدّ أن يصدر عن إرادة، فمجرد كسب المرء لطعامه وتناوله يعني أن المرء الذي يحتفظ به يستحق أن يحتفظ به، وكل ملذة يسعى المرء إلى التمتع بها يعني أن هذا المرء الذي يسعى ورائها يستحق أن يجد المتعة. فالمرء ليس لديه اختيار بشأن حاجته إلى تقدير الذات، والخيار الوحيد الذي بإمكانه اتخاذه هو المعيار الذي يمكن من خلاله قياس ذلك. وهو يرتكب خطأه الفادح عندما يحوّل هذا المقياس الذي يحمي حياته إلى خدمة لتدميره، عندما يختار معيارًا يتعارض مع وجوده ويضع تقديره لذاته ضد الواقع.

إنّ كلّ شكل من أشكال الشك الذاتي غير المُبرر، وكل شعور مُضمر بالدونية وعدم الجدارة هو في الواقع خوف الإنسان المستتر من عدم قدرته على التعامل مع الوجود. وكلما تعاظم مقدار خوفه، ازدادت شدة تمسكه بالمذاهب الهالكة التي تضيق عليه فسحة العيش. لا يمكن لأي إنسان أن يبقى على قيد الحياة لحظة ما يعلن نفسه شر مطلق لا سبيل لصلاحه، إن فعل ذلك فإن لحظته التالية هي الجنون أو الانتحار. وللهروب من هذا- في حال اختار معيارًا غير عقلاني- فسوف يمارس التزييف والتملص وطمس الحقائق، وسيخدع نفسه بشأن الواقع والوجود والسعادة والعقل، وفي نهاية المطاف سوف يخدع نفسه بشأن تقدير الذات من خلال المحاولة جاهدًا على الحفاظ على وهم التمتع به بدلًا من المخاطرة باكتشاف افتقاره إليه. فالخوف من مواجهة مسألة ما ينبع من ظنك بأن الأسوأ هو الصحيح.

ليس الأمر أمر جريمة ارتكبتها فيما مضى وأصابت روحك بالذنب الدائم، وليس أمر إخفاقاتك أو أخطائك أو عيوبك، ولكن فعل الطمس الذي تحاول من خلاله التهرب منهم. وليس نوع من الخطيئة الأصلية أو علة مجهولة قبل الولادة، ولكن حقيقة تقصيرك الأساسي وتعليق عقلك ورفض ممارسة التفكير، ومعرفتك بذلك. وما تشعر به من الخوف والشعور بالذنب هما مشاعر مزمنة، وهما حقيقيان وأنت تستحقهما، لكنهما لا ينبعان من الأسباب السطحية التي تخترعها لإخفاء مسببها الحقيقي، أي ليس

من «أنانيّتك» أو ضعفك أو جهلك، بل من تهديد حقيقي وأساسي لوجودك، حيث أن شعورك بالخوف نابع عن تخلّيك عن سلاحك للعيش، وشعورك بالذنب نابع عن معرفتك بأنك فعلت ذلك بإرادتك.

الذات التي خنتها هي عقلك، وتقدير الذات يعتمد على قدرة المرء على التفكير. والأنا التي تبحث عنها، تلك «ذاتك» الأساسية التي لا يمكنك التعبير عنها أو تحديدها، هي ليست عواطفك أو أحلامك المبهمة، وإنما عقلك، ذلك القاضي في محكمتك العليا الذي طوقته بالاتهامات من أجل أن تنساق تحت رحمة أي محامٍ مراوغ ضالٍ تصفه بأنه «شعورك». ثم تظل تجرجر نفسك في ظلام ليلة طويلة خلقتها بنفسك، في بحث يائس عن شعاع ضوء مجهول، متأثرًا ومندفعًا برؤية متلاشية لفجر رأيت بزوغه وثم فقدته.

لاحظ التشبث في الأساطير البشرية بأسطورة الجنة التي كان آبن آدم يمتلكها ذات يوم، وسواء أكانت مدينة أطلنتس أو جنة عدن أو مملكة من الكمال، دائمًا ما نخلّفها نحن البشر ورائنا. إن جذر تلك الأسطورة موجود، ليس في ماضِ الجنس البشري، ولكن في ماضِ كل إنسان. فأنت ما يزال ينتابك إحساس- ليس راسخًا مثل ذكرى، ولكنه منتشر بداخلك مثل ألم الشوق اليائس- بأنه في مكان ما في السنوات الأولى لطفولتك، قبل أن تتعلم الخضوع وتتشرب الخوف الذي لا مبرر له وتشكك في قيمة عقلك، كنت قد شهدت حالة نيرة من الكينونة، وكنت قد شهدت استقلالية وعي عقلاني

يواجه كون مفتوحًا على مصراعيه. هذه هي الجنة التي فقدتها، والتي تسعى إليها، والتي هي لك لامتلاكها.

بعض منكم لن يعرف أبدًا من هو جون غالت. ولكن أولئك منكم الذين عرفوا لحظة واحدة من الحب للوجود والاعتزاز بكونه جدير بحبه، لحظة النظر إلى هذه الأرض وجعل نظراتك لها تصديقًا عليها، لقد عرف حالَ كونه إنسانًا. وأنا، أنا الرجل الوحيد الذي عرف أن هذه حالة مقدسة لا يجب أن تتعرض للخيانة. وأنا الرجل الذي عرف ما جعل قيام هذه الحالة ممكنًا ومارس باستمرار هذه الحالة من الإنسانية لأصبح إنسانًا بحق، وتمكنت من أكون في تلك اللحظة الواحدة: بُرهة حبّ الوجود.

هذا الخيار هو خيارك لاتخاذه. هذا الخيار – تفاني المرء في تحقيق أعلى إمكاناته- يتم من خلال قبول حقيقة أن أسمى عمل قمت به على الإطلاق هو فعل عقلك في أثناء خوضه عملية استيعاب أن اثنين زائد اثنين تساوي أربعة.

كائنًا من كنت- أنت الذي تختلي وحدك مع كلماتي في هذه اللحظة، ولا شيء آخر سوى صدقك ليعينك على فهم ما أقوله- ما يزال الخيار مفتوحًا لأن تصبح إنسانًا، ولكن ثمن ذلك هو أن تبدأ من الصفر، وأن تقف عاري الروح في وجه الواقع، لتعدل عن هذا الخطأ التاريخي المكلِّف، وأن تقول: أنا موجود، لذلك سأفكّر.

تقبل الحقيقة النهائية والقطعية بأن حياتك تعتمد على عقلك. واعترف بأن كامل نضالك، وشكوكك وتزييفك ومراوغاتك،

كانت سعيًا يائسًا للتهرب من مسؤولية الوعي الإرادي- وهو سعيك وراء المعرفة التلقائية والفعل الغريزي واليقين الحدسي - وبينما كنتم تصفونه توقٌ إلى بلوغ حالة ملائكية سامية، فإن ما كنت تسعون وراءه هو السمات الحيوانية الدنيّة. وتقبّل أن مهمة أن تصبح إنسانًا هو مثلك الأخلاقي الأعلى الذي يجب أن تسعى وراءه.

لا تقل إنّك تخشى الوثوق بعقلك لأنك لا تعرف سوى القليل. هل أنت أكثر أمانًا باستسلامك لأهل الباطن والتخلص من القليل الذي تعرفه؟ عش وتصرف ضمن حدود معرفتك واستمر في توسيعها إلى أقصى حد في حياتك. استرد عقلك المرهون لدى ذوي السلطة. وأقبل حقيقة أنك لست كلّي العلم وأن لعب دور المُغيّب لن يمنحك العلم المطلق، وأن عقلك غير معصوم من الخطأ والتخلي عنه لن يجعلك معصومًا، وأن الخطأ الذي ترتكبه بنفسك هو أَسلَم من عشر حقائق قبلتها عن طريق الإيمان، لأن الأول يترك لك مجالًا لتصحيحه، بينما الثاني يدمر قدرتك على تمييز الحق من الباطل. وبدلًا من أن تحلم في أن تصبح إنسانًا آليًا عارف بكل شيء، اقبل حقيقة أن أي معرفة يكتسبها الإنسان ما يكتسبها إلا بإرادته وجهده، وأن هذا هو امتيازه وتفوقه على الأرض، وهذه هي طبيعته وأخلاقه وعظمته.

تخلّص من هذا التصريح اللامحدود الممنوح للشر والذي يقوم على الادعاء بأن الإنسان ناقص. بأي معيار تلعنه إذن عندما تدعي

هذا؟ تقبل الحقيقة التي مفادها أنه في عالم الأخلاق لا شيء أقل من الكمال سيجدي نفعًا. لكن الكمال لا يُقاس بالأوامر والأحكام الباطنية التي تربطه بممارسة المستحيل، ولا مستواك الأخلاقي يُقاس بأمر ليس متاحًا لاختيارك. والإنسان لديه خيار أساسي واحد: ألا وهو التفكير أو عدم التفكير، وهذا هو مقياس فضيلته. لذا فإن ما يمثله الكمال الأخلاقي هو عقلانية لا تُنتهك، والاستخدام الكامل والدؤوب لعقلك وليس درجة ذكائك، وقبول العقل على أنه شيء مطلق وليس مدى معرفتك.

تعلّم كيفية التمييز بين الأخطاء المعرفية والانتهاكات الأخلاقية. إن الخطأ المعرفي ليس عيبًا أخلاقيًا، شريطة أن تكون مستعدًا لتصحيحه، ووحدهم أتباع النزعة الباطنية هم من يحكمون على البشر بمعيار المعرفة المطلقة التلقائية والمُستصعبة. لكن الانتهاك الأخلاقي هو الاختيار الواعي لفعل تعرف أنه شر، أو التهرّب المتّعمد من المعرفة وتعليق البصر والفكر. وذلك الذي تجهله ليس بتهمة أخلافية ضدك، ولكن ما ترفض معرفته هو تفسير لسوء وخزي يتمدد داخل روحك. ابدوا كل تسامح مع الأخطاء المعرفية، لكن لا تقبلوا ولا تغفروا لأي انتهاك أخلاقي. أحسنوا الظن فيمن يسعون إلى المعرفة، لكن عاملو تلك النماذج المُتطاولة من الفساد، هؤلاء الذين يضعون مطالب على عاتقكم كقتلة محتملين، أولئك الذين يعلنون أنهم لا يملكون أي سبب لأفعالهم ولا يسعون وراء ذلك، وإنهم «يشعرون» بفعلها ليس إلا، أو

أولئك الذين يرفضون حجة دامغة بقولهم بنبرة تتسم بالازدراء «بالمنطق ليس إلا»، والذي هو بعبارة أخرى «وفق الواقع ليس إلا». فالعالم الوحيد الذي يعارض الواقع هو عالم الموت ومنطلقه.

اقبل حقيقة أن تحقيق سعادتك هو الغاية الأخلاقية الوحيدة لحياتك، وأن السعادة- وليس الألم أو الانغماس الطائش في الشهوات- هي الدليل على سلامتك الأخلاقية، هذا أنها الدليل على ولائك لتحقيق قيمك ونتيجة ذلك. كان تحقيق السعادة هي المسؤولية التي كنت تخشاها، وتطلبت نوعًا من الانضباط العقلاني الذي لم تقدّر نفسك بما يكفي للقيام به، وكان القلق الذي يكتنف أيامك هو تذكير بتهربك من معرفة أنه لا يوجد بديل أخلاقي للسعادة، وأنه لا يوجد جبانًا أكثر حقارةً من الرجل الذي تخلى عن معركة سعادته، خائفًا من تأكيد حقه في العيش، ومفتقرًا لولاء طائر لحياته أو شجاعة زهرة تلتمس أشعة الشمس. تخلّص من الخرق البالية التي تغطي بها تلك الرذيلة التي تسميها فضيلة: وهي الخنوع والاتضاع، وتعلّم أن تقدّر نفسك، مما يعني أن تقاتل من أجل سعادتك. وعندما تتعلم أن الاعتزاز بالنفس هو مجموع كل الفضائل، حينها ستتعلم أن تعيش إنسانًا.

كخطوة أساسية نحو تقدير الذات، تعلّم أن تتعامل مع أي إنسان يطلب مساعدتك على أنه من آكلي لحوم البشر. فسؤاله لها ينبع عن ادعائه بأن حياتك ملك له، وبقدر ما يكون هذا الادعاء شنيعًا، فما يزال هناك شيء أشد شناعة: وهو موافقتك. هل تسأل

إذا كان من الصائب على الإطلاق مساعدة إنسان آخر؟ الجواب هو لا، إن طلب هذا المرء المساعدة من باب أنها حق له أو واجب أخلاقي مدين أنت له به. والجواب هو نعم، إن كانت هذه هي رغبتك التي تنبع من منطلق تحقيق سعادتك الأنانية التي تعتمد على قيمة شخصه وكفاحه. إن المعاناة في حد ذاتها ليست قيمة، وإنما القيمة هي كفاح المرء ضد المعاناة. فإن اخترت مساعدة إنسان يعاني، فلا تفعل هذا إلا على أساس فضائله، أو على أساس كفاحه من أجل تخليص نفسه من المعاناة، أو على أساس ما يزخر به سجلّه العقلاني، أو حقيقة أنه يعاني شكلًا من أشكال الظلم. وحينها ما يزال فعلك فعل مقايضة واتجار، وفضيلته هو الثمن المقابل لمساعدتك. لكن أن تساعد شخصًا ليس له فضائل، وأن تساعده على أساس معاناته في حد ذاتها، وأن تقبل أخطائه وحاجته كذريعة تستجوب مساعدته، فأنت بذلك تقبل خوض رهان خاسر على قيمك. إن الإنسان الذي لا يملك أي فضائل هو كاره للوجود ويتصرف على أساس فرضية الموت، ومساعدته هو بمثابته تصديق على شرّه ودعم لعمله المتمثل في التدمير. سواء أكان يتعلق الأمر ببنس واحد لن تشعر بفقدانه من محفظتك أو ابتسامة لطيفة في وجهه لم يستحقها، فإن تقدير أي عمل يفتقر إلى القيمة ويرتبط بحالة العَدَم هو خيانة للعيش ولكل أولئك الذين يكافحون للحفاظ عليه. ومن هذه البنسات والابتسامات نشأ خراب عالمكم.

مكتبة
t.me/soramnqraa

لا تقولوا إنّه يصعب عليكم ممارسة أخلاقياتي وأنكم تهابونها بقدر ما تهابون المجهول. ومهما كانت لحظات العيش الفعلية التي عرفتموها، فقد عشتموها وفقًا لقيم مدونتي الأخلاقية. لكنكم كبتم هذه الحقيقة ورفضتموها وخنتموها. وظللتم تضحون بفضائلكم من أجل رذائلكم، وبأخير الرجال من أجل سافلهم. انظروا حولكم: فما تسببتم به للمجتمع تسببتم به أولًا لأرواحكم، وكل واحد منهما هو صورة الآخر. هذا الحطام الموحش والكئيب، الذي هو عالمكم الآن، هو الشكل المادي للخيانة التي ارتكبتموها في حق قيمكم، وأصدقائكم، والمدافعين عنكم، ومستقبلكم، وبلدكم، وأنفسكم.

نحن- الذين تنادون عليهم الآن لكنهم لن يجيبونكم أبدًا- كنّا نعيش بينكم، لكنكم فشلتم في التعرّف علينا، ورفضتم رؤية ما كنّا عليه والتفكير في ذلك. لقد أخفقتم في التعرّف على المحرك الذي اخترعته وبات كومة من الخردة المهملة في عالمكم. وأخفقتم في التعرف على البطل في أرواحكم. وأخفقتم في التعرّف عليّ عندما مررت بجانبكم على الطريق. لكن حينما صرختم بيأس من أجل عودة الروح التي بعدت عن متناول أيديكم والتي شعرتم أنها هجرت عالمكم، نسبتموها إلي، وكان هذا فعلًا فيه خيانة لتقديركم لذواتكم. ولن تستردوا واحدًا دون الآخر (تقدير الذات ووجود المنتجين).

عندما فشلتم في الاعتراف بعقل الإنسان وحاولتم أن تحكموا

البشر بالقوة، فإن أولئك الذين خضعوا لكم لم تكن لديهم عقولهم يسلّموها، وأولئك الذين كانت لديهم عقول كانوا هم من لا يخضعون. وهكذا اتخذ صاحب العبقرية المُنتجة دور المستهتر المجنون في عالمكم وأصبح مدمرًا للثروة، ومختارًا القضاء على ثروته بدلًا من تسليمها تحت تهديد البنادق. واتخذ المفكّر صاحب العقل دور القرصان في عالمكم، للدفاع عن قيمه بالقوة ضد القوة التي تستخدمونها بدلًا من الخضوع للحكم الغاشم. هل تسمعونني، فرانسيسكو دانكونيا وراجنر دانشولد، أصدقائي الأوائل، وزملائي المقاتلين، وزملائي المنبوذين، الذين أتحدث باسمهم وشرفهم؟

لقد كان ثلاثتنا من بدأ ما أكمله أنا الآن. لقد كان ثلاثتنا من قرر الانتقام لهذه البلاد والإفراج عن روحها المسجونة. لقد بُنيت هذه الدولة العظيمة على أساس مبادئي الأخلاقية- على السيادة غير المُنتهكة لحق الإنسان في الوجود- لكنكم تخشون الاعتراف بذلك وتخشون العيش بموجبها. لقد شهدتم إنجازًا لا مثيل له في التاريخ، ونهبتم أثاره وطمستم مسبباته. وفي ظل وجود هذه المآثر والمفاخر للأخلاق الإنسانية، والتي تتمثل في المصانع والجسور والطرق السريعة، ظللتم تلعنون هذه البلاد باعتبارها فاسدة وتلعنوا تقدّمها بوصفه «جشعًا ماديًا»، وظللتم تقدّمون الاعتذارات عن عظمة هذا البلد إلى معبود المجاعات البدائية، ومعبود جماعات أوروبا الفاسدة، وهو المتشرد المعتل ذو النزعة

الباطنية.

هذه البلاد- التي هي نتاج العقل- لم يكن ليُقدر لها البقاء إن سارت على أخلاقيات التضحية. ولم تُبنَ على أيدي رجال سعوا للتضحية بالنفس أو على أيدي رجال سعوا وراء المساعدات والصدقات. ولم تكن لتقام على الانقسام الباطني الذي يفصل روح الإنسان عن جسده. ولم تكن لتصمد على العقيدة الباطنية التي تلعن هذه الأرض باعتبارها شرًا وتلعن الذين نجحوا في العيش عليها باعتبارهم مفسدين. كانت هذه البلاد منذ بدايتها تشكل تهديدًا للحكم الباطنيّ القديم. ومع الانطلاق الصناعي المبهر لشبابها، أظهرت هذه البلاد لعالم يكتنفه الارتياب العظمة التي بإمكان الإنسان تحقيقها، والسعادة التي كانت من الممكن تحقيقها على الأرض. وكان الأمر يقتصر على أحد الخيارين: أمريكا أو أهل الباطن. وقد أدرك الباطنيون هذه الحقيقة لكنكم لم تفعلوا. لقد تركتموهم يصيبونكم بعدوى تقديس الحاجة، بحيث أصبحت هذه البلاد مخلوقًا عملاقًا في الجسد مع قزم سارق في موطن الرّوح، بينما كانت روحها الحية مدفوعة تحت الأرض لتعمل وتطعمكم في صمت، وهي غير مسماة، وغير مكرّمة، ومنفية. كانت روحها وبطلها هو الصناعيّ. أتسمعني الآن، هانك ريدين، أنت يا من كنت أكبر ضحايا نظامهم الذي انتقمت لأجله؟

لن يعود هو ولا بقيتنا حتى يصبح الطريق مفتوحًا لإعادة بناء هذه البلاد، وحتى يُزال حطام أخلاقيات التضحية من طريقنا.

وبما أن النظام السياسي في أي دولة يعتمد على مدونتها الأخلاقية، لذا سنعيد بناء النظام الأميركي على المنطلق الأخلاقي الذي كان الأساس الذي تقوم عليه أمريكا في بدايتها، لكنك عاملته على أنه منطلق إجرامي في باطنه، في خضم تملصك الأهوج من الصراع بين هذا المنطلق وأخلاقكم الباطنية: وهو المنطلق القائل بأن الإنسان غاية في ذاته، وليس وسيلة لتحقيق غايات الآخرين، وأن حياة الإنسان وحريته وسعادته هي ملكه بحق غير قابل للتصرف.

أنتم الذين فقدتم مفهوم الحق والصواب، أنتم الذين تتأرجحون في تملص عاجز بين الادعاء بأن الحقوق هي هبة من الله، هبة غيبية ما تؤخذ إلا بالإيمان، والادعاء بأن الحقوق هي هبة من المجتمع قد تتعرض للانتهاك وفق هواه التعسفي، فإن مصدر حقوق الإنسان ليس القانون الإلهي أو قانون الكونجرس، بل قانون الهوية. فـ (أ) هو (أ) والإنسان إنسان. الحقوق هي شرط الوجود الذي تقتضيه طبيعة الإنسان من أجل عيشه السليم. وإذا كان للإنسان أن يعيش على الأرض، فمن الصواب أن يستخدم عقله، ومن الصواب أن يتصرف بناءً على حكمه الحر، ومن الصواب أن يعمل من أجل قيمه وأن يحافظ على نتاج عمله. إن كانت الحياة على الأرض هي غايته، فلديه الحق في أن يعيش ككائن عقلاني، وطبيعته لا تسمح بغير ذلك. وأي جماعة أو عصابة أو أمة تحاول أن تنكر حقوق الإنسان، فهي مخطئة، ما يعني أنها شريرة، ما يعني أنها مناهضة للعيش.

الحقوق مفهوم أخلاقي، والأخلاق مسألة اختيار. والأفراد أحرار في عدم اختيار بقاء الإنسان كمعيار لأخلاقهم وقوانينهم، لكن ليس لديهم الحرية في الإفلات من حقيقة أن البديل هو مجتمع من آكلي لحوم البشر، والذي يبقى لفترة من الوقت من خلال التهام أفضل ما لديه ومن ثم ينهار مثل جسم مسرطن، بعد أن أفسد الجزء المعتل الجزء السليم، وبعد أن تعرّض العقلاني للاستنزاف على يديّ غير العقلاني. كان هذا هو مصير مجتمعاتكم عبر التاريخ، لكنكم تهربتم من معرفة السبب. وأنا هنا لأقول ذلك: إن المصير الحتمي لمجتمعات لا تتبع العقلانية هو الانهيار والاضمحلال، وهذا قانون لا مناص منه مثل قانون الهوية. فكما أن الإنسان لا يستطيع أن ينعتق من ربقة العقل، فكذلك لا يستطيع رجلان، أو ألفيّ، أو ملياريّ إنسان فعل ذلك. وكما أن الإنسان لا يستطيع أن ينجح في رفض الواقع، فكذلك لا تستطيع أمة بكاملها، أو دولة، أو عالم فعل ذلك. (أ) هو (أ). وما عداه هو مسألة وقت يوفره كرم الضحايا.

ومثلما لا يمكن للإنسان أن يوجد بدون جسده، فلا وجود للحقوق في غياب حق المرء في ترجمتها إلى واقع- بالتفكير والعمل والاحتفاظ بالنتائج- وهذا يعني: حق الملكية. إن أتباع النزعة الباطنية المعاصرون في الجسد الذين يقدمون لك البديل الاحتيالي المتمثل في «حقوق الإنسان» مقابل «حقوق الملكية»، كما لو كان أحدهما يمكن أن يوجد بدون الآخر، فهم يخلقون محاولة أخيرة

بشعة لإحياء عقيدة الروح مقابل الجسد. لكن وحده الشبح يمكن أن يوجد بدون ملكية مادية، ووحده العبد يمكنه العمل بلا حق في نتاج جهده. والمبدأ القائل بأن «حقوق الإنسان» أرفع من «حقوق الملكية» ما يعنيه ببساطة هو أن بعض البشر لهم الحق في الحصول على ممتلكات الآخرين، بما أن الكفؤ ليس لديه ما يكسبه من القاصر، ويعني أن للقاصرين حق في امتلاك أفضل ما لدى هؤلاء واستخدامهم كمواشي منتجة. ومن ينظر إلى هذا باعتباره فعلًا إنسانيًا وصائبًا، فليس له الحق في الحصول على لقب «إنسان».

مصدر حقوق الملكية هو قانون السببية. وكل الممتلكات وكل أشكال الثروة ما هي إلا نتاج عقل الإنسان وعمله. وكما أنه يُستحال أن تحصل على نتائج بدون أسباب، فكذلك يُستحال أن يكون لديك ثروة بدون مصدرها: وهو عقلك. لا يمكنك إجبار العقل على العمل: فهؤلاء القادرين على التفكير لن يعملوا تحت وطأة الإكراه، وأولئك الذين سيعملون تحت وطأة الإكراه لن يزيد مقدار إنتاجيتهم عن ثمن السوط اللازم لإبقائهم مستعبدين. لا يمكنك الحصول على منتجات العقل إلا وفق شروط مالكه، أي بالتجارة والموافقة الطوعية. وأي سياسة أخرى ينتهجها البشر تجاه ممتلكات الإنسان هي سياسة مجرمين، بغض النظر عن أعدادهم. والمجرمون هم همجيون يمارسون احتيالًا قصير المدى، ويتضورون جوعًا عندما تنفد فرائسهم، تمامًا كما تتضور أنت جوعًا اليوم، أنت الذي صدّقت بأن الجريمة يمكن أن تكون «عملية» إذا أصدرت

حكومتك مرسومًا ينصّ على أن السرقة قانونية وأن مقاومة السرقة غير قانوني.

الغرض الوحيد المنشود من أي حكومة يتلخص في حماية حقوق الإنسان، وهذا يعني حمايته من العنف الجسدي. فالحكومة السليمة ليست أكثر من شرطي يعمل مسؤولًا عن الدفاع عن الآخرين، وعلى هذا قد يلجأ إلى القوة فقط ضد أولئك الذين يشرعون في استخدام القوة. وتتمثل المهام الصحيحة الوحيدة التي تضطلع بها أي حكومة في ما يلي: الشرطة لحمايتك من المجرمين، والجيش لحمايتك من الغزاة الخارجين، والمحاكم لحماية ممتلكاتك وعقودك من التعرض للانتهاك أو الاحتيال على أيدي الآخرين، ولتسوية النزاعات عن طريق قواعد عقلانية، وفقًا للقانون الموضوعي. لكن الحكومة التي تبادر إلى استخدام القوة ضد أولئك الذين لم يمارسوها على أحد، واستخدام الإكراه المسلح ضد الضحايا منزوعي السلاح، فهي بمثابة آلة شيطانية مروعة صُممت لإبادة الأخلاق: مثل هذه الحكومة تنقض الغرض الأخلاقي الوحيد من وجودها وتتحول من دور حامٍ إلى دور ألد أعداء الإنسان وأشدهم فتكًا، ومن دور الشرطي إلى دور المجرم المخول بحق ممارسة العنف ضد الضحايا المحرومين من حق الدفاع عن النفس. ومثل هذه الحكومة تستبدل الأخلاق بقاعدة السلوك الاجتماعي التالية: يجوز لك أن تفعل ما يحلو لك بجارك، شريطة أن تكون عصابتك أكبر من عصابته.

وحده الغاشم أو الأحمق أو المتهرب الذي يوافق على العيش وفقًا لمثل هذه الشروط أو يوافق على منح أقرانه شيكًا فارغًا على حياته وعقله، ويقبل الاعتقاد بأن الآخرين لديهم الحق في التصرف بشخصه كيفما شاءوا، وأن إرادة الأغلبية هي السلطة القاهرة، وأن قوة العضلات والأرقام هما بديلان للعدالة والواقع والحقيقة. لا نتعامل نحن أصحاب العقل، نحن من هم تجار لا سادة ولا عبيد، بشيكات فارغة ولا نمنحها. ولا نعيش أو نعمل بأي شكل من الأشكال غير الموضوعية.

طيلة ما كان الناس في أي عصر همجي يفتقرون لمفهوم للواقع الموضوعي ويؤمنون أن الطبيعة المادية تحكمها أهواء شياطين مجهولة، فلا فكر ولا علم ولا إنتاج كان ممكنًا. وكان ليس بوسعهم الاعتماد على معرفتهم، واختيار مسارهم، والتخطيط لمستقبلهم، والارتقاء ببطء من العيش في كهوفهم إلا عندما اكتشفوا أن الطبيعة كانت مطلق ثابت ويمكن التنبؤ به. والآن، لقد أعدتم الصناعة الحديثة، بما تتسم به من تعقيد هائل في الدقة العلمية، إلى حكم الشياطين المجهولة، الحكم المُتقلّب للأهواء التعسفية للبيروقراطيين التافهين المتسترين والبشعين. لن يستثمر المزارع الجهد الذي يبذله في صيف واحد إذا كان غير قادر على حساب فرصه في الحصاد، لكنك تتوقع من عمالقة الصناعة- الذين يخططون لعقود من الزمن ويستثمرون في الأجيال القادمة ويأخذون على عاتقهم تنفيذ عقود مدتها تسعة وتسعون عامًا-

الاستمرار في العمل والإنتاج، دون معرفة أي نزوة عشوائية في رأس أي مسؤول عشوائي ستنزل عليهم في أي لحظة لهدم جهودهم بأكملها. ووحدهم الهائمون وعمال الأعمال البدنية من يخططون ويعيشون ضمن نطاق اليوم. فكلما كان العقل أنضج، كان نطاق الرؤية أبعد. والمرء الذي لا تذهب رؤيته إلى ما هو أبعد من كوخ، قد يستمر في بناء الأكواخ على رمالكم المتحركة، لجني ربح سريع والركض بعيدًا. لكن الإنسان الذي يتصور ناطحات السحاب لن يفعل ذلك. ولن يقضي عشر سنوات من التفاني الشديد في مهمة ابتكار منتج جديد، عندما يعلم أن العصابات من أصحاب المقدرة المتوسطة المترسخة تتلاعب بالقوانين ضده، لتقييده وتضييق الخناق عليه وإرغامه على الفشل، وأنه إذا ما ناضل وحاربهم ونجح، فسوف يستولون على مكافآته واختراعه.

انظر إلى ما هو أبعد من نطاق اللحظة، أنت الذي تبكي بأنك تخشى التنافس مع الرجال من ذوي العقل المتفوق، وأن عقولهم تشكل تهديدًا لمصدر رزقك، وأن القوي لا يترك أي فرصة للضعيف في سوق يقوم على التجارة الطوعية. ما الذي يحدد القيمة المادية لعملك؟ في حال كنت تعيش على جزيرة مهجورة فإنه لا شيء سوى الجهد المثمر الذي يبذله عقلك. وكلما كان تفكير عقلك أقل كفاءةً، قل مقدار الانتفاع من الجهد الجسدي. ويمكنك أن تقضي حياتك على وتيرة واحدة، تجمع فيها كمية هشة من المحصول الزراعي أو تصيد بالقوس والسهام، وأنت غير قادر على

التفكير أكثر من ذلك. لكن عندما تعيش في مجتمع عقلاني، حيث يتمتع الأفراد بحرية الاتجار، فإنك تحصل على منافع ومكافآت لا تحصى: فالقيمة المادية لعملك لا تُحدد بجهود عقلك فحسب، بل بجهود أفضل العقول المنتجة الموجودة في العالم من حولك أيضًا.

عندما تعملون في مصنع حديث، فإنكم تحصلون على أجر، ليس مقابل عملكم وحسب، ولكن مقابل كل العبقرية المنتَجة التي جعلت هذا المصنع ممكنًا: مقابل عمل الصناعيّ الذي بناه، ومقابل عمل المستثمر الذي ادخر المال للمخاطرة في خوض الجديد وغير المُجرّب، وعمل المهندس الذي صمم الآلات التي تكبس على مقابضها، وعمل المخترع الذي ابتكر المنتج الذي تقضي وقتك في صنعه، وعمل العالِم الذي اكتشف القوانين التي دخلت في صنع هذا المنتج، وعمل الفيلسوف الذي علّم الرجال كيف يفكرون والذي تقضون وقتكم في التنديد به وإدانته.

إنّ الآلة، التي تمثل الهيئة الصلبة للذكاء الفذ، هي القوة التي من شأنها أن توسع إمكانات حياتك من خلال زيادة الإنتاجية في وقتك. إن كنت تعمل حدادًا في العصور الوسطى لأصحاب النزعة الباطنية، فإن كامل قدرتك على الكسب ستتألف من قضيب حديدي أنتجته يديك خلال أيام وأيام من الجهد. لكن كم طنًا من القضبان الحديدية تنتجه يوميًا إذا كنت تعمل لدى هانك ريدين؟ هل تجرؤ على الادعاء بأن حجم شيك أجرك قد وُضع وفق جهدك البدني وحسب وأن هذه القضبان كانت نتاج عضلاتك؟ إن كان

الأمر كذلك، فإنّ المستوى المعيشي لهذا الحداد القديم هو كل ما تستحقه عضلاتك، والباقي يُعد عطية من هانك ريدين.

كل رجل هو حر في الارتقاء بمستوى معيشته بقدر ما هو قادر أو راغب في ذلك، ووحدها درجة التفكير هي التي تحدد مستوى الارتقاء الذي سيصل إليه. لا يمكن أن يمتد الجهد البدني بحد ذاته إلى ما هو أبعد من نطاق اللحظة. فالمرء الذي لا يقوم بأكثر من الجهد البدني، يستهلك القيمة المادية المكافئة لإسهامه في عملية الإنتاج، ولا يترك أي قيمة أخرى، لا لنفسه ولا للآخرين. لكن المرء الذي ينتج فكرة في أي مجال من مجالات المسعى العقلاني- المرء الذي يكتشف معارف جديدة- هو المحسن الدائم للإنسانية. حيث أن المنتجات المادية لا يمكن أن يتشاركها الناس، لأنها تنتمي إلى مستهلك نهائي، ووحدها قيمة الفكرة هي ما يمكن مشاركتها مع عدد غير محدود من الأفراد، مما يجعل جميع المشاركين أكثر ثراءً ليس على حساب تضحية أحد أو خسارته، ويزيد من القدرة الإنتاجية لأي عمل يؤدونه. وقيمة الوقت هي ما ينقلها صاحب الذكاء الفذ لمن هم ما دونه، ليدعهم يعملون في الوظائف التي اكتشفها، بينما يكرس وقته لمزيد من الاكتشافات. وهذا ما يمثل تجارة متبادلة من أجل تحقيق منفعة متبادلة، فمصالح العقل واحدة، بغض النظر عن درجة الذكاء، بين الأفراد الذين يرغبون في العمل ولا يسعون وراء ما لم يكتسبوه أو يتوقعون الحصول عليه.

وتبعًا للجهد العقلي المبذول، ووفقًا لمذهبكم، فإن المرء الذي يخلق اختراعًا جديدًا لا يتلقى سوى نسبة ضئيلة من قيمته كمخترع من حيث المدفوعات المادية، مهما كان مقدار الثروة التي يجنيها اختراعه، ومهما كانت الملايين التي يكسبها. لكن المرء الذي يعمل بوابًا في المصنع الذي ينتج هذا الاختراع، يتلقى أجرًا هائلًا يتناسب مع الجهد العقلي الذي تتطلبه وظيفته منه. ويصدق الشيء نفسه على جميع الناس، وعلى كافة مستويات الطموح والقدرة. حيث أن المرء الذي يقع على قمة الهرم الفكري هو أكثر من يساهم من بين كل من هم دونه، لكنه لا يحصل على شيء سوى أجره المادي، ولا يتلقى أي حوافز فكرية من الآخرين يضيفها إلى قيمة وقته. والمرء الموجود في القاع الذي سيتضور جوعًا إذا ما تُرك الأمر له بسبب عدم كفاءته الميؤوس منها، لا يساهم بأي شيء لمن هم فوقه، لكنه يحصل على علاوات كل ما تنتجه عقولهم. هذه هي طبيعة «المنافسة» بين القوي والضعيف في العقل بالنسبة إليكم. وهذا هو نمط «الاستغلال» الذي من أجله لعنتم الأقوياء.

كانت هذه هي الخدمة التي قدمناها لكم وكنّا سعداء ومستعدين لتقديمها. ماذا سألنا في المقابل؟ لا شيء سوى الحرية. لقد طلبنا منكم أن تتركوا لنا الحرية في الصَنعَة، الحرية في التفكير والعمل كما نختار، الحرية في خوض المجازفات وتحمل الخسارة، الحرية في اكتساب الأرباح وتحقيق الثروات، الحرية في المراهنة على عقلانيّتكم، وإخضاع منتجاتنا إلى تقييمكم بغرض الاتجار

الطوعي، والاعتماد على القيمة الموضوعية لعملنا وعلى قدرة عقولكم في رؤيتها وتمييزها، الحرية في الاعتماد على عقولكم وصدقكم، وعدم التعامل مع أي شيء سوى عقولكم. كان هذا هو الثمن المقابل الذي طلبناه، والذي اخترتم رفضه باعتباره باهظًا للغاية. لقد قررتم أن تصنفوه ظلمًا أن نمتلك قصورنا ويخوتنا، نحن الذين أخرجوكم من أكواخكم وقدموا لكم شققًا حديثة وأجهزة راديو وأفلامًا وسيارات، وقررتم أن لكم الحق في الحصول على أجوركم، ولكن ليس لدينا الحق في الحصول على أرباحنا، وأنكم لا تريدوننا أن نتعامل مع عقولكم، ولكن أن نتعامل مع بنادقكم بدلًا من ذلك. وكان ردنا على هذا هو «اللعنة عليكم!، وقد تحققت دعوتنا، فها أنتم معذبون ملعونون».

لم تكترثوا بالتنافس في العقل، والآن تتنافسون في الوحشية. لم تكترثوا بأن تكتسبوا المكافآت من خلال الإنتاج الناجح، والآن تديرون سباقًا تُربح فيه المكافآت من خلال النهب الناجح. لقد وصفتم الأمر بالأنانية والقسوة أن تُقايض القيمة بالقيمة، والآن أنشأتم مجتمعًا غيري يُقايض فيه الابتزاز بالابتزاز. نظامكم هو حرب أهلية قانونية، حيثما يهاجم فيه الأفراد بعضهم بعضًا ويناضلوا من أجل وضع قبضتهم على القانون الذي يستخدمونه كهراوة للاعتداء على منافسيهم، حتى تنتزعه عصابة أخرى من قبضتهم وتضربهم به بدورهم. وجميعهم يصرخون بتأكيدهم على أن ما يفعلونه هو في سبيل خدمة مصلحة عامة غير محددة وليست

ذات مسمى. قلتم إنكم لا تروا اختلافًا بين سلطة المال وسلطة السلاح، ولا اختلاف بين الثواب والعقاب، ولا اختلاف بين الشراء والنهب، ولا اختلاف بين السعادة والخوف، ولا اختلاف بين الحياة والموت. لكنكم تدركون الاختلاف الآن.

قد يتذرع البعض منكم بحجة جهلكم ومحدودية العقل ومحدودية البصيرة. لكن الملعونون منكم والأشد ذنبًا بينكم هم الأشخاص الذين لديهم القدرة على المعرفة ولكنهم اختاروا طمس الواقع، والأشخاص الذين كانوا على استعداد لبيع عقولهم إلى عبودية القوة ذات النزعة التشاؤمية: السلالة الوضيعة من الباطنيون في العلم الذين يعلنون التمسك والإكباب على نوع من «المعرفة الخالصة»- يأتي هذا من ادعائهم بأن هذه المعرفة ليس لها غرض عملي على هذه الأرض- والذين يحتفظون بمنطقهم للجمادات، لكنهم يؤمنون أن موضوع التعامل مع البشر لا يتطلب ولا يستحق العقلانية، والذين يحتقرون المال ويبيعون أرواحهم مقابل مختبر يموّنه السلب والنهب. ونظرًا إلى أنه لا يوجد في الواقع ما يُسمى بـ «المعرفة غير العملية» أو أي نوع من الفعل «المنزّه عن الغرض»، وبما أنهم يحتقرون استخدام علمهم لغرض العيش ومنفعته، فإنهم يقدمون علمهم لخدمة الموت، ولتحقيق الغاية العملية الوحيدة التي يمكن للصوص امتلاكها: اختراع أسلحة القسر والدمار. إنهم، هؤلاء الذين تسعى عقولهم إلى التهرب من القيم الأخلاقية، هم الملعونون على هذه الأرض، وذنبهم ذنب لا

يُغتفر. هل تسمعني أيها الطبيب روبرت ستادلر؟

لكنه ليس هو من أود أن أتحدث إليه. إنني أتحدث إلى أولئك منكم الذين احتفظوا بجزء مستقل من أرواحهم، غير مباعٍ وغير مختومٍ بشعار «تحت أوامر الآخرين». إن كانت لديكم رغبة صادقة وعقلانية لمعرفة ما خطب العالم، في خضم فوضى الدوافع التي جعلتكم تستمعون إلى إذاعة الليلة، فأنتم من وددت أن أخاطبهم. وطبقًا لقواعد مدونتي وشروطها، يدين المرء بتوضيح عقلاني إلى أولئك الذين يهمهم الأمر ويبذلون جهدًا في معرفته. وأولئك الذين يبذلون جهدا ليسيئوا فهمي، ليسوا بشاغل لي وأعفيهم من اهتمامي.

إنني أتحدث إلى أولئك الذين يرغبون في العيش واستعادة شرف أرواحهم. والآن بعد أن عرفتم الحقيقة بشأن عالمكم، فتوقفوا عن دعم من يدمرونكم. فالشرُّ الموجود في العالم لم يغدو ممكنًا إلا من خلال الإقرار الذي منحتموه له. اسحبوا إقراركم وموافقتكم. ولا تحاولوا أن تعيشوا وفقًا لشروط أعدائكم أو أن تفوزوا في لعبة هم من يضعون قواعدها. لا تسألوا المعروف والإحسان من أولئك الذين استعبدوكم، ولا تستجدوا الصدقات ممن سرقوكم، وسواء كان الأمر يتعلق بمنحكم إعانات أو قروضًا أو وظائف، فلا تنضموا إلى فريقهم لاسترداد ما أخذوه منكم في الأساس عن طريق مساعدتهم في سرقة جيرانكم. لا يمكن للمرء أن يأمل في الحفاظ على حياته من خلال قبول الرشاوي للتغاضي عن تدميره.

لا تكافحوا من أجل تحقيق الربح أو الأمن على حساب رهن حقكم في العيش. فهذا الرهن لن تستطيعوا أن تستوفوا ثمنه، حيث أنه كلما دفعتم لهم أكثر، أرادوا المزيد منكم. وكلما زادت القيم التي تسعون إليها أو تحققونها، جعلوكم أقل حيلةً وبأسًا. فنظامهم هو نظام ابتزاز صريح صُمم لإراقة دمائكم، وليس من خلال خطاياكم، بل من خلال حبكم للعيش.

لا تحاولوا أن تنهضوا من وحل شروطهم الإجرامية أو تتسلقوا سلمًا هم يمسكون بحباله. لا تدعوا أيديهم تصل إلى القوة الوحيدة التي تبقيهم في السلطة: طموحكم في الحياة. اذهبوا في إضراب بالطريقة التي قمت بها. استخدموا عقولكم ومهارتكم بمنأى عن الأنظار، ووسعوا نطاق معرفتكم، وطوروا قدراتكم، لكن لا تشاركوا إنجازاتكم مع الآخرين. لا تحاولوا إنتاج ثورة مع وجود سَرَقة يركبون ظهوركم. ابقوا في أدنى درجات سلمهم، ولا تكتسبوا أكثر مما يبقيكم على قيد الحياة، ولا تجنوا فلسًا إضافيًا لدعم دولة اللصوص. فبما أنك أسير، فتصرف كأسير، ولا تساعدهم من خلال التظاهر بأنك حر. كن العدو الصامت متين الخُلق الذي يخشونه. وعندما يرغمونك، أطعهم لكن لا تتطوع. لا تتطوع أبدًا بخطوة في اتجاههم، أو برغبة، أو باستنشاد، أو بهدف. لا تساعدوا رجلًا مجرمًا في الادعاء بأنه يتصرف كصديق ومحسن لكم. لا تساعدوا سُجّانكم في التظاهر بأنّ سجنهم هو الحالة الطبيعية لوجودكم. ولا تساعدوهم في تزييف الواقع. هذا التزييف

هو السد الذي يحجزون وراءه خوفهم السري، الخوف من معرفة أنهم غير صالحين للوجود، فأزيلوا هذا السد واتركوهم يغرقون، فموافقتكم هي حزام نجاتهم الوحيد.

وإن وجدت فرصة للاختفاء في برية بعيدًا عن متناولهم فافعل ذلك، لكن لا تعش قاطع طريق أو تنشأ عصابة تنافس اعتداءاتهم، وابنِ لنفسك حياة منتجة ومثمرة مع أولئك الذين يقبلون مدونتك الأخلاقية ومستعدون للنضال من أجل وجود إنساني. ليس لديك أي فرصة لأن تنتصر إن اتبعت أخلاقيات الموت أو من خلال قانون الإيمان والقوة الغاشمة. وضع معيارًا يتوجه إليه الصادقون، وهو معيار العيش والعقل.

تصرف ككائن عقلاني واهدف إلى أن تصبح نقطة التقاء لجميع أولئك المتلهفين لصوت النزاهة، تصرف وفقًا لقيمك العقلانية، سواء كنت وحدك في وسط أعدائك، أو مع قلة من أصدقائك المختارين، أو كنت مؤسّسًا لمجتمع متواضع يقوم على حافة ولادة البشرية من جديد.

عندما تنهار دولة اللصوص محرومة من أحسن عبيدها، وعندما تسقط إلى مستوى من الفوضى العقيمة، مثل أمم الشرق التي يمزقها حكم الباطنيّون، وتتفكك في شكل عصابات من اللصوص الجائعين الذين يتقاتلون لسرقة بعضهم بعضًا، وعندما يُهلك دعاة أخلاق التضحية مع مثلهم الأعلى النهائي، عندها سنعود في ذلك اليوم.

سنفتح أبواب مدينتنا لأولئك الذين يستحقون دخولها، مدينة المداخن وخطوط الأنابيب والبساتين والأسواق والمنازل المصانة التي لا تُنتهك. سوف نصبح مركز حشد لهذه المواقع النائية الخفية التي ستبنونها. ومع علامة الدولار كرمز لنا - علامة التجارة الحرة والعقول الحرة- سنتحرك لاستعادة هذه البلاد مرة أخرى من الهمجيين العاجزين الذين لم يكتشفوا قط طبيعتها وقيمتها وروعتها. وأولئك الذين يختارون الانضمام إلينا سينضمون إلينا، وأولئك الذين لا يفعلون ذلك لن تكون لديهم القوة لإيقافنا؛ فحشود الهمجيين لم تكن قط عقبة أمام الرجال الذين حملوا راية العقل.

عندها ستصبح هذه الدولة مرة أخرى ملاذًا لنوع مخلوقات آخذ في التلاشي: الكائن العقلاني. وسوف يقوم النظام السياسي الذي سننشئه على أساس أخلاقي واحد: وهو أنه لا يجوز لأي إنسان أن يستحصل أي قيم من الآخرين باللجوء إلى القوة الجسدية. فكل إنسان سوف يقف أو يسقط، ويعيش أو يموت بحكمه العقلاني. وإذا فشل في استخدام حكمه العقلاني وسقط، فستكون نفسه هي ضحيته الوحيدة. وإذا كان يخشى أن حكمه غير وافٍ، فلن يُعطى سلاحًا لتحسينه. وإن اختار أن يصحح أخطائه في وقت ما، فسيكون لديه مثال واضح يحتذي به لأولئك الأكثر خبرة وأرفع قدرًا، حتى يوجهونه إلى تعلّم التفكّير. ولكن سنضع حد للممارسة الشائنة والشريرة المتمثلة في إنهاء حياة واحدة كثمن عن أخطاء

حياة أخرى.

في هذا العالم، ستكون قادرًا على النهوض في الصباح بالروح التي عرفتها في طفولتك: روح الشغف والمغامرة واليقين التي تأتي من التعامل مع عالم عقلاني. لا توجد روح طفل تخاف من الطبيعة، وخوفك من الآخرين هو ما سيتلاشى، الخوف الذي أعاق روحك، والخوف الذي اكتسبته في مواجهاتك المبكرة مع الغموض والتقلّب والتناقض والتعسف والتمويه والزيف واللاعقلانية التي وجدتها في الآخرين. ستعيش في عالم يسكنه أفراد مسؤولون، والذين سيتسمون باتساق وثقة تناظر ما عليه الحقائق، إذا ما كُفل لهم نظامًا للوجود حيثما يكون الواقع الموضوعي هو المعيار والحكم. سنوفر الحماية لفضائلك، لكن ليس لرذائلك ومواطن ضعفك. ستُتاح أمامك كل فرصة لممارسة خيراتك، ولن تحصل على أي فرصة لممارسة شرورك. وما ستحصل عليه من الآخرين ليس الصدقة أو الشفقة أو الرحمة أو الصفح عن الخطايا، بل قيمة واحدة، وهي العدالة. وعندما تنظر إلى الآخرين أو إلى نفسك، لن تشعر بالاشمئزاز والشك والذنب، بل ستشعر بشيء واحد ثابت: الاحترام.

هذا هو المستقبل الذي يمكنكم أن تظفروا به. وهو يتطلب منكم نضالًا مثل أي قيمة إنسانية. الحياة بأسرها نضال هادف وخياركم الوحيد هو اختيار الهدف. هل تريدون مواصلة خوض معركة حاضركم أم القتال من أجل عالمي؟ هل تريدون مواصلة

خوض نضال يقوم على التشبث بحيادٍ متداعٍ في منحدر يهوي إلى الهاوية، ونضال مشقاته تذهب هباء منثورًا وانتصاراته تقربك من الدمار؟ أم تريدون خوض نضال يقوم على الصعود من حيد إلى حيد في تقدم ثابت نحو القمة، ونضال مشقاته هو استثمارات في مستقبلكم، وانتصاراته تقربكم من عالم مُثلكم الأخلاقية بشكل لا رجعة فيه، وإذا وافتكم المنية دون أن تبلغوا ضوء الشمس الكامل، ستموتون وأنتم لامستم أشعتها؟ هذا هو الاختيار أمامكم. دعوا عقولكم وحبكم للعيش يقرران.

سأوجّه آخر كلماتي إلى أولئك الأبطال الذين ربما ما يزالون مختبئين في هذا العالم، أولئك المحتجزين والمأسورين، ليس بسبب مراوغاتهم، ولكن بسبب فضائلهم وشجاعتهم العظيمة. يا أخوتي في الروح، تفقدوا فضائلكم وطبيعة الأعداء الذين تخدمونهم. والذين يمسكونكم من خصالكم الحميدة المتمثلة في صبركم وكرمكم وبراءتكم وحبكم، الصبر الذي يجعلكم تحملون عنهم أعباءهم، والكرم الذي يستجيب لصرخات يأسهم، والبراءة التي لا تستطيع تصوير شرهم وتحسين كل الظنون فيهم، وترفض إدانتهم دون فهم وتبيين، وتجعلك غير قادر حتى على فهم دوافع مثل دوافعهم، والحب، حبكم للحياة، الذي يجعلكم تظنون أنهم بشر مثلكم ويحبونها كما تفعلون. لكن عالم اليوم هو العالم الذي أرادوه أن يكون، والعيش هو موضوع كراهيتهم. اتركوهم للموت الذي يقدّسوه ويعبدوه. وباسم ولائكم العظيم لهذه الأرض،

دعوهم ولا تستنفدوا عظمة أرواحكم في تحقيق الانتصار لشرّهم. هل تسمعونني... أحبتي؟

باسم أسمى ما في دواخلكم، لا تضحوا بهذا العالم لحثالته وأرذاله. وباسم القيم التي تبقيكم على قيد الحياة، لا تدعوا نظرتكم للإنسان يشوهها القبح والجبن واللاعقلانية في أولئك الذين لم يحققوا لقبه قط. لا تفقدوا معرفتكم بأن العيش القويم هو أخلاق مستقيمة وعقل لا يُهاود ولا يلين وخطوة تخطو سبلًا شاسعة وغير محصورة. لا تدعوا شعلتكم تنطفئ، ومضة تلو ومضة في احتراق تام، في المستنقعات العقيمة من الأفكار التقريبية، والمنقوصة، والمسيّبة، والمزعزعة. لا تدعوا البطل في أرواحكم يُفنى في إحباط موحش بشأن الحياة التي استحققتموها لكنكم لم تتمكنوا من الوصول إليها. تحققوا من دربكم الذي تسلكونه وطبيعة معركتكم. بإمكانكم أن تظفروا بالعالم الذي تريدوه، فهو موجود، وحقيقي، وممكن. وهو ملك لكم.

لكن الظفر به يستلزم تفانيكم الكامل وانفصالًا تامًا عن عالم ماضيكم، عن المبدأ القائل بأنّ الإنسان قربانًا خُلق لإسعاد الآخرين. حاربوا من أجل قيمة شخصكم. حاربوا من أجل فضيلة اعتزازكم بأنفسكم. حاربوا من أجل جوهر الإنسان: من أجل عقله المنطقي والمستقل. حاربوا بيقين متوهج واستقامة خالصة نابعة عن معرفتكم بأن أخلاقكم هي أخلاق العيش وأن معركتكم هي معركة تحقيق أي إنجاز، وأي قيمة، وأي عظمة،

وأي خير، وأي سعادة موجودة على هذه الأرض.

ستنتصرون عندما تكونون مستعدين لأداء القسم الذي قطعته في بداية معركتي والذي قطعته لأجل أولئك الذين يرغبون في معرفة يوم عودتي، ودعوني أكرره الآن على أسماع العالم:

«أقسم- بحياتي وحبي لها- أنني لن أعيش أبدًا من أجل إنسان آخر، ولن أطلب من إنسان آخر أن يعيش من أجلي».

مكتبة
t.me/soramnqraa

امسح الكود .. انضم إلى مكتبة

@soramnqraa
telegram

آين راند

من أجل مفكر جديد

يُعتبر هذا الكتاب أول عمل فلسفي لآين راند، حيث أرست جانبا مهمّا من أفكارها الفلسفية التي أتت مناقضة للفلسفة الغربية برمّتها في مرحلتها. ولعلّ هذا ما يفسر كمّ العداء والصدامية بينها وبين الأوساط الفكرية التي رأت في أفكارها تتويجا للأفكار الليبرالية ودفاعا عنها ولكن المتأمل والمتفحص في كتاباتها يجد أن دور آين راند ينصبّ في تحرير الإنسان وتحصين حريته من خلال فلسفة فردانيّة تتأسس على الموضوعية بوصفها تيّارا فلسفيا ومنهجا حياتيا يضع الفلسفة أمام حتمية تغيير الأشياء بعيدا عن دغمائية التفاسير الفلسفية واجترار مفاهيمها

في هذا الكتاب تدعو آين راند إلى التأسيس لمفكر جديد يعتمد على قراءة الواقع قراءة علمية تراوح بين التحليل وحتمية التغيير، معتمدة على جانب مهم من أعمالها الروائية بوصفها مدخلا لتسليط الضوء على ما يكتنف الإنسان من غموض ومن إشكاليات وقضايا كثيرة عالقة.

الناشر

ISBN:978-603-91551-3-3
9 786039 155133
WWW.PAGE-7.COM